

من لغة القرآن

تأليف
د. أحمد أحمد بدوي



للطباعة والنشر والتوزيع

اسم الكتاب: من بلاغة القرآن.
المؤلف: د. أحمد أحمد بدوي.
إشراف عام: د. ياسا محمد إبراهيم.
تاريخ النشر: مارس 2005م.
رقم الإيداع: 2003 / 19576
التقييم الدولي: ISBN 977-14-2507-2

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 02)3466434-(02)3472864 فاكس: 02)3462576 (ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 02) 8330287 - (02) 8330289 - فاكس: 02) 8330296
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة -
القاهرة - ص.ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 02) 5909827 - (02) 5908895 - فاكس: 02) 5903395

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 03) 5230569
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 050) 2259675

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الفهرس

٣	إهداء الكتاب
٥	المقدمة
الكتاب الأول	
٩	مقدمات تمهيدية:
٩	العمل الأدبي
١٥	مجال الأدب بين مظاهر الشعور
٢١	علوم البلاغة والنقد الأدبي
٢٦	القراءة الأدبية
٣٦	المنهج الأدبي فى القرآن
٤٣	إعجاز القرآن
٤٩	الفصل الأول: أفاظ القرآن
٤٩	البلاغة والنظم
٥١	تخير اللفظ
٦٤	الفاصلة
٧٤	الغريب
٧٦	المعرب
٧٨	الزائد
٨٥	الفصل الثانى: الآية القرآنية
٨٥	تكونها
٩٠	التقديم والتأخير
٩٥	الذكر والحذف
١٠٢	التنكير والتعريف
١٠٩	الإفراد والتذكير وفروعهما
١١٢	التوكيد والتكرير
١٢١	القصر
١٢٦	الاستفهام
١٢٩	الأمر والنهى
١٢٩	التمنى والترجى
١٣٠	النداء
١٣٢	القسم
١٣٤	الفصل والوصل

١٤٠	بدائع القرآن
١٤٥	التشبيه في القرآن
١٦٣	«كذلك» في القرآن الكريم
١٦٦	التصوير بالاستعارة
١٧١	مجازات القرآن
١٧٣	الكناية والتعريض
١٧٥	الفصل الثالث: السورة
١٨٦	الفصل الرابع: أسلوب القرآن
الكتاب الثاني	
١٩٣	الفصل الأول: المعاني القرآنية
١٩٣	الله
٢٠٤	محمد
٢١٣	القرآن
٢١٩	يوم القيامة
٢٢٧	الجنة
٢٣١	النار
٢٣٥	الجهاد
٢٤٢	المعارك الحربية
٢٤٩	الإنسان المثالي
٢٥٣	الحياة الدنيا
٢٥٥	عبادة الأوثان
٢٥٧	العقائد والعبادات
٢٦٣	الأحكام
٢٦٦	مظاهر الطبيعة
٢٧٠	المدح
٢٧١	الهجاء
٢٧٣	العتاب
٢٧٤	مصر في القرآن
٢٧٦	القصة في القرآن
٢٨١	الجدل
٢٨٤	الابتهاال
٢٨٥	بعض صور الحياة الجاهلية
٢٩١	الفصل الثاني: موازنات
٣٠٠	خاتمة
٣٠١	مراجع البحث

الإهداء

إلى روح أبي...

أبي، قضيت عمرك الطاهر في خدمة كتاب الله، لا تمل
قراءته، تفسره لتلاميذك في معهد الدرس، وتتناوله مع
صحبك في بيتك، وكثيراً ما كنت أشهد طرفاً من ذلك منذ
حداثتي، وكانت الغبطة تملؤني كلما فهمت تفسير آية،
أو أدركت جمال تعبير، أو أشركتني في المناقشة، وسألني
فأجبت، أو سألتك فشرحت ووضحت، ولم يكن عندك في
عهدك الأخير ما يشغلك عن تلاوة القرآن وتفهم معانيه،
فحسبك ترضى عن هذا الجهد الذي أساهم به في الكشف
عن بلاغة القرآن وإدراك سر إعجازه.
وإلى روحك الطاهرة في جنة الخلد، أهدي هذا الكتاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على رسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته.

وبعد: فإن دراسة النص الأدبي دراسة كاملة تتطلب الوقوف عند لبناته الأولى التي هي المفردات، لتبين مدى الإصابة في اختيارها، ومدى تمكنها في موضعها من جملتها، وقوة ربطها بأخواتها، وقديما قال القدماء وأصابوا: إن لكل كلمة مع صاحبها مقاما.

فإذا ما درست المفردات هذه الدراسة الفنية، درست الجملة في النص، لإدراك سر قوتها وجمالها، وهنا المجال فسيح أمام علوم البلاغة الاصطلاحية، التي تدرس أسباب الجمال في تكوين الجملة العربية، فتبحث لِمَ قَدَّمَ هذا الجزء من الجملة، ولم أخر ذلك، ولماذا حذف هنا، وأثبت هناك، ولم جاء هنا التعريف، وهناك التنكير، ولم استخدم الخبر في موضع الإنشاء، ولم عبر هنا بالمجاز، وكيف جمل هنا التشبيه، وراق في هذا الموضوع الجناس، إلى غير ذلك من أبحاث تتصل بالجملة والجملتين.

ونمضي بعدئذ إلى دراسة النص برمته، ننظر إليه وحدة متصلة الأجزاء، فنرى مدى ارتباط بعضه ببعض، ومدى تضافر أجزائه على رسم الصورة التي يريد النص توضيحها، ومدى الإصابة في ترتيب هذه الأجزاء، كي يؤدي سابقها إلى لاحقها، حتى إذا تم النص صارت فكرته واضحة في النفس، جلية مؤثرة.

ولا بد من دراسة المعاني التي حوّاها النص، لمعرفة القوى منها والضعيف، وما له دخل في تكوين الصورة وما هو دخيل، وكيف نُضِدَّت هذه المعاني ونسقت، حتى التأمّت وحدة تنبض بالحياة.

لا نقف إذا من دراسة النص عند حد التأمل فيما أودعه من تناسق لفظي، أو جمال في الأسلوب، ولكن لابد من دراسة ما بين اللفظ والمعنى من تأخ وتناسب، ودراسة ما اختير من المعاني، لمعرفة مدى تأثيرها في الفكر، وإثارتها للوجدان، فإن النفس الإنسانية تنقاد بهما، وتخضع لهما.

والقرآن الكريم أمة وحده في البلاغة العربية، فأردت أن أتبين بعض أسرار سموه، عساي أدرك سبب ما كان له من تأثير في النفوس، وسلطان على القلوب، وقد سرت في دراستي على هذا المنهج الذي تحدثت عنه؛ فقسمت البحث كتابين، خصصت الكتاب الأول منهما بدراسة البلاغة في اللفظ والأسلوب، وخصصت الثاني بدراسة المعاني، فبدأت بمقدمات تمهيدية تحدد معنى الأدب، وتبين ميدان عمله في النفس الإنسانية، وكيف نقرأه قراءة صحيحة نافعة مؤثرة، وتدرس العلوم التي يحتاج إليها الأديب منتجاً أو ناقدًا، وتشرح المنهج الأدبي في القرآن، وتعرض وجوه إعجازه، لبيان الرأي الذي نختاره من بينها، ثم عقدت فصلاً لدراسة اللفظة المفردة في القرآن، تناولت فيه كيف تخيرت هذه الألفاظ تخيراً دقيقاً، لتدل على معانيها في دقة وإحكام، وكيف تقع الفاصلة من الآية موقع الجزء الذي به تمام المعنى ووفائه، وحددت معنى الغريب والزائد وما في استخدامهما واستخدام العرب من ألوان البلاغة، وفي الفصل الثاني طبقت تطبيقاً فنياً ما وعته علوم البلاغة الثلاثة، متجنباً كل التجنب المناقشات الفلسفية، البعيدة عن روح البلاغة، والتي كانت سبباً في وأد الروح الفني حيناً طويلاً من الزمن، وتحدثت في الفصل الثالث عن السورة، لتبين منهجها ومدى وحدتها، محلاً بعض السور، كي تتضح الفكرة وتنجلي، وختمت الكتاب الأول بفصل عن دراسة أسلوب القرآن، أتبين ما أستطيع أن أتبينه من خصائص هذا الأسلوب، وإني أقرر أن مثل هذه الدراسة تحتاج إلى المعاودة مرة أخرى، لتعرف ألوان الأساليب القرآنية وتصنيف هذه الألوان، تبعا للمعاني التي تناولتها، لمعرفة خصائص كل لون على حدة، فيدرس مثلاً أسلوب السور المدنية، وأسلوب الأحكام، وأسلوب القصص، وأسلوب الوصف، وهكذا، ويوازن بين كل نوع وصاحبه، ومثل هذه الدراسة المجدية تحتاج إلى إنعام نظر، وصبر، وأناة، وطول وقت، مما أرجو أن يوفقني الله إليه في القريب إن شاء الله.

وخصصت الكتاب الثاني بدراسة بعض المعاني القرآنية، فدرست كيف تناول القرآن هذه المعاني؟ وما الذي عنى به من بين عناصرها؟ وكيف تناول هذه العناصر؟ ليؤثر في النفس الإنسانية، ولم كان هذا التأثير خالداً؟ والله المسئول أن يوفقنا إلى الصواب، وأن يهدينا سواء السبيل.

الكتاب الأول

العمل الأدبي

يقف الأديب عند سرير جندي جريح، عائد من ميدان القتال، فيثير فيه منظره معانى شتى، للبطولة والتضحية، أو يدخل مصنعاً، قد انصرف فيه كل عامل إلى آله، ومضت الآلات فى عملها تنتج مسرعة، فيوحى إليه ما يراه، بخواطر عن الدأب، والنظام، والتقدم، ويحاول أن يسجل إحساسه إزاء ما رأى وأن ينقل هذا الإحساس إلى غيره، فينشئ مقالة، أو يقرض قصيدة، أو يؤلف قصة أو رواية، ويغضب الخطيب لأمر، فيحاول نقل غضبه فى خطبة إلى سامعيه، ويختار لذلك ألفاظه وأساليبه، بحيث تنقل إحساسه نقلاً صادقاً غير منقوص.

هذه المقالة، أو القصيدة، أو القصة، أو الرواية، أو الخطبة، هى العمل الأدبي فهى الصلة بين الأديب والسامع أو القارئ، وبها انتقل إحساس الأول إلى الثانى. ونستطيع أن نعرفَ العمل الأدبي بأنه «التعبير عن تجربة للأديب بألفاظ موحية» والتعبير بالألفاظ، هو الذى يميز الأدب من باقى الفنون الجميلة؛ لأن الأدب يعبر باللفظ، بينما تعبر الموسيقى بالصوت، والرسم باللون، والنحت بالحجارة.

ونعنى بالتجربة كل ما جربه الأديب، ومر بنفسه من شعور، سواء أكان حقيقياً أم متخيلاً، فقد تكون حادثة صادفت المنشئ فى حياته، أو صادفت غيره، وقد تكون قصة سمع بها، أو منظرأ رآه، أو فكرة عرضت له، أو وهماً مر بخياله، ومن هنا كان كل شىء فى الحياة صالحاً لأن يكون مادة للأديب، يتخذ منها صوراً لبيانه، على شريطة أن يكون قد امتزج بشعوره، وملك عليه جوانب نفسه، ودفعه إلى الكلام، ولهذا يجب أن يكون فى التجربة أمر غير عادى مألوف، وأن تكون ذات قوة ممتازة، وشدة خاصة؛ حتى تبعث فى الأديب القوة الضرورية، لمجهود أدبي، يستطيع به أن يصف التجربة، فى صدق ودقة، وإتقان وبراعة، وبذلك يستطيع أن يبعثها مرة أخرى فى نفوس قارئيه، أو سامعيه.

هذا، وإن الحقائق العلمية قد يمزج بها الأديب إحساسه، وينقلها بهذه الصورة إلى القارئ، فتصبح عملاً أدبياً رائعاً.

إن التجربة لا تكون بسيطة أبداً، بل لابد أن تكون مكونة مما تحمله الحواس إلى الفكر، ومما يأتي به الفكر نفسه من معان، يدعو بعضها بعضاً؛ فالواقف أمام نهر النيل مثلاً، لا تنقل إليه حواسه لون مائه، وحركة موجه، وما على جانبيه من حقول فحسب، بل تنقل إليه أيضاً رقة النسيم، ولون السماء، وما قد يكون فيها من سحب، وهو يضيف إلى ذلك إحساسات أخرى، ولدها خياله، كموازنة هدوئه بالبحر وثورانه، وقد يطوف هذا الخيال بينابيعه، وبالشعوب التي تعيش على ضفافه، أو يعود متوغلاً في القدم، فيذكر ما قام على شاطئيه من حضارة ومدنية، فإذا كانت تلك اللحظة الشعورية قوية، تتطلب التعبير عنها، فإن الأديب يستخلصها من بين ما يمر به من التجارب، ويحتفظ بها في نفسه، وكلما احتفظ بها ازدادت غنى، بما ينضم إليها من ألوان الإحساس، وبتداعي المعاني، فإذا أراد أن ينقل تجربته إلى غيره، وجب أن ينقلها كاملة، فلا نكتفى منه بأن يصور لنا المنظر الذي رآه، أو يذكر الإحساس الذي خالطه عندما رآه، بل يجب أن يؤدي تجربته كاملة الأجزاء، لما شاهده وما أحسه معاً، مرتبطين ارتباطاً وثيقاً، حتى يحس بها القارئ إحساساً كاملاً وتنتقل إلى شعوره، فيتخيلها كما أدركها منشئها، ويمثل هذا التناول يخلد الأديب لحظة من لحظات شعور مرت به في حياته.

إن في الإنتاج الأدبي لعملاً إراديّاً للأديب، ذلك أنه يتناول تجربته، وهي مكونة من أجزاء، فيرتبها ترتيباً منسقاً، ثم يأخذ في إيضاح سلسلة خواطره، واحداً واحداً، على أن يكون لكل خاطر منها دخل في تصوير التجربة وإكمالها، فيكون له وجود من أجل نفسه، ووجود من أجل الكل الذي هو جزء منه، ويجمع هذه الأجزاء، تصير التجربة وحدة متسقة، وكلا موحداً، يتصل كل جزء فيها بسائر الأجزاء، أما إذا كان بعض الأجزاء لا يدخل له في تكوين الصورة، ولكنه جاء بطريق الاستطراد، أو لم تكن التجربة سلسلة الخواطر، يرتبط بعضها ببعض، فإنها تنقل إلى السامع مشوهة، لاصلة بين أجزائها ولا اتساق، وهاك تجربة لقتيلة بنت الحارث، وقد أخذت تعاتب الرسول، لقتله أخاها النضر، برغم قرابته له، واتصاله بنسبه:

أحمد ياخير ضنء ^(١) كريمه	في قومها، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت، وربما	منّ القتي، وهو المغيظ، المحنق
والنضر أقرب من أصبت وسيلة	وأحقهم، إن كان عتق، يعتق
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه	لله أرحام هناك، تشفق

(١) الضنء بالفتح الولد ويكسر.

فقد بدأت حديثها معه تناديه باسمه، نداء القريب، الذى لا كلفة بينك وبينه، مشعرة إياه بشدة الصلة بينهما، حتى لكأنها توحى إليه، بأن هذه القرابة القريبة ما كانت تنتظر على يده هذا المصير، ثم انتبعت إلى مكانة الرسول فى قومه، فنادته واصفة بما يتفق مع هذه المكانة، وكأن قلب الأم، الذى فى كل أنثى، دفعها إلى أن تصفه بأنه خير ابن، لأم كريمة فى قومها، وأب عريق فى الشرف، حتى إذا انتهت من استرعاء سمعه، بهذا النداء، أخذت تسأله سؤال الموجه، الموقن بأن حكم القضاء قد تم، ولا سبيل إلى استرجاعه، فاستخدمت لذلك هذا الاستفهام الحزين، الموحى بأنه لم يكن ثمة خطر فى إطلاقه، فضلا عما فى هذا الإطلاق، من مكرمة المن. وأتت بكلمة «لو» المشعرة بالأسف، لدالاتها على امتناع وجود الفعل، وما كان أدق ذوقها فى اختيار كلمة «ريما» الدالة على حسن الأدب، والتماسها العذر للرسول، وتلميحها إلى ما فى العفو، برغم الغيظ والحنق، من مثل أعلى، جدير بالافتداء، حتى إذا انتهت من ذلك، لمست من الرسول ﷺ موضع العطف، فذكرته بقربه منه، واستحقاقه أن يظفر برعايته، ثم انتقلت من ذلك إلى تصوير هذا القريب، الجدير بالود، أو بالمن، والعتق - هدفاً لسيوف أقربائه، تتناولها بأطرافها، فتمزق بتمزيق أديمه، القرابة وتقطع أواصرها.

وهكذا، كان كل جزء له أثره، فى نقل هذه التجربة التى ملكت نفس قتيلة، ونجحت فى إيصال ألمها للسامع، حتى روى أن الرسول بكى، وقال: لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته.

نستطيع أن نسمى التجربة التى تسيطر على الأديب، وتدفعه إلى التعبير عنها بالإلهام، وكلما عظم هذا الإلهام، احتاج إلى قوة كبيرة، تستطيع التعبير عنه تعبيراً يمثله تمثيلاً صادقاً، ولذا كان كبار الأدباء ذوى سلطان على اللغة، وقدرة قديرة على التعبير، فاستطاعوا أن ينقلوا إلينا من التجارب أعظمها وأسمائها.

وإن لدى الأديب إحساساً لغوياً ممتازاً، يستطيع به أن يختار من الألفاظ ما هو قوى فى تصويره، واضح فى دلالاته على مراده، ويدرك ما تستطيع الألفاظ أن توحى به إلى القارئ، وإن للألفاظ لوحياً يشع منها، فيملأ النفس شعوراً، ويثير الوجدان، ويحرك العاطفة، ذلك أن الألفاظ قد تراكم حولها بمرضى الزمن والاستعمال، معان أخرى، أكثر من هذه المعانى التى نجدها لها فى القاموس، فليس ما بين يدينا من معانى الألفاظ فى المعاجم، سوى هذه المعانى المتبلورة، والأديب البليغ هو من يستنفد ما للألفاظ من معان، أضفاها عليها الزمن، فتثير

فى النفس أعمق الإحساسات، وتملاً الخيال بشتى الصور، وإذا شئت فانظر فى القاموس إلى معانى كلمات: أم، طفولة، ومدرسة، ووطن، مثلاً، فالأم فى اللغة هى الوالدة، ولكن هذا اللفظ يثير فى النفس، إذا سمع، أسمى معانى الحب وأقدس ألوان العواطف، وأشرف آيات الإيثار، وأعمق معانى الحنان، وليست الطفولة سوى وقت الصبا فى القاموس، أما إذا سمعت فإنها تثير تلك الخواطر، التى تحوم حول هذه الأيام النضرة، وعلى هاتيك الملاعب العزيزة، وكم ذكريات تثيرها المدرسة فى النفس، حول عهود محبوبة، وآمال مرتقبة، وأصدقاء مختارين، بينما هى فى المعجم مكان الدراسة، أما كلمة الوطن، فقد تراكم حولها من المعانى والذكريات ما أشار ابن الرومى إلى بعضه حين قال:

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب، قضّأها الشباب هنالك
إذا نكروا أوطانهم نكرتهم عهود الصبا فيها، فحنوا لذلك

فلا عجب أن تثير كلمة الوطن فى النفس هذه الذكريات العذبة المحبوبة، وإن أردت أن تدرك شدة وحى الألفاظ فاقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ (الحجرات ١٢). وانظر أى كراهية ونفور، يثيره فى النفس، تخيل أكل لحم الأخ ميتاً، وقرأ قول الشاعر:

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاء مضاعف الغيث العميم
نزّلنا دوحه، فحننا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا أذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها، ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وانظر ما توحى به إلى النفس «لفحة الرمضاء» فإنها تشعرك بهذا الهواء الساخن، يلفح وجهك، ويرمض عينيك، فتكاد تضع يدك على هذا الوجه، تحجب بها عنه هذه السخونة الممضة، وتحس كما أحس الشاعر بفضل هذا الوادى عليه، فقد حماه من وهج الشمس، وسطوة الحر، فلا غرابة أن يدعو له من كل قلبه، أن يسقيه «مضاعف الغيث». وانظر ما توحى به إلى خيالك كلمة «دوح» من ظل ظليل، ونسيم بليل، تسكن إليه النفس، بعد لفحة الرمضاء، وتخيل «حنو المرضعات» وما يثيره من معانى العطف والحنان، أما «أرشف» فتوحى إليك بهذه المتعة، التى يحس بها الظمآن، لفحة حر الشمس، فأوى إلى ظل ظليل وأخذ يشرب على مهل، يستمتع بالماء الزلال، وكيف يجده حينئذ، أذ من المدامة،

وتخيل كذلك ما يثيره عندك «يروع» والصورة التي تركتها. وكلمة «العذارى» وموضع الفاء، التي تدل على هذه الحركة السريعة، الناشئة من الروعة، وهكذا استطاع الأديب بهذه الألفاظ الموحية، السيطرة على خيالنا، وأن ينقل إلينا إحساسه وشعوره.

ولعل هذا هو السبب، في أن علماء البلاغة، قد كرهوا استعمال الكلمات الغريبة؛ لأنها تعجز عن أن تثير في النفس معنى قبل البحث عنها، فضلا عن أن تثير هذه الخواطر، التي تحيط بالكلمة إذا استعملت.

على أنه قد يشفع في بعض الأحيان، لاستخدام الكلمة الغريبة، أنها وضعت في موضع، سهل الأسلوب فهمها، وكانت هي بجرسها موحية بمعناها، ولعل من ذلك قول شوقي:

خلوا الأكاليل للتاريخ، إن له يبدأ تُولفها درا ومخشلبا^(١)

فهذا الجمع بين الدر والمخشلب، يوحى بما بينهما من الجون الشاسع، وفي حروف الكلمة الغريبة، ما يوحى بأنها تعنى شيئاً حقيراً.

والإحساس اللغوي عند الأديب هو الذي يختار اللفظ اختياراً دقيقاً، بحيث يؤدي المعنى، على وجه لا ليس فيه ولا اضطراب، وهو لذلك يلحظ الفروق الدقيقة بين الكلمات، ويأخذ من بينها أمسها بمعناه، حتى تقوم بواجبها من التوصيل الصادق.

سمع ابن هرمة أديباً ينشد قوله:

بالله ريك، إن دخلت، فقل لها: هذا ابن هرمة، قائماً بالباب

فقال له: لم أقل: «قائماً»، أكنت أتصدق؟ فقال: «قاعداً»، فقال: أكنت أبول؟

قال: فماذا؟ قال: «واقفاً» وليتك علمت ما بين هذين، من قدر اللفظ والمعنى^(٢).

بل إن الإحساس اللغوي، قد يرهف ويدق، فيختار من الكلمات ما يكون بين أصواتها وبين الموضوع ملاءمة، بحيث يكون فيها تقليد للشيء الموصوف، حتى كأنه يوحى به إلى الخاطر، كما تحس بذلك في كلمة «أرشف» من الشعر السابق، وكما اختار المتنبي كلمة «تفاوح» في قوله:

(١) الوارد في المعاجم مشلبة كلمة عراقية معناها خرز بيض يشاكل اللؤلؤ والحنى يتخذ من الليف والخرز.

(٢) الوقوف لا يقتضى الدوام والثبوت، أما القيام فيقتضيهما.

إذا سارت الأحجاج فوق نباته تفاح مسك الغانيات ورثده
فهي تدل بصيغتها، على هذه الموجات النسيمية، تحمل في أردادها عبق
المسك والرند. وكلمة صليل في قوله:

وأمواء، تصلُّ بها حصاهَا صليل الحلى في أيدي الغواني

فهي تسمعك وسوسة المياه تداعب حصاهَا..

وبعض ألفاظ اللغة، أسلس على اللسان، وأجمل وقعا على الأذن من بعض،
وهو جمال ظاهري، يساعد الأديب على إيصال تجربته، وعلماء البلاغة يذكرون
من صفات الألفاظ المفردة ما يصح أن تلتسمه هناك.

وفضلا عما للكلمات من خصائص يدركها إحساس الأديب، كذلك النظم في
العبارة الأدبية، يحمل معنى أكثر مما تؤديه الجملة، بجريها على النحو، فإن
هناك قوى يبثها المؤلف فيها، عن غير عمد حينًا وعن عمد حينًا آخر، فنجد
يقدم، ويؤخر، ويذكر، ويحذف، ويصل، ويفصل، ويأتي ببعض ألوان المعارف
دون بعض، وحينًا يدع المعرفة إلى النكرة، وأنا يستخدم أداة من أدوات الطلب
مكان أخرى، أو يأتي بزخرفة في مكانها، وقد وصل علماء البلاغة إلى إدراك
كثير من هذه الأسرار، فعدوا علما يتحدث عن خصائص الجملة ودعوه علم
المعاني، وعلمًا للخيال الذي يعقد الصلة بين الأشياء ودعوه علم البيان، وآخر
لبعض ألوان الجمال، وسموه علم البديع.

ولكن خصائص النظم، لا تقف عند حد الجملة، بل إن للأساليب خصائص،
فمنها ما يناسب الانفعال السريع، والحركة المتوثبة، ومنها ما يناسب العاطفة
الهادئة، والحركة البطيئة، وقد يدفع الإحساس الفني الأديب، إلى انسجام في
النظم وموسيقى لفظية، تساعد على الإيحاء، وإن هذا الانسجام وهذه الموسيقى
يصلان إلى الذروة في فن الشعر، وبذلك يستطيع الأديب أن يصل إلى أسمى
درجات التأثير.

مجال الأدب بين مظاهر الشعور

يرى علماء النفس للشعور مظاهر ثلاثة: فهو تفكير، إذا كان بحثًا عن حقائق الوجود، لمعرفة أسبابها، واستنباط قواعدها، وإدراك ما بين بعضها وبعض من صلة أو تنافر. وهو وجدان، إذا صحبه إحساس باللذة والألم، فالحب والبغض، والسرور والحزن، والرجاء واليأس، والخوف والغضب، كلها وجدانات تتصل بالنفس، فتحدث بها لذة أو ألما. وهو إرادة إذا حفز المرء إلى العمل، ودفعه إليه، كالرغبات والنيات.

وإن بين هذه المظاهر النفسية اتصالا وثيقا، لا يتأتى معه انفصال واحد عن صاحبيه، وإن كان المظهر الغالب لأحدها. فمن المحال أن نجد ألما في أنفسنا من غير أن نبحت عن سببه، ونبذل طاقتنا في سبيل إبعاده. ويستحيل أن نفكر في عمل عقلي، من غير أن نشعر بارتياح إذا سهل الأمر وانقاد، وامتعاض إذا اعتاص والتوى. والأعمال الإرادية يصحبها التفكير والوجدان، ولا تستقل بنفسها أبداً.

غير أن الصلة التي تربط هذه المظاهر بعضها ببعض، قد تكون طبيعية، إذا كانت التجربة نفسها تستدعي هذا الترابط، بطريق تداعي المعاني؛ كما إذا وصل إليك نبأ نجاحك مثلا، فإن خواطر شتى تغد إلى نفسك من كل صوب، ما بين سرور وابتهاج بما ظفرت به، وتفكير في الوسائل التي انتهجتها، فوصلت بك إلى تلك الغاية السعيدة، إلى رغبات وعزمات تصمم عليها، ويدفعك إليها هذا الظفر المحبوب، وبينما ترى بعض هذه الخواطر واضحا جليا للنفس، ويحتل بؤرة الشعور أو الحواشي القريبة منها، تجد بعضها الآخر غامضا خفيا، لا تكاد تشعر به؛ وتكون الصلة غير طبيعية إذا لم تكن التجربة مستدعية لها بطريق تداعي المعاني، كما إذا كنت تدرس نظريات الهندسة، فسئمت العمل وتركته، فليس بين نظريات الهندسة والسأم من صلة.

ليس التفكير الخالص بميدان للأدب، وإنما هو مرتع للعلم وحده، أما الأدب فمجاله الإحساس بالحسن، الذي يثير في النفس لذة، أو بالقبح الذي يبعث فيها

ألمأ، فالأدب تعبير عن هذا الإحساس، وتصوير له، فهو لسان الوجدان وترجمانه، إذا كان العلم لسان التفكير والمبين عنه.

تسمع قول قريط بن أنيف يعاتب قومه الذين لم ينجدوه، ويمدح بنى مازن، لأنهم أخذوا بيده ونصروه:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصرى معشر خشن عند الحفيظة، إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه، زرافات، ووحدا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات، على ما قال برهانا
لكن قومى، وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيتيه سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهم قوما إذا ركبوا شنوا الإغارة فرسانا وركبانانا

فالشاعر هنا يصور لنا نغمته على قومه، وازدراؤه كثرة عددهم، لخورهم، وجبنهم، حتى ليقابلون ظلم ظالمهم بالصفح والغفران، وإساءة المسيئين إليهم بالعفو والإحسان، يلتمسون لضعفهم المعاذير، من الخضوع لتعاليم الدين، فكأن الله لم يخلق غيرهم لخشيته. أما بنو مازن، فهو معجب ببسالتهم وإقدامهم، يمنعون حماهم أن يستباح، ويجد أعداؤهم فيهم خشونة لا تلين، يسرعون إلى نصره أخيهم، قبل أن يطلبوا منه برهانا على ما قال، فلا عجب أن تمنى استبدال قومه بغيرهم.

تحدث الشاعر فى تلك القطعة عن إعجابه وسخطه، أى عن إحساسه بالجمال والقبح، ونجح فى تصويرهما ونقلهما إلينا، مستعيناً على ذلك بألوان من الخيال، تكاد تلمس بها خشونة جانب من نصروه، وترى بها الشر مكشراً لهم عن أنيابهم، وتبصرهم طائرين لا يلوون على شىء، ومورداً هذه المناقضات التى ما كان يليق أن تكون، ومتهكماً بهم تهكماً مرأ لا ذعاً، ويشعر القارئ لهذا الشعر بلذة، أثارها فينا نجاحه فى التصوير، وبراعته فى التعبير.

بينما نحن لا نعد من الأدب هذه المقالات العلمية، التى تخاطب التفكير وحده، من غير أن تشرك الوجدان معه.

على أن الأديب قد يستعين بقضايا الفكر على تصوير هذا الإحساس، كما فعل المتنبى عندما أراد أن يصور حيرته اليائسة من الوصول إلى أن يدرك كنه الحياة، ومصير الوجود، فقال:

(١) تخالف الناس، حتى لا اتفاق لهم
 فقيل: تخلص نفس المرء سالمة
 ومن تفكر في الدنيا ومهجته
 أقامه الفكر بين العجز والتعب
 وهنا نجد الطريق ممهداً للحديث عن هدف الأدب، والحق أننا نقف بهذا الهدف عند حد الإثارة الوجدانية، فلا نطلب منه أن يمدنا بأفكار صادقة عن الحياة، ولا أن يثير فينا النزوع إلى الأعمال الصالحة، أى أنه ليس مهمته التعليم والإصلاح، وإن كان ذلك لا يمنع من أن يزودنا بالأفكار، أو أن يحرك إرادتنا للعمل، سواء أكان ذلك مقصوداً للأديب أم غير مقصود، فقد يقف الأدب عند حد الإثارة الوجدانية فحسب، كما فى أدب الطبيعة، وشعر الغزل، وكثير من المراثى، والرسائل، والمقالات العاطفية المحضة، مثل قول حافظ يصف عاصفة مرت بالبحر الأبيض، وهو يركب سفينة فيه:

عاصف يرتمى، وبحر يغير
 وأنا بالله منهما مستجير
 وكأن الأمواج، وهى توالى
 محنقات، أشجان نفس تثور
 أزبدت، ثم جرجرت، ثم ثارت
 ثم فارت، كما تفور القـدور
 ثم أوفت، مثل الجبال على الفـلك، وللـفلك عزيمة لا تخور
 تترامى بجوؤ، لا يبـالسى
 أمياه تحوطه أم صخور
 أزعج البحر جانبيها من الشـد، فجنب يعلو، وجنب يغور
 وهو أنا ينحط من علو كالسـيل، وأنا يحوطها منه سور
 وهى تزور كالجواد إذا ما
 ساقه للطعان ندب جسور
 وعليها نفوسنا خائرات
 جازعات، كادت شعاعا تطير
 فى ثنايا الأمواج والزبد المنـدوف، لاحت أكفاننا والقبور
 وقول القشيري:

حننت إلى رياء، ونفسك باعدت
 فما حسن أن تأتى الأمر طائعا
 قفا ودعا نجدا، ومن حل بالحمى
 وقولا لنجد عندنسا أن يودعا
 بنفسى تلك الأرض، ما أطيـب الريا
 وما أحسن المصطاف والمترعا!
 ولما رأيت البشر (١) أعرض دوننا
 وجالت بنات الشوق يحنن نرعا
 بكت عيني اليسرى، فلما زجرتها
 عن الجهل بعد الحلم، أسبلنا معا

(١) الهلاك.

(٢) اسم جبل.

تلفتُ نحو الحى حتى وجدتنى
وأذكر أيام الحمى، ثم أنثنى
وليست عشيات الحمى برواجع
وقول ابن الرومى يرثى ابنه:

بكاؤكما يشفى، وإن كان لا يجدى
ألا قاتل الله المنايا ورميها
توختى حمام الموت أوسط صبيتى
على حين شمت الخير من لمحاته
طواه الردى عنى، فأضحى مزاره
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها
لقد قل بين المهد والحد لبثه
محمد، ما شيء توههم سلوة
أرى أخويك الباقيين كليهما
إذا لعبا فى ملعب لك لذعا
فما فيهما لى سلوة، بل حرارة
وحينا يمدنا بمعلومات عن الحياة
يكون ذلك ممتزجا بشعور الأديب، وناشئا عن تجربة شخصية له، كما ترى ذلك
فى ألوان الأدب الاجتماعى والسياسى، وفى شعر الحكمة، كقول زهير:

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
ومن يجعل المعروف فى غير أهله
ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه
ومن يغترب بحسب عدواً صديقه
ومهما تكن عند امرئ من خليقة
لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده
وقول المتنبى:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
موضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر، كوضع السيف فى موضع الندى

(١) اللبت صفحة العنق والأخدع عرق فيها.

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليد
وقيدت نفسى فى ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيذا تقيدا
وقوله:

إنما أنفوس الأنيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شيء غلابا واقتسارًا، لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنى أن يكون الغضنفر الرئبالا

وقديماً عدوا حسن إيراد الحجة من البلاغة، وضربوا لذلك المثل بقوله تعالى:
﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ
(٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ
(٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ (يس ٧٨-٨٣).

وحينا يثير الأدب فينا الإرادة، ويدفعنا إلى العمل، وأظهر ما يتجلى ذلك فى
الخطابة، فإنها كثيراً ما ترمى إلى إثارة التفكير المصحوب بالوجدان، المتبوع
بالعمل، كخطبة عبد الله بن طاهر فى جنده، وقد تجهز لقتال الخوارج: «إنكم فئة
الله، والمجاهدون عن حقه، الذابون عن دينه، الذائدون عن محارمه، الداعون إلى
ما أمر به من الاعتصام بحبله والطاعة لولاية أمره، الذين جعلهم رعاة الدين، ونظام
المسلمين، فاستنجزوا موعود الله ونصره، بمجاهدة عدوه، وأهل معصيته، الذين
أشروا وتمردوا، وشقوا عصا الطاعة، وفارقوا الجماعة، ومرقوا من الدين، وسعوا فى
الأرض فساداً، فإنه يقول تبارك وتعالى: ﴿إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾
(محمد ٧). وليكن الصبر معقلكم الذى إليه تلجئون، وعدتكم التى بها تستظهرون، فإنه
الوزر المنيع الذى دلکم الله عليه، والجنة الحصينة التى أمرکم الله بلباسها، غضوا
أبصاركم، وأخفتوا أصواتكم فى مصافكم، وامضوا قدماً على بصائرکم، فارغين إلى
ذكر الله والاستعانة به، كما أمرکم الله فإنه يقول: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ
كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال ٤٥). أيدکم الله بعز الصبر، وليکم بالحیطة والنصر».

فأنت تراه قد أثار وجدانهم، بما عرضه عليهم، من الأفكار ليدفعهم إلى
الجهاد. وكما فى الآيات القرآنية التى ترمى إلى تحريك الإرادة، مثل قوله
سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت ٣٤).

وكقول الشاعر:

دببت للمجد، والساعون قد بلغوا جهد النفوس، وألقوا دونه الأزرا
وكابدوا المجد، حتى مل أكثرهم وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمرا، أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تعلق الصبرا
وأكثر ما يحرك الأدب الإرادة من غير أن يأمرها بذلك، كما فى الروايات
التمثيلية الخلقية والاجتماعية، وكما فى كثير من الشعر، وربما كان هذا هو
ما حدا بالأقدمين إلى أن يوصوا أولادهم بحفظه ودراسته، بل ربما كان هو
المعنى الذى لاحظوه عندما وضعوا لهذا اللون من القول الجميل اسم الأدب.
قال معاوية لابنه: يا بنى ارو الشعر، وتخلق به، فلقد هممت يوم صفين
بالفرار مرات، فما ردنى عن ذلك إلا قول ابن الأظنابة:

أبت لى همتى، وأبى بلائسى وأخذى الحمد بالثمن الربيع
وإقدامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جأشت وجأشت مكانك، تحمدى، أو تستريحى
لأدفع عن مكارم صالحات وأحمى بعد عن عرض صحيح

وأنت ترى الشعر نفسه لا يطلب إقداماً، ولا يحث على ثبات، ولكنه حديث عن
هذا النزاع الذى دار بنفس قائله، وهو فى ميدان القتال، وكيف استطاع أن يثبت
فى هذا الميدان، يحمله على الثبات ماض ملء بالجهاد، وهمة تأبى النقيصة،
وقلب موكل باكتساب المجد، ونفس اعتادت الإقدام على المكاره، وضرب هامات
الأبطال؛ دفاعاً عن مآثره، وحماية لعرضه، وليس فى الشعر سوى هذا.
ولكن معاوية رأى فى صاحبه بطلاً جديراً بالاعتداء.

وبما قدمناه يتبين أن الخلاف على أن الإصلاح الاجتماعى من أهداف الأدب
خلاف ظاهرى يزيله تحديد معنى الأدب، وتحديد مجاله، أما وقد قلنا: إن كل ما فى
الحياة يصلح أن يكون موضوعاً للأدب، على أن يتناول من ناحية إحساس الأديب،
بما فيه من جمال أو قبح، فلا ضير على الأديب إذاً أن يتناول مسألة خلقية
أو اجتماعية يعالجها، أو أن يدعو إلى فضيلة، أو ينهى عن مآثمة، على شريطة أن
يكون ذلك من تجاربه، وأن يثير فىنا الوجدان فيرضى فنعمل، أو يكره فنكف.

الأديب حر فى أن يتناول ما يشاء من تجاربه، من غير أن نضع له خطة
ينتهجها، وكل ما نطالبه به أن يرسم لنا شعوره، ولذا نرى من الأدباء من أحس
بجمال المشورة فمدحها، كبشار بن برد، إذ قال:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأى نصيح، أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم
ومنهم من لم ير فيها جمالا، كعبد الملك بن صالح، حين قال:

«ما استشرت أحداً إلا تكبر على وتصاغت له، ودخلته العزة، ودخلتني الذلة،
فعليك بالاستبداد، فإن صاحبه جليل فى العيون، مهيب فى الصدور، وإذا افتقرت
إلى العقول، حقرتك العيون، فتضعض شأنك، ورجفت بك أركانك، واستحقرك
الصغير، واستخف بك الكبير، وما عز سلطان لم يغنه عقله عن عقول وزرائه وآراء
نصحاءه». وكلا القطعتين من الأدب.

أما التعبير الإباحى، فليس من الأدب ولا الفن الجميل، لأننا نعنى بالإثارة تلك
الإثارة الوجدانية الروحية الخالصة، أما إثارة الغريزة الجنسية فليست من عمل
الأدب، ومثل هذا اللون من القول، مثل الصور الخليعة الماجنة، لا يعدان من
الفنون الرفيعة.

علوم البلاغة والنقد الأدبى

اصطلح الباحثون على عد علوم البلاغة ثلاثة: المعانى والبيان والبديع،
يريدون بعلم المعانى ذلك العلم الذى يبحث فى أسرار تركيب الجملة، والمعانى
التي تفهم من تكوينها على نحو مخصوص، وذلك ما عناه عبد القاهر بمعانى
النحو^(١)، أى معانى نهج العرب فى تكوينهم الجملة، ولذلك وقف بحث هذا العلم
عند تأمل الفروق بين الجملة الاسمية والفعلية، وتدبر أحوال المسند والمسند إليه،
ومتعلقات الفعل، من ذكر، وحذف، وتقديم، وتأخير، وإيثار معرفة على أخرى،
أو صيغة من صيغ الفعل على غيرها، إلى ما سوى ذلك من بحث أسرار الجمال
فى نظم الجملة العربية.

أما علم البيان، فموضوعه ذلك التصوير، الذى يهب الفكرة وضوحاً وقوة
فيزيد تأثيرها فى نفس المخاطب، أو القارئ، بالالتجاء إلى الخيال المصور، ومن
أجل هذا كان موضوع درسه التشبيه، والاستعارة، والكناية، والمجاز، وهى صور
توحى بالتجربة الشعرية أتم إحياء.

ويتناول علم البديع تلك المحسنات المعنوية حيناً، واللفظية حيناً آخر، مما
يزيد فى جمال اللفظ وقوة تأثيره، ووضوح المعنى.

(١) راجع ص ٦٣-٩٦ من كتاب دلائل الإعجاز.

ولقد باعد بين هذه العلوم وبين ما كان يرجى لها من نهوض، أن كتب دراستها قد امتزجت بدراسات فلسفية، نأت بها عن تقدير الفن الأدبي، وآلت الكتابة فيها إلى عبارات موجزة مركزة، يسودها الغموض، وتحتاج إلى الشروح والحواشي، واعتمد مؤلفوها على أمثلة تطبيقية، بعيدة عن روح الفن، ولا أثر للبلاغة فيها. هذا فضلا عن الحاجة إلى مراجعة ما قرره العلماء من قبل، ووضعوه كأنه قواعد ثابتة، فهو في حاجة إلى التصحيح والتقويم من جديد، لخطئه في بعض الأحيان.

ولا أريد أن أطيل في بيان ما عليه علوم البلاغة الحالية، من قصور، وجفاف، مما يحتاج إلى جهود متضافرة في دأب، لإنقاذ هذه العلوم، والأخذ بيدها، حتى تعود دراستها فنية أدبية، فتقوم بدورها في إمداد النقد بالقواعد الصالحة، التي تدرس أسباب الجمال المودع في الجملة، وليس الشعور بالنقص في علوم البلاغة حديثاً، بل قد شعر القدماء أنفسهم به، فقالوا إنها علوم لم تنضج بعد. أما صلة هذه العلوم بالنقد الأدبي، فهي من علوم الأدب الاثنى عشر، التي تحدث عنها القدماء، ومن الخير أن نتبسط قليلاً في الحديث عن هذه العلوم، لنرى مدى اعتماد النقد الأدبي عليها.

فمن تلك العلوم ما يعود إلى دراسة الكلمة المنفردة حيناً، من حيث مادتها، وهو ما دعوه علم اللغة، وحيناً من حيث انتساب بعض الكلمات إلى بعض بالأصلية والفرعية، وسموا ذلك علم الاشتقاق، وحيناً آخر من حيث صورة الكلمة وهيئتها مما يدرس في علم الصرف.

ومن تلك العلوم ما يعود إلى الجملة، من حيث أداؤها للمعنى الأصلي، ويعنى بذلك علم النحو، أو من حيث إنها تفيد بنظمها معاني أخرى غير منطوق بها، كالمعاني التي تستفيدها من تقديم الكلمة حيناً، أو تعريفها حيناً، إلى غير ذلك مما يبحث عنه علم المعاني، أو من حيث إن الجملة تؤدي معناها بطريق الحقيقة، أو مستعينة بالخيال، وهو ما يبحث عنه علم البيان، ويلحقون بهذين العلمين علم البديع، الذي يعمد إلى التأثير في النفس، من حيث الصناعة اللفظية أو المعنوية.

ومن تلك العلوم ما يعود إلى الشعر، فيبحث فيه من حيث وزنه، وذلك علم العروض، أو من حيث قوافيه، وما يعتمدها من الصحة والسقم، وهو علم القوافي. كل هذه العلوم التي ذكرناها تدرس المفرد، أو الجملة والجمليتين، أما النظر

إلى النص النثرى برمته، وإلى القصيدة كلها، فقد وضع له الأقدمون علمين هما علم الشعر، وعلم النثر.

وقل من كتب من العلماء فى هذين العلمين. ولعلنا نستطيع أن ندخل فى علم النثر دراسة الأساليب وألوانها، وما يجب أن يكون هناك من صلة بين الأسلوب والموضوع، وندخل فيه كذلك دراسة خصائص كل فن من فنونه، فندرس المقالة، والقصة، والرواية، والرسالة، والخطبة، مبينين ميزة كل لون من هذه الألوان، لا من الناحية اللفظية فحسب، ولكن من الناحية المعنوية كذلك، فنرسم منهج كل نوع فى تناول معانيه.

ونستطيع أن ندخل فى علم الشعر تنوع بحوره، ومناسبة كل بحر لعاطفة خاصة، وموضوع خاص، وندخل فيه أيضاً حديثاً عن القافية ووحدتها أو تعددها، وأثرها الموسيقى، وحديثاً عن ألوان الشعر، من عاطفى، وروائى، وقصصى، وما يمتاز به كل لون من خصائص وسمات، مع العناية التامة بناحية المعانى وطرق تناولها، كما ندرس كذلك معنى العاطفة وأنواعها، وألوان الخيال، وقيمة الحقائق فى النصوص الأدبية. وقد ألم القدماء ببعض هذه النواحي ولكنهم لم يوفوها حقها من البحث والتحليل.

ولم ينس القدماء أن الأدب يعتمد على المعرفة، وأن الأديب محتاج إلى أن يلم بخلاصة وافية لمختلف الثقافات، فذكروا من بين علوم الأدب، علم المحاضرات، يريدون ما يعبرون عنه، بأن على الأديب أن يأخذ من كل فن بطرف، وهذه المعارف هى التى يتكئ عليها الأديب فى تصوير شعوره بالجمال أو بالقبح، ولذا ترى الأديب فى حاجة إلى علم النفس، والتاريخ، والاجتماع، مثلاً عندما يضع رواية تمثيلية، يحلل فيها نفوس الشخصيات، أو يصف عصرًا من عصور التاريخ، أو يتناول مشكلة من مشاكل الاجتماع، وهو محتاج إلى تلك العلوم وغيرها، عندما يضع قصة، أو أقصوصة، أو عندما يضمن إنتاجه حقيقة من حقائق الحياة.

وهنا يجدر بنا أن نبين أن الشاعر أو الكاتب، قد يوحى إليه شعوره تفسيراً لمظهر من مظاهر الكون يخالف تفسير العلم له، فيوزن الأديب حينئذ بمقدار طبيعة هذا الشعور وصدقه، لا بمقدار ما فيه من الحقائق. خذ مثلاً لذلك قول شوقى يناجى النيل:

من أى عهد فى القرى تتدفق وبأى كف فى المدائن تغدق؟!
ومن السماء نزلت، أم فجرت من عليا الجنان جداولاً تترقق؟!

فالحقيقة الجغرافية لمنابع النيل معروفة، ولكن عظمة النيل وجلال ما له من أياذ، حتى لكأنه يفيض سلسبيلا من عليا الجنان، أَوْحِيَا إلى شوقى بهذا التساؤل الشعري البارع.

تلك هي علوم الأدب، أما الأدب نفسه: شعره ونثره، ففن من الفنون الجميلة، وهو لذلك ينبع من الموهبة، ويفيض من الفطرة، ثم تسدده هذه العلوم وتهدى خطاه، وإن نظرة إلى تلك العلوم نفسها، تجعلنا نوّمن بأن الناقد حين ينقد، في حاجة إلى تلك العلوم نفسها، عند تقدير النص الأدبي وتقويمه، ومن أجل هذا صح لنا القول بأن تلك علوم الأدب: إنتاجًا ونقدًا، فالناقد، فضلا عن حاجته إلى العلوم اللغوية، في حاجة - كالأديب - إلى الإلمام بمختلف الثقافات، حتى يستطيع أن يحكم على النص حكما صادقا خالصا.

أما النقد نفسه فكالأدب، فن من الفنون، يعتمد على الموهبة والفطرة، ويتكى على ما قدمنا من العلوم، لبيان وجه جمال الجميل، وقبح القبيح.

وقد طال الحديث عن صلة النقد بالذوق، حتى لقد قيل إن النقد يعتمد على الذوق وحده، وهذا صحيح إلى حد كبير، فهذا الذوق هو الملكة الموهوبة، التي يستطيع بها تقدير الأدب الإنشائي، وإنما إذا تدبرنا حقيقة الأمر، رأينا أن كل تحليل بلاغي، هو تفسير لهذا الذوق السليم، وتعليل عقلى له، فليس تعليلك لجمال النص بأن فيه إيجازًا، أو إطنابًا، أو حذفًا، أو تقديمًا، سوى تفسير عقلى لذوقك الذى أحس بجمال النص.

وإذا كانت الملكات فى النفوس كالبدور، تحتاج إلى التربة الصالحة، والغذاء والماء فكذا ملكة الأدب ونقده، فى حاجة إلى الرى، والغذاء، وذلك إنما يكون بدراسة ما أسلفناه من علوم، وبالتملؤ من الأدب القوى، وبالقراءة الأدبية الفاحصة، والمران على تقويم النصوص، والبحث عن أسرار جمالها، ومناحي لونها، وبذلك يقوّم الذوق ويستقيم حكمه.

غير أن هذه التربة الصالحة التى يجب أن يغتذى الذوق منها، تحتاج إلى جهد جهيد، وتضافر قوى الباحثين والدارسين، حتى تصبح صالحة، لإنتاج أبرىك الثمرات، ذلك أن من علوم النقد ما تم نضجه، فلم يعد فى حاجة لغير تنظيمه، حتى يصبح الانتفاع به ميسورًا كعلم النحو، والصرف، والعروض، والقافية، ومنها ما لم ينضج بعد، بل هو فى حاجة إلى معاودة النظرة، لتخليصه مما علق به مما ليس منه، ولتصحيح أخطاء مضى عليها الزمن، حتى استقرت صحتها فى

الأذهان، وهى غير صحيحة، وتلك هى علوم البلاغة، التى اختلطت بمسائل فلسفية، وملئت كتبها بأبحاث لفظية، ومناقشات جدلية، باعدت بينها، وبين أداء رسالتها، أداء كاملاً غير منقوص، وحسبى أن أشير إلى شروح التلخيص وحواشيه، التى تضل البلاغة فى ثناياها وشعبها، فلا تهتدى إليها، وحسبى كذلك أن أشير إلى ما فى باب التشبيه، من أخطاء فى القواعد الموضوعية، من وقوفهم عند حد الحس فى التشبيه، وجعلهم البعيد الغريب فى التشبيه أبلغ أنواعه، إلى غير ذلك من أحكام تحتاج إلى مراجعة النظر، للوصول فيها إلى حكم صحيح.

ومن تلك العلوم ما لم يدرس إلى اليوم، سوى أشتات مبعثرة، ونعنى بذلك علمى الشعر والنثر، وقد أبنأهما فيما مضى، فلا عجب إذاً أن نرى النقد الأدبى متعثراً فى خطاه إلى اليوم، فإننا لم نهىء له التربة الصالحة لنموه وإثماره، وإذا أردنا أن ينهض النقد ليؤدى رسالته، فلنهدب علومه، ولنضع ما نقص منها، جاعلين هدفنا من ذلك كله تربية ذوق صالح سليم.

* * *

القراءة الأدبية

هى تلك التى يحاول القارئ فيها، أن يستحضر فى نفسه التجربة، كما مرت بالأديب المنشئ، وإذا كان الأديب يتخذ لنقل تجربته ألفاظاً يختارها، توحى إلى قارئه بمشاعره، فالقراءة الأدبية، هى التى يقف القارئ فيها أمام كل كلمة فى النص الأدبى، يتبين ما توحى به، ويرى ما يحيط بها من الظلال، ويتأمل سر اختيارها، ليستخلص كل ما فيها، من خواطر ومعان، فيمارس التجربة التى مارسها المنشئ، ويعيش اللحظة التى عاشها ومن هنا قالوا: إن الأدب يضيف عمراً إلى عمر قارئه، بسبب هذه التجارب التى يستحضرها، ويشعر بها نفسه.

ويمر القارئ للأدب بثلاث مراحل، فالمرحلة الأولى: هى التى يقرأ فيها النص الأدبى ليعيش فى تجربته، والمرحلة الثانية: هى مرحلة النقد، وفيها يدرس القارئ ألفاظ النص، ليرى قدرتها على التعبير عما أرادها الأديب، أو عجزها عن ذلك، وفى المرحلة الثالثة: ينقد ما يكون قد اشتمل عليه، من معان وآراء، فيرى خطأه وصوابه، وصدقه أو كذبه، ولن يستطيع القارئ أن يصل إلى المرحلة الثالثة، إلا إذا عاش التجربة كما عاشها منشئها، وتقمص شعوره، وحينئذ يحكم بصواب ما قرأ أو خطئه، فالقراءة الأدبية ألوان ثلاثة: قراءة متذوقة، وقراءة ناقدة، وقراءة حاكمة، ولكى تتبين كيف يُقرأ الأدب قراءة متذوقة، نأتى ببعض المثل: لنرى تلك الآفاق الواسعة التى يفتحها أمام أنفسنا ذلك النوع من القراءة.

قال البحرى فى وصف الربيع:

أتاك الربيع الطلق، يختال ضاحكا	من الحسن، حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى	أوائل وردكن بالأمس نوما
يفتقها برد الندى، فكأنه	يبث حديثاً، كان قبل مکتما
فمن شجر، رد الربيع لباسه	عليه، كما نشرت وشيا منمنما
ورق نسيم الريح، حتى حسبته	يجيء بأنفاس الأجابة نعمما

ترى الشاعر قد جاء بكاف الخطاب فى أول حديثه، كأنما ينبه من يخاطبه إلى

أن جمال الطبيعة فى هذا الفصل قد جاء إليه، وكأنه يدعو إلى الابتهاج به، والفرح بمقدمه وفى تعريف الربيع (بأل) العهدية، ما يثير فى النفس ما ألفتة فى هذا الفصل الرائع من جمال وحياء، وفى اختيار كلمة (الطلق) ما يوحى بمعنى الحرية التى يشعر الناس بها فى الطبيعة، فليس فيها شذوذ بسحب متراكمة ولا مطر، ولا أحوال فى الطرق، تقيد الناس وتحبسهم فى بيوتهم، ويشعرون بها فى أنفسهم، غير مقيدين بمنازلهم حيناً، وبنوع من الملابس حيناً آخر، وتأمل كلمة (يختال) فلعلها تصور لك اختيال الأزهار يداعبها مر النسيم، وفى تعبيره (يختال ضاحكاً) ما يوحى إليك بأن الشاعر لم يحس بالربيع مظاهر تراها العين فحسب، ولكنه حياة تتدفق فى جميع أرجاء الكون، فيهتز عطفه اختيلاً، وبيتسم ضاحكاً، ويزداد شعور الشاعر بهذه الحياة، ويقوى إحساسه بإفصاح الربيع عن جماله وبهائه، فيخاله يكاد يتكلم ويبين، ويطرد إحساس الشاعر بحياة الربيع، فيرى هذه الأزهار التى تملأ الجو بأريجها مخلوقات، كانت تغط فى نوم عميق، فجاءها الربيع ينبهها أن تستيقظ من رقادها، وكأنما زارها فى الدجى، يؤكد ألا يسفر وجه الصباح، حتى تكون قد أخذت بهجتها وازينت، كى لا يضيع عليها شىء من جمال النهار، وذلك هو السر فى تنبيه الربيع لها، فى غسق الدجى، ثم ألا ترى فى استخدام (ورد) هنا ما يحمل إليك أريج أزهار الربيع، وفى استخدام كلمة (أوائل) ما يشير إلى نشاط هذه الزهرات الأولى من أزهار الربيع، وفى اختيار كلمة (نوم) ما يوحى إليك بما كان فيه الزهر من غفلة عن جمال الحياة، قبل أن ينبهه فصل الجمال، وإن هذه الغفلة والنوم ليحتاجان إلى إيقاظ عنيف، ولذلك استخدم الشاعر كلمة (يفنق) التى تدل على شىء من العنف، ثم ألا ترى أن الدفء مبعث اللجاج فى النوم، فمن المعتاد أن البرد يوقظ النائم، وبذلك ترى السر فى اختيار (برد الندى) وسيلة لإيقاظ الأزهار، ولما كان شعور الشاعر بتدفق الحياة فى الكون قوياً دافقاً، أحس كأن هذا الورد يفشى سراً، كان يخفيه، واختار لتعبيره كلمة (يبث) التى تشعر بأن الحديث الذى يذيعه الورد حديث فى خفوت يشبه الهمس، وقال (مكتما) لينقل إلى نفسك ما كان عليه جمال الزهرة قبل تفتحها من سرية محجوبة لا تبين، فكثير من الزهر يتشابه قبل أن تتفتح أكامه، ويقف المرء أمامه، لا يتبين ما يكون عليه أمره، بعد أن يتفتح، فجماله سر مكتم لا ينم عنه شىء، واختار الشاعر كلمة (حديث) التى توحى بهذا التجاوب النفسى بين الطبيعة والإنسان.

وبهذا استطاع الشاعر، أن يصور لنا إحساسه الروحي بجمال الربيع، ولكنه لم ينس حظ العينين من هذا الجمال، فحدثنا عن الشجر، وقد استعاد خضرتة ونضارته، ودبجته الأزاهير، واختار الشاعر كلمة (رد) التى توقظ فى نفسك ما كان عليه من تجرد، لا تبهج العين رؤيته، إذ سلب ثيابه، فعاد حالياً بزينته وحليته، واستخدم الشاعر كلمة (نشر) المضعفة الدالة على التكثر، ليصور لك هذا المعرض الحى من معارض الطبيعة، وكلمة (منمنما) توحى بدقة الوشى كأنما نسجته يد صناع، (ورق) توقظ فى النفس موازنة بين نسيم الربيع وهواء الشتاء الكثيف، وفى كلمة (حتى) ما يدل على عمق الشعور برقة هذا النسيم، والتلذذ به، وفى المجيء بكلمة (أنفاس) جمعاً وإيثارها على المفرد، ما يوحي بأن نسيم الربيع يجيء متقطعاً، كالأنفاس، حتى لا يمل، ووصف الأعبة بالنعمة يوحي إليك بالهدوء، فليست هى بزفرات حارة، يخرجها صدر يحترق بالحب.

وهاك بيتاً^(١) من الشعر، قال الأصمعى عنه أنه أهجى بيت قالته العرب، وهو:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهمو قالوا لأهمم: بولى على النار

فكل كلمة فى هذا البيت تكاد تنطق بالهجاء والذم؛ فتنكير (قوم) لتحقيرهم، والإشارة إلى أنه لولا هذه الصفات التى تسهم، لكانوا نكرة فى الصحراء، لا يأبه بهم أحد، والإيحاء بأن هذه الصفات الدنيئة إذا زكرت، وسمتهم، فصاروا بها معروفين مميزين، وكلمة (إذا) وهى تفيد الشرط، تدل على أن مقدم الأضياف إليهم إنما هو فى أوقات معينة قليلة، وليس ذلك بعادة دائمة (والسين والتاء) فى استنبح للدلالة على أن الأضياف كأنهم يمضون إلى الكلب ويعرضون له، لينبح، أما هو فيغط فى نوم عميق، فيلس لديه ما يحرسه، ولم ير من قبل غرياء يطرقون هؤلاء القوم، فلم يجد عملاً فنام، وربما كان عدم نباح الكلب، لهزاله وضعفه من الجوع الذى يقاسيه فى صحبتهم، وجاء (بالأضياف) جمع قلة، ليؤذن بأن من يقصد هؤلاء القوم عدد محدود قليل، ونسب القول إليهم فى (قالوا) وهو قول مزر، للإشارة إلى سوء أدبهم، وامتهانهم لأهمم، والمجىء بلفظة (أم) وهى تستدعى أعظم ألوان التقدير، يوحي بما آلت إليه حال هذه الأم عندهم، ومن هوان وضعة، حتى صارت لديهم فى منزلة أقل من منزلة الخادم، وإضافة الأم إليهم، إشارة إلى لؤمهم، ومبالغة فى تحقيرهم، وإيدان بأنه ما كان ينبغى أن يعاملوها تلك المعاملة، وهى أهمم، وأنطقهم بلفظ (البول) وهو مما يثير شيئاً تتقرز منه

(١) راجع فنون الأدب ص ٣٥.

النفوس، إيماء إلى جفوتهم، وأنهم لم يهدبوا ويصقلوا، وتوجيه هذا الأمر إلى أهم فيه ما فيه من التشنيع عليهم، وفيه كذلك أنهم يبخلون بالماء، فيستعوضون عنه بالبول، وأن نارهم ضعيفة خافتة، وتكفى بولة عجوز لإطفائها، وأتى الشاعر بحرف الجر «على» الدال على الاستعلاء؛ ليرسم صورة منفرة، وهى صورة الأم، وقد علت النار تبول عليها، وتعريف النار إشارة إلى تلك النار المعهودة التى يستطاع اعتلاؤها والبول عليها، ولم ينسبهم الشاعر إلى البخل صراحة، وإنما أخبر عنهم بما يدل على أقبح ألوان هذا البخل.

وهذه آيات من القرآن الكريم نقف عندها، لنقرأها تلك القراءة الأدبية المتذوقة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ سَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بَكُمْ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يُرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصُّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ (البقرة ٨-٢٠).

ألا ترى فى اختيار كلمة ﴿الناس﴾ وعمومها، عدم مجابهة المنافقين بتعيينهم، وفى ذلك ستر عليهم، وإغراء لهم بالإقلاع عن نفاقهم، ذلك أنه، ماداموا لم يعينوا، من المتوقع أن يصغوا إلى القرآن، فربما انصرفوا عن غيهم، إذا استمعوا إلى تصوير حال ضلالهم، وما هم فيه من حيرة واضطراب، ولو أنه جبههم بكشف الستار عنهم، لانصرفوا معرضين عن الإصغاء، فلا يكون ثمة أمل فى هدايتهم، وكلمة ﴿يَقُولُ﴾، توحى بأن إيمانهم لم يتعد أفواههم، وأجرى على ألسنتهم الإيمان بصيغة الماضى، ليوهموا سامعيهم أنهم قد دخلوا فى الإيمان منذ زمن بعيد، زيادة منهم فى التمويه والخداع، وخص الإيمان بالله وباليوم الآخر؛ لأن الإيمان بهما يجمع كل ما يجب الإيمان به، من كل ما يصل الإنسان

بربه، أو يصله بالناس، واختار في الرد عليهم الجملة الاسمية في النفي؛ ليدل بها على استقرار هذا النفي وثباته.

هؤلاء المنافقون إنما يخدعون بعملهم هذا الذين آمنوا، ولكن القرآن جعل الخداع لله، سخريه منهم، واستهزاء بعقولهم، واستخدم الفعل المضارع هنا، يصور به حالهم، ويحضر هذه الصورة أمام أعين السامعين، واستخدم أداة القصر وهي ﴿مَا﴾ و﴿إِلَّا﴾، ليرد عليهم رداً حاسماً، يبين أن خداعهم لن يضر أحداً غيرهم، ولكن يصيبهم وحدهم أذاه، وأوقع الخداع على أنفسهم ليكون ذلك مثار العجب أن يفعل ذلك من لديه مسكة من عقل، وفي ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ تصوير صادق لهؤلاء المنافقين، الذين لا يدركون مغبة خداعهم، واستخدام كلمة ﴿مَرَضٌ﴾، لما أصابهم من تغليب الهوى على العقل، يوحي إلينا بأن عقولهم، وقد تغلب عليها سلطان الهوى، صارت غير مستطبعة أن تفكر تفكيراً سليماً، وأن تقوم بوظيفتها التي خلقت لها، كالجسم يصاب بالمرض فلا يستطيع أداء وظيفته، وفي الدعاء عليهم بزيادة المرض، إيذان بغضب الله وسخطه عليهم، واستخدام ﴿فِي﴾ في هذه الجملة، يؤذن بتمكن المرض من قلوبهم، فكأنما انطوت قلوبهم عليه، وفي كلمة ﴿أَلِيمٌ﴾ - والعذاب لا يكون إلا مؤلماً، إبراز لأهم خصائص العذاب، واختيار ﴿كَانَ﴾ والمجىء بخبرها فعلاً مضارعاً، يؤذن باعتيادهم الكذب ولجاجتهم فيه، وجاء بالواو في قوله:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، إشارة إلى مائمة جديدة من آثامهم، وأتى بالفعل: ﴿قِيلَ﴾ مبنياً للمجهول، مؤذناً بأن من الواجب عليهم أن ينظروا إلى القول من حيث هو، بقطع النظر عن قائله، وألا يجعلوا للقائل دخلاً في تقديرهم ووزنهم، واختار كلمة ﴿الْفَسَادُ﴾ ليصور بها ما يقوم به هؤلاء المنافقون، من تشكيك المؤمنين وتخذيلاًهم عن نصره الرسول، وبث الفتن في الأرض، ونسب القول إليهم في ﴿قَالُوا﴾؛ ليبين مدى تبجحهم، وأنهم لا يباليون أن يقلبوا الحقائق، ويطمسوا معالمها، أما ردهم، فقد استخدموا له أداة من أدوات القصر، يريدون بذلك نفي الإفساد عنهم نفياً باتاً، وأن عملهم لا يعدو الخير والصلاح وبالغوا في ذلك حتى أوهموا أن نفوسهم قد قصرت على الإصلاح قصراً، فهي لا يمكن أن تلم بفساد، واختاروا من أدوات القصر ﴿إِنَّمَا﴾ التي تدل على أن الأمر من الوضوح، بحيث لا يحتاج إلى دليل ولا برهان، مبالغة منهم في التمويه والخداع، واستفتح الرد عليهم بالأل: ليسترعى الأذهان إليه، حتى تتنبه إلى الرد ولا يفوتها منه شيء، وبدأ

الجملة بالتأكيد؛ لأنه فى مقام يريد أن يقتلع من الأذهان دعوامه العريضة فى الإصلاح، و﴿هُمْ﴾ الثانية ضمير فصل يؤكد الإسناد فى الجملة، وتعريف الطرفين يفيد قصر المسند على المسند إليه، فكأن الإفساد مقصور عليهم، لا يبرحهم إلى سواهم، وجاء بلكن، يريد أن يخبرنا بخبر جديد عن هذه الطائفة التى انحصر الإفساد فى بنيتها، وأنه كان خليقاً بهم أن يدركوا هذه الحقيقة، لو كان عندهم قدر من شعور، أما وهم قوم لا يشعرون، فذاك هو السر فى خفاء هذه الحقيقة البينة عنهم، وفرق فى التعبير بين ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فى الآية السالفة، ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فى تلك الآية، فالجملة الأولى فى مكانها تنبئ بأن حركة خداع النفس تمر بهم، من غير أن يتنبهوا إليها، فهو لا ينفى الشعور عنهم مطلقاً بل ينفى شعورهم بخداع أنفسهم؛ أما فى هذه الآية فليس إفسادهم مما يقع منهم بلا شعور، بل هم يفعلون عن رغبة وإصرار، ولكنهم قد فقدوا التفكير، الذى يزنون به الأمور بميزانها الصحيح.

وتستطيع أن تمضى فى قراءة الآية التالية، كما مضيت فى هذه الآية، وقف فيها وقفة عند كلمتى ﴿النَّاسُ﴾ و﴿السُّفَهَاءُ﴾ تتبين فى الكلمة الأولى مدى الأدب، الذى استخدمه الداعى فى دعوة هؤلاء القوم إلى الإيمان، فهو لم يقل لهم آمنوا كما آمن العقلاء مثلاً، فىكون فى ذلك جرح لشعورهم، بما قد يكون فيه من تلميح بضعف عقولهم، بل لم يزد فى دعوته على أن دعاهم إلى الدخول فيما دخل فيه عامة الناس، وفى ذلك منتهى الرفق واللين، أما ردهم ففيه تجح وعنف، فقد ادعوا سفاهة هؤلاء الذين آمنوا.

وقف كذلك عند كلمة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ وتأمل سر اختيارها، ترأن السفاهة إنما ترجع إلى العقل والتفكير، فناسب ذلك نفى العلم عنهم، وأما الآية السابقة فإفساد بأعمال يشعر بها، فناسب هناك نفى الشعور.

وامض كذلك فى قراءة الآية التى ترسم ما عليه المنافقون من الخداع، وما لهم من وجهين يقابلون المسلمين بأحدهما، ويقابلون رؤساءهم بوجه آخر، وقف عند كلمة ﴿خَلَّوْا﴾ لترى ما توحى به إلى نفسك من جبن هؤلاء المنافقين، الذين لا يستطيعون أن يظهروا ما تكنه قلوبهم، إلا فى خلوة لا يراهم فيها أحد، وقف كذلك عند كلمة شياطين، يراد بها رؤساء النفاق، وتأمل ما توحى به من ضروب المكر والدهاء والفساد والضلال، وانظر كيف كشف المنافقون أنفسهم أمام رؤسائهم، فى جملتين اثنتين، دلتا على حقيقتهم، فى الجملة الأولى: قالوا إنا

معكم، أكدوا لرؤسائهم شدة إخلاصهم لهم، حتى لا يدعوا لهؤلاء الرؤساء سبيلاً إلى الشك فى إخلاصهم، بسبب ما يظهرونه بألسنتهم للمؤمنين من الإيمان، وفى ﴿مَعَكُمْ﴾ ما يشعر بهذا الرباط القلبي، الذى يربط المنافقين برؤسائهم، وفى اختيار القصر وأداته فى الجملة الثانية: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾، ما سبق أن ذكرنا فكانهم يقولون لشياطينهم: إن استهزاءنا بالمؤمنين عندما نقول لهم: آمنا، واضح، لا يمكن أن يكون سبباً لشككم فى إخلاصنا لكم، وأن قلوبنا معكم، واختاروا الجملة الاسمية يدلون بها على ثبوت هذا الخبر واستقراره.

واختار الله فى الرد عليهم أن يأتى باسمه دون صفة من صفاته، ليوحى إلينا بهذا الجلال، الذى يحيط بذلك الاسم المقدس، وأنه هو الذى سيتولى الاستهزاء بهم، وكلمة يستهزئ تصور هذا الجزاء الساخط، الذى يقابل به الله استهزاءهم، ليصور بأمر محسوس، أمراً معنوياً، هو تركهم فى ضلالهم لا يهتدون، واختيار كلمة الطفغيان، توحى بالخروج فى قوة عن الطاقة المألوفة فى العصيان والفجور، والعمه فى الآية، يصور لنا مدى تردد هؤلاء القوم فى غوايتهم، وأنهم لا يهتدون إلى الحق والصواب، فهم فى حيرة من أمرهم كالأعمى، يسير على غير هدى ولا اطمئنان.

وامض فى قراءة الآية التالية، وتأمل وجه استخدام اسم الإشارة، يشير به إلى طائفة قد انصفت بتلك الصفات الخادعة، وكان لها أثرها فى الحكم عليهم، وفى كلمة اشترى، ما يدل على إثارة هؤلاء القوم للضلالة على الهدى، واختار كلمة الضلالة هنا، وأثرها على الكفر والنفاق مثلاً، ليتسنى بيان حال ما اختاروه فى إيجاز، ووضع الهدى بجوار الضلالة، ليتأتى فى يسر معرفة مدى خسران هؤلاء القوم، وضعف عقولهم، ونفى الريح عن التجارة، ولم ينفه عن المتجرين، للإشارة إلى أن هذه التجارة بطبيعتها تجارة خاسرة، بقطع النظر عن المتجرين بها، وفى ﴿مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إشارة إلى جهلهم، باختيار هذه التجارة الخاسرة.

وفى الآية التالية تستوقفنا كلمة استوقد ناراً، فنتبين فيها حال رجل، قد أحاطت به حلقة الظلام، فهو يطلب جاهداً ناراً تضىء له مسالك السبيل، والسين والتاء يدلان على هذا البحث القوى، والطلب الجاد، وفى كلمة أضاعت ما يدل على أنه قد أوتى أكثر مما كان يطمح إليه، فلقد كان يبحث عن نار، أياً ما كانت، فأوتى ناراً قوية أضاعت ما حوله، غير أن ذلك لم يلبث أن مضى وزال، واستخدام ذهب بالنور أقوى من ذهب النور؛ لأن فى التعبير الأول دلالة على أن أخذاً أخذ

النور، ومضى به، فكيف إذا كان الذهاب به هو الله، وفي إضافة النور إليهم، ما يشعر بأنهم كانوا قد اطمأنوا إلى النور، وفرحوا به، فيكون الذهاب به أشد إيلاما وأنكى، وجمع ظلمة، ليشير إلى هذا الظلام المتكاثف، والحلقة المتراكم بعضها فوق بعض، وتأمل بعدئذ هذه الصفات التي خرجوا بها عن أن يكونوا من البشر، بل عن أن يكونوا من الحيوان، ما داموا قد عطلوا مواهبهم ولم ينتفعوا بها، وكان لنسق هذه الصفات على وزن واحد أثر موسيقى مؤثر.

والآيتان الثاليتان استمرار في وصف حيرة هؤلاء المنافقين، فمَثَّلَهُمُ الْقُرْآنُ بحال من حصرتهم السماء بصيب، وفي هذه الكلمة ما يوحى بقوة المطر وشدة بطشه، فهو ليس بغيث ينقذ الأرض من ظمئها، ولكنه مطر يصيبها ويؤثر فيها، وفي النص على أنه من السماء، ما يوحى بهذا العلو الشاهق، ينزل منه هذا المطر الدافق، فأى رعب ينبعث في القلب من جرائه، وفي المجيء بكلمة ﴿فِيهِ﴾ ما يدل على أن هذه الظلمات، والرعد، والبرق، كأنما سكنت هذا الصيب، وكأنما تنزل معه من السماء، وفي إثارة الظلمات جمعا، على المفرد ما سبق أن أشرنا إليه، وفي تنكيرها، وتنكير الرعد، والبرق ما يشير إلى أنها من القوة والإزعاج، إلى درجة لا يستطيع تحديدها، وفي كلمة الأصابع ما يوحى بهذا الذعر، الذي استولى عليهم من شدة الأصوات الرعدية المرعبة، فهم يحاولون إبعاد صوتها عنهم، وكلما زادت شدة الصوت، زادوا من إدخال هذه الأصابع، عليها تسد آذانهم، واختيار كلمة يجعلون، وإيثارها على يضعون مثلا، للإشارة إلى أن أصابعهم لطول ما صارت في آذانهم، أصبحت كأنها مركبة معها، أما الوضع فلا يستفاد منه هذا الثبات والاستمرار، وبرغم أن المعنى على أن كل فرد منهم يضع إصبعًا في أذن، لا نستطيع أن نبعد عن أنفسنا هذا الجو الذي خلقه حولنا استخدام الجمع، الموحى بمقدار الهلع الذي أصاب أفئدتهم، لهذا الصوت المنكر، حتى لكانهم يريدون إبعاده، بوضع كل ما يملكون من أصابع في آذانهم. وجمع الصواعق إيذان بما اصطاح على إزعاجهم من صواعق رهيبة، لا صاعقة فحسب. وكلمة حذر تدل على شدة شعورهم بقرب الموت منهم، وإسناد الإحاطة إلى الله فيه من الجلال والرهبة ما فيه، واختيار كلمة ﴿مُحِيطٌ﴾ يدل على شمول العذاب لهم، وإحاطته بهم من كافة الأرجاء، فهم لا يستطيعون الإفلات منه أينما ساروا، وفي إثارة كلمة الكافرين على المنافقين، بيان لحقيقة حالهم، وأن النطق باللسان لا يغنى عن الحق شيئا.

تحدثت الآية الكريمة عن هذا الصيب، وأن فيه ظلمات ورعدًا وبرقًا، وذكرت أن حال المنافقين في خوفهم وهلعهم، كحال السائر في هذا الصيب؛ لاضطراب

حياتهم، وخوفهم أن ينكشف أمرهم، فهم فى اضطراب نفسى شديد، وشرحت الآية ما يصيب السائر من الفزع، من جراء الرعد يصم أذنيه، وتحدثت الآية الثانية عما أضمره لهم البرق والظلمات، من إخافة وإرهاب، فقال سبحانه يكاد البرق يخطف أبصارهم، وفى استخدام ﴿يَخْطَفُ﴾ تصوير بأمر محسوس، يبعث فى النفس خوفاً. فكأن يداً تمتد نحو السائر تسلب منه نور عينه، والمجىء بكلمة يوحى بهذه اللفظة التى تملأ قلوبهم، والرغبة فى الخروج من هذه الظلمات المتكاثفة، فلا يكاد النور يبده هذه الظلمة قليلاً، حتى ينتهزوا الفرصة فيمشوا، وإذا أظلم عليهم قاموا، وفى كلمة ﴿عَلَى﴾ ما يدل على شدة وطأة الظلام عليهم، وفى ﴿قَامُوا﴾ ما يوحى إليك بتكاثف الظلمات حولهم، فلا يكادون يحركون أقدامهم، عند ما تطبق عليهم هذه الظلمات.

وهكذا تستطيع بالقراءة الأدبية أن تصل إلى تصور ما يراد من النص أكمل تصور وأوفاه. وبعد هذه القراءة المتذوقة، تقف لترى مقدار ما فى هذا النص، من تلاؤم بين ألفاظه ومعانيه، وتلك هى القراءة الناقدة كما ذكرنا، فنرى الآيات تصف هذا الاضطراب فى نفسية هؤلاء المنافقين، وما يظنون أنهم يقومون به من خداعهم لله والمؤمنين، وعنيت الآيات بوصف ضلالهم وخسرانهم، برغم ما فى عصرهم من نور، لا يكاد يضىء أمامهم الطريق قليلاً، حتى يطبق الظلام مرة ثانية عليهم، لأنهم لم يستعملوا أذانهم، فيما خلقت له، من الاستماع إلى صوت الحق، ولا ألسنتهم فى التعبير عنه تعبيراً ينبعث عن قلوبهم، ولا أعينهم فى الاهتداء بما ترى، إلى الحق والصواب. ذلك موقفهم من دعوة الحق، أما أنفسهم المضطربة الخائفة، فقد ضربت الآيات لها مثلاً: هذا الذى يحيط به الصيب، فيه ظلمات ورعد وبرق، وبهذا كله صورت الآيات من هؤلاء المنافقين، صلتهم بالمجتمع الذى يعيشون فيه، بين مسلمين وكافرين، وموقفهم من النور الذى أضاء عصرهم، وتغلغلت إلى أعماق نفوسهم، فصورت خوفها واضطرابها، وكل جزء من هذه الآيات له قيمته فى هذا التصوير، بحيث تستطيع أن تتخيل هؤلاء القوم، وأن تستمع إليهم، وقد التقوا بالمؤمنين، فقالوا لهم: آمنا، ومضوا إلى شياطينهم، فقالوا لهم: إنا معكم، وتتخيلهم وهم يعملون جهدهم، على أن يوقدوا نيران الفتنة، ويسعون فى الأرض فساداً، فإذا قيل لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، وتستطيع أن تتبين هذا المرض الذى أحاط قلوبهم بأكنة، وخيل إليهم أنهم يستطيعون خداع المؤمنين، بإظهار كلمة الإيمان لهم،

مع أنهم يضمرون لهم أشد ألوان الاحتقار والاستهزاء، وأن تتصور موقفهم من الهدى الذى سطعت شمسه أمامهم، فكانوا صمًا بكما عميًا، فإذا تغلغلت فى أعماق قلوبهم رأيت الذعر، قد استبد بها، كما يستبد بمن أحاط به صيب، فيه ظلمات ورعد وبرق.

ثم نحكم بعدئذ على ما فى هذه المعانى من خطأ أو صواب، وتناسق أو اضطراب، وهى القراءة الثالثة الحاكمة، وبما ذكرناه تتبين الدقة فى التصوير وهنا نشير إلى ما قد يترأى فى تصوير المنافق فى تلك الآيات، من وصفه بالإفصاح عن معتقده، كما تدل على ذلك الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾. وبإخفاء معتقده، كما تدل على ذلك آية: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾.

وليس بين الآيتين خلاف فى التصوير، فالآية الأولى تبين نفسيتهم الحقيقية. عند ما يعرض عليهم الإيمان، فإنهم يقولون فى أنفسهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾، وكأنهم لشدة شعورهم بجهورهم يجهرون بذلك، أما الآية الثانية فتصف صلتهم الخارجية، بالمؤمنين، وأنهم يظهرون لهم الإيمان، ويبطنون الكفر والنفاق، فأحدى الآيتين تشرح نفسيتهم، والثانية تتحدث عن اضطرابهم بين ما يظهرون وما يضمرون.

وبهذه القراءات الثلاث تستطيع أن تقول: إن النص الأدبى أصبح واضحًا فى نفسك تمام الوضوح.

* * *

المنهج الأدبي في القرآن

وأعنى بالمنهج الأدبي، هذا المنهج الذي يتجه إلى إثارة وجدان القارئ، إثارة روحية رفيعة، تحدث السرور في النفس فتقبل، أو تحدث فيها الألم فتأبى وترفض، والقرآن غنى بذلك؛ لأنه لا يعتمد على التفكير وحده ليقنع، ولكنه يتكئ عليه وعلى الوجدان ليستميل، فهو في وعده ووعيده، وأوامره ونواهيه، وقصصه، ووصفه، وابتهاله وتسبيحه، بل وفي أحكامه وبراهينه، لا يغفل هذه الناحية من نواحي النفس الإنسانية؛ لأن العمل غالباً يرتبط بها ويقترن، فالقرآن يهاجم ببلاغته جميع القوى البشرية، ليصل إلى هدفه: من تهذيب النفس، وحب العمل الصالح، والإيمان بالله واليوم الآخر.

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩). ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)﴾ (النساء ٦٩، ٧٠). ألا تراه قد أثار فينا شعور الغبطة والابتهاج، حينما نخيل لأنفسنا أننا إن أطعنا الله والرسول، فسنكون رفقاء للنبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين. أو لا ترى أن هذا الشعور بالفرح جدير بأن يدفع المرء إلى الانقياد والطاعة:

وخذ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (النساء ٤٧). تراه قد اتكأ على إثارة الخوف في النفس من أن تشوه الوجوه أو تطمس، أو أن تحل اللعنة بأصحابها، كما حلت بأصحاب السبت، وهذا الخوف، بما يحدثه في النفس من ألم، جدير أن يدفع الناس إلى التفكير العميق للتخلص من أسبابه، والخلوص من مآزقه، ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بما أنزل الله. وقل مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمَآ نَصَبَتْ جَلُودَهُمْ بِدَلْتَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء ٥٦). فأى رعب ينبعث في النفس، عندما تتخيل أصحاب النار، وقد نصبت جلودهم، فبدلوا

بها جلوداً غيرها، لا تلبث أن تنضج كرة أخرى، فتتبدل، وهكذا دواليك. وأى خوف شديد يملك المرء من هذا المصير المولم.

وخذ مثلاً هذا الجزء من قصة إبراهيم، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرْتُنَّحِدَ أَصْنَامًا إِلَهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْإِفْلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْثَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَسَجَّهَ قَوْمَهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)﴾ (الأنعام ٧٤-٨٢).

ألا يملأ نفسك إعجاباً هذا الحوار بين إبراهيم وأبيه وقومه، وهذا التأمل من إبراهيم فيما يحيط به، ويسترعى نظره في الكون، أو لا تحس بالقلق الذي استبدت بإبراهيم وهو ينشد الله، وبالراحة التي غمرته عندما اهتدى إليه، أو لا تشعر بالغبطة كما شعر بها إبراهيم، وهو يتجه إلى الذي فطر السموات والأرض، أو لا يثور في نفسك الرغبة في هذا الأمن، الذي يناله الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم؟!

كل أولئك إثارات وجدانية تحركها في نفسك هذه القصة، فتحب إبراهيم وتعجب به، ويدفعك ذلك إلى الاقتناع بما اقتنع به إبراهيم.

وخذ قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ (٦-١١). فهو بتلك الآيات يثير في النفس شعور الإجلال لعظمة الخالق، الذي بنى السماء بناءً محكمًا، وزينها نهارًا وليلاً، ومد الأرض، ورفع الجبال في أرجائها، وأنبت فيها بهيج النبات، وشعور الإعجاب بهذا المطر، ينزل من السماء فيحیی الأرض بعد موتها، وينشئ الجنات ويرفع النخل باسقات، ألا ترى أن شعور الإجلال والإعجاب يدفع إلى الإيمان بقدرة الله على البعث والنشور.

وخذ قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (٤٠)، وَأَمِينُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤٤) ﴿البقرة ٤٠ - ٤٤﴾. ألا تراه يثير فيهم شعور العرفان بالجميل، عند ذكر نعمه التي أنعم بها عليهم، وهذا العرفان بالجميل يدفعهم إلى الوفاء بالعهد، والإيمان بما أنزل، لا أن يقابل منهم بالجحود، والنكران، والباس الحق ثوب الباطل، كما أثار فيهم غريزة حب النفس، عندما أنكر عليهم دعوتهم الناس إلى الخير، ونسيانهم أنفسهم، وهكذا اتصل الأمر والنهي بتلك الآثار الوجدانية، التي تحمل النفس على قبول الأمر والنهي.

وخذ فاتحة الكتاب، وهي من آيات الابتهاال والتسبيح، تر فيها الآثار الوجدانية واضحة جليلة، فاتل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧) ﴿سورة الفاتحة ٢ - ٧﴾. ترى الحمد قد قرن بما يثير في النفس الحب والإجلال معاً، فالله المنعم بجليل النعم ودقيقها، مالك يوم الدين، يبعث في النفس الفرح عند انتهاجها الصراط المستقيم، بأنها ستكون مع الذين أنعم الله عليهم.

ويقرن الله سبحانه وتعالى أوامره بإثارات عاطفية، تدعو إلى قبولها والعمل بها، وها هو ذا، كما رأينا، يذكر بنى إسرائيل بنعمه عليهم، هذا التذكير الذي يدفعهم إلى عرفان الجميل، فيوفون بعهده، ويرهبونه، ويؤمنون بما أنزل مصدقاً لما معهم.

ويذكرنا برقابته لنا حتى نخافه إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء ٥٨).

ويثير فينا النخوة التي تدفعنا إلى الدفاع عن الضعاف والنساء والأطفال، ويصور لنا لهفة هؤلاء على من ينصرهم، فيبعث في نفوسنا إحساس الرفق، وعامل الشفقة، ويرسم لنا من يقاتل ذياداً عن أولئك مقاتلاً في سبيل الله، واستمع إليه سبحانه يقول: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ

وَالنَّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴿ (النساء ٧٥، ٧٦).

واقراً قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت ٢٤). فإنه عندما أمرنا أن ندفع بالحسنى، أثار فينا تلك الرغبة في أن نجد بجوارنا الناصر والمعين نستكثر منهما، حتى لينقلب العدو بتلك المعاملة، كأنه صديق حميم.

وعندما حثنا على الصدقة، اتكأ على غريزة حب النفس، تلك الغريزة التي تستكثر بمقدار ما تستطيع من الخير، فأبان القرآن أن ما سنبدله من صدقة سوف يعود خيره علينا أضعافاً مضاعفة، قال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٦١).

واستمع إليه ينهى عن نسيان الله: فيذكرنا بعاقبة ذلك، وأن الله سوف يصرف هؤلاء الناس عن خيرهم فيفسقون، ويصور لنا الفرق الشاسع بين أصحاب النار وأصحاب الجنة، ويذكرنا بالفوز الذي يظفر به من لا ينسى الله، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾ (الحشر ١٩، ٢٠).

واقراً هذه الابتهالات الرائعة التي يمزج فيها الخوف بالرجاء، والتي انبعثت من قلوب أمنت وتأملت خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، إذ يقول سبحانه: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّتَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ (١٩٥)﴾ (آل عمران ١٩٥ - ١٩٥). أو لا ترى هذا الابتغال المؤثر جديراً بهذه الخاتمة السعيدة، فقد استجاب لهم ربهم.

والأحكام في القرآن تقترن بما يثير الوجدان، حتى تقبل النفس على العمل بها راضية مغتبطة، وخذ أشد الآيات توغلاً في بيان هذه الأحكام، مثل آية

الدين، ألا تراه فيها يدعو الكاتب إلى أن يكون عادلاً فيما يكتب، مذكراً إياه بأن معرفته الكتابة منة من الله عليه، يجب أن تقابل بالشكر، ومن شكرها أن يكتب كما يجب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ (البقرة ٢٨٢). ويذكر من عليه الحق بأن يتقى الله، وهو يملأ ما عليه من دين ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْسِنَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ (البقرة ٢٨٢). ويتكى على غريزة التملك، عندما تحدث عن الحكمة فى كتابة الدين، إذ كتابته تحفظ المال، وتبعد الريب عن النفس فى قيمته، قال سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ (البقرة ٢٨٢). وعندما حذرنا أن نضر الكاتب والشهيد، ذكرنا بأن الإضرار بهما فسوق، لا يرضاه الله.

وانتهت آية الدين بتذكيرنا بأن الله عليم بكل شىء، يعلم ما فيه الخير لنا فيامرنا به، ويكون النجح فى القيام به.

وختم القرآن حديثه عن أحكام الميراث بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤)﴾ (النساء ١٣-١٤)، وفى ذلك كما ترى إثارة عامل الخوف والرجاء. وفى استدلال القرآن تجد فيها تلك الإثارات الوجدانية أيضاً، وقرأ قوله تعالى مبرهنًا على وحدانيته: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ عِندِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصِيَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكُمْ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ (الأنبياء ٢١ - ٢٩). فهو يثير فى النفس إجلال الله بتلك الصفات التى سيقى له، وانفرد بها، فهو رب العرش، لا يسأل عما يفعل ولا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وهم من خشيته مشفقون، وذلك كله مما يسند الإيمان بوحدانيته. وقبل أن أختتم هذا الفصل، أريد أن أقف قليلاً عند تلك الآيات التى قد يبدو فيها أنها تبعث إشارات جسمية، من مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ

أَسِنَ وَأَنْهَارًا مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارًا مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارًا مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿محمد ١٥﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جِثَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذُورَاتَا أُفْتَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مَثْكَبَيْنِ عَلَى فُرْشٍ تَطَّانِهُمَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِنْ ذُوَيْنِهِمَا جِنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَمَمَتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَا (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مَثْكَبَيْنِ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعِتْقَرِيِّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)﴾ (الرحمن ٤٦-٧٨).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَكَيْبٍ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مَثْكَبَيْنِ عَلَى سُرُرٍ مُصَفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَزَّغُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤُ مَكْنُونٌ (٢٤)﴾ (الطور ١٧-٢٤).

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مُوَضَّوئَةٍ (١٥) مَثْكَبَيْنِ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلِدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يَصْدَعُونَ غَنَّا وَلَا يُنْرِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٍ عِينٍ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)﴾ (الواقعة ١٠-٢٦). ونحو ذلك مما عنى به القرآن من ذكر لذائذ الجسد، من طعام وشراب ونساء، مما يمكن أن يقال فيه: إنه يثير لذات

جسدية، لا يعنى الأدب بإثارتها، وهنا يصح أن نشير إلى أن القرآن، وقد نزل للناس جميعاً، عنى بأن يستميلهم إليه، وفيهم المثالي ذو اللذة الروحية السامية، والواقعي الذي لا يسمو روحه عن واقع الحياة، فنزل القرآن وفيه هذان الاتجاهان، حتى يجد فيه كلا الفريقين بغيته. ومما هو جدير بالذكر أن اللذائذ إنما وصفت في معرض الحديث عن الجنة، وأن القرآن يجمع فيها بين الواقعية والمثالية، فتراه يقول: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (محد ١٥). ويختم حديثه عن الجنة في سورة الرحمن بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨) ﴿الرحمن ٧٨﴾. كما أنه يتحدث عن الأمن وضمان الخلود في جنة الخلد، وهي لذائذ روحية، ويضم إلى وصف الجنة ونعيمها أنه لا لغو فيها ولا تأثيم، إلا قليلاً سلاماً سلاماً، وهكذا يجد الواقعي في وصف الجنة طلبته، ويجد المثالي أمنيته، على أن كثيراً من هذه اللذائذ الجسدية يبعث الراحة في النفس، والاطمئنان إلى بهجة الخلود، أفلا تطمئن النفس إلى هذه الأنهار الجارية، والعيون المتفجرة، والأشجار ذات الغصون الوارفة، والثمار الدانية، والزوجات الحسان المقصورات في الخيام، وهل يثير ذلك لذة جسدية فحسب، ولا يثير فيها معنى الأُنس والحنان؟! وفي الحق أن هناك مبالغة كبيرة في ادعاء أن تلك الصفات خالصة لإثارات جسمية محضة.

إعجاز القرآن

جاء محمد بدينه الجديد، يدعوهم إلى ترك ما ألفوه، من عبادة الأوثان، وما اعتادوه في حياتهم الاجتماعية، والدينية، والاقتصادية، ويفرض عليهم فروضا، تتعب أبدانهم: من صوم، وصلاة، وتنقص أموالهم: من صدقة، وزكاة، ويحرم عليهم الخمر والميسر، وألوانا من الزواج كانت مألوفة عندهم، وغير ذلك من فروض وتكاليف، وجدوا حمل أعبائها ثقيلًا عليهم، وتعرض محمد لهم، فسب ألهتهم، وسفه أحلامهم، وأثار ثائرتهم، فهبوا يدفعون محمدًا بكل قوتهم، وقدم لهم القرآن دليلا على صدق دعوته، وبرهانًا على أنه رسول، وتحداهم، إذا كانوا في مرية من أمره، أن يأتوا بقرآن مثله، فقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء ٨٨).

قرأ محمد ذلك على ملاً من قومه، والمعارضين منهم، فأبلسوا، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ (مؤد ١٣)، فعجزوا فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة قل: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٢٣، ٢٤).

وقد كان العرب عند مبعث محمد (ﷺ) في نهضة لغوية شاملة، فيهم نوابغ الشعراء، ومصاقع الخطباء، ولهم - كما يقول الجاحظ - «القصيد العجيب والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة، والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج، واللفظ المنثور»، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والبلاغة والذلاقة، ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم^(١) والقرآن نفسه يعترف بلدهم، وشدة خصومتهم، فقال عنهم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصْمُونَ﴾ (الزخرف ٥٨). وقال لمحمد: ﴿لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (٩٧) ﴿مريم ٩٧﴾ ولكنهم وقفوا في حيرة من أمر هذا الكتاب، فقد وجدوا له في أنفسهم تأثيرًا بالغًا، لا يجدونه لغيره من ألوان الكلام، فنسبوه حينًا إلى السحر، وحينًا إلى الشعر: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (المدثر ٢٤). ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٦.

هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ﴿ (الأنبياء ٥) . ﴿ مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوْلِينَ ﴾ (القصص ٣٦) . وحينئذ مضوا بعد أن سمعوا القرآن، يقولون قول العاجز المحقق، يخفى عن الناس عجزاً لا يستطيع هذا القول أن يستره: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوْلِينَ ﴾ (الأنفال ٣١) . ولم لم يشاءوا القول، والقرآن يدعوهم في كل أونة إلى القول؟

وحيئاً أخذوا يوهمون الناس أن ليس في هذا القرآن ما يستحق المعارضة؛ لأن من جاء به مجنون لا يؤبه لقوله: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الحجر ٦) . ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَيْتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ (الصافات ٣٦) . وتلك حيلة لم تجز على أحد، والقرآن صباح مساء، يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن معارضته، ويتحداهم بأن يأتوا بآيات قليلة من مثله، ويذكر فيما يذكر تعظيم شأنه وتفخيم أمره، فيقول: ﴿ اللَّهُ نُزِّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْسَعُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (الزمر ٢٣) . ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (الحجر ٨٧) . ﴿ إِنْ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلِّي هِيَ أَقْوَمٌ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء ٩) . ﴿ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء ٨٢) . ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (الحشر ٢١) . وذلك كله مما يدفعهم إلى مباراته، ليضعوا من شأنه، وينزلوه عن تلك المنزلة التي يدعيها لنفسه، ولكنهم لم يفعلوا، مع إيمانهم في صميم قلوبهم، بما له من سلطان على نفوسهم، وأثر عميق فيها، وانتهى الأمر بهم إلى أن فكروا في حيلة صبيانية، تحول بينه وبين التأثير في نفوس سامعيه، تلك هي أن يمنعوا أنفسهم من الإصغاء إليه، ويمنعوا غيرهم من ذلك، ظننا منهم أنهم ربما انتصروا بهذه الوسيلة الخاسرة: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (نصفت ٢٦) . غير أنهم لم يستطيعوا أن يبطلوا تأثيره، ولا أن يوقفوا تيار تدفقه في القلوب، فلجئوا إلى السيف يحكم بينهم، وبين محمد، ولو أنهم استطاعوا إلى المعارضة سبيلاً، ما ركبوا هذا المركب الخشن، وعرضوا أنفسهم وأهليهم للقتل حينئذ، وللأسر حينئذ آخر، فكان التجاؤم إلى السيف الحجة القاطعة على عجزهم عن معارضة القرآن ومجاراته.

أما السبب الذي من أجله عجز العرب عن المجيء بمثل القرآن، فللعلماء فيه

مذاهب:

قال النظام: «إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة، لبيان الأحكام: من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك.

وهذا هو المذهب المعروف بمذهب الصرفة، وهو مذهب باطل لوجوه: أولها: أنه لو لم يكن معجزاً لما فيه من ألوان البلاغة وفنون البيان، لكان إذا نزل في درجة البلاغة، وانحط في مرتبة الفصاحة، أبلغ في الأعجوبة، إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، ولما عني أن يكون على هذا النظام العجيب، وأن يظفر من الفصاحة بأوفى نصيب^(١).

ثانيها: أنهم لو كانوا قد صرفوا عن معارضته، لم يكن من قبلهم من العرب مصروفين عنه: لأنهم لم يتحدثوا به، فكان من الجائز أن نعثر في كل العرب الأقدمين على ما يشبه القرآن، وذلك ما لم نجده في تاريخ أدبهم^(٢).

ثالثها: أنه لو كانت المعارضة ممكنة، ولكنهم منعوا منها بالصرفة، لم يكن الكلام معجزاً، إنما يكون المنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام في نفسه فضيلة على غيره^(٣) فيصبح في مكنة العظماء والبلغاء - بعد زمن التحدى - أن يأتوا بمثله، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، فقد أتى جهابذة الكلام بعده بما في وسعهم أن يأتوا، واهتدى العلماء إلى تبين أسباب الجمال في القول، ولكن لم يستطع أحد أن يدنو من هذا المكان البعيد، أو يقارب هذا الأفق المتسامي، وكلما اهتدوا إلى سر من أسرار الفصاحة، ازدادوا إيماناً بالضعف والعجز أمام كتاب الله.

رابعها: أنه لو كان عجز العرب عن المعارضة بالصرفة، لما استعظموا بلاغة القرآن، وتعجبوا من حسن فصاحته، كما أثر عن الوليد بن المغيرة حيث قال: «إن أعلاه لمورق، وإن أسفله لمغدق، وإن له لطلاوة، وإن عليه لحلاوة»^(٤).

بل كان الجدير بهم أن يتعجبوا من تعذر ذلك عليهم، بعد أن كانوا عليه قادرين^(٥) ولم يكن لتعجبهم لفصاحته وجه، فظهر من كل ما تقدم فساد هذا المذهب.

كما لا نقبل قول من قال إن وجه الإعجاز في نظم القرآن، أنه حكاية عن كلام الله القديم، لأنه لو كان كذلك لكانت التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله معجزات، في النظم والتأليف وما قال بذلك أحد، ولا ذكرته تلك الكتب نفسها،

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٤) الطراز ص ٣٩٤.

(١) إعجاز القرآن ص ٣٢.

(٣) المرجع السابق ص ٣٣.

(٥) نهاية الإيجاز ص ٥.

وكذلك كان من الواجب أن تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها منفردة، وذلك ما لم يقل به أحد^(١).

وقال بعض العلماء إن وجه الإعجاز ما تضمنه من الإخبار بالغيب، ويوردون لذلك آيات منها قوله تعالى: ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ (الروم ٢ - ٤). وتم غلب الروم كما أخبر في هذا البضع، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ مُحِلِّينَ رُءُوسَكُمْ وَمَقْصِرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ (الفتح ٢٧). فدخلوا كما قال.

وقال بعضهم: وجه ذلك أنه كان معلوما من حال محمد، أنه كان أمياً، لا يكتب ولا يقرأ، ولا يعرف شيئاً من كتب المتقدمين، وأقاصيصهم، وأنبيائهم، وسيرهم، ولكنه جاء بكثير من تاريخ الأنبياء السابقين، مما لا سبيل إلى معرفته إلا بالتعلم، فلما لم يكن ملابساً لحملة الأخبار، ولا متردداً على أهل العلم، ولا كان ممن يقرءون، علم أنه لم يصل إلى علم ذلك إلا بوحي من الله، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلزَمْتَ الْمُتَلِّونَ﴾ (العنكبوت ٤٨). وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود ٤٩). غير أن التنبؤ بالغيب والحديث عن الماضين، إن اتخذوا دليلاً على نبوة الرسول، لم يصلحوا برهاناً على إعجاز القرآن، ذلك أن معظم القرآن ليس تنبؤاً ولا قصصاً، فلو كان الوجه ما ذكر، لفقد معظم القرآن صفة الإعجاز؛ لأن التحدى وقع بأقصر سورة منه، وهى لا تحوى من التنبؤ والقصص شيئاً، ورد بعضهم قبول هذا الوجه من وجوه الإعجاز، بأن القرآن حين تحدى العرب، قالوا لرسول الله: إنك تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، ونسبوه إلى أنه يؤلف الكتاب، ثم ينسبه إلى الله، افتراء عليه، فتحدهم أن يأتوا بمثله مفترى، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتِرَاءُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ ذُنُوبِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)﴾ (هود ١٣، ١٤). فظن أن القرآن عندما تحدهم أن يأتوا بسور مفتريات، سمح لهم أن يأتوا بالقصص الكاذب فى معارضة القرآن، وذلك، عندى، ما لا أرى الآية مشيرة إليه، فكيف تكون السور مثله، وفى الوقت نفسه مفتريات، ولكنه يجاريهم فى دعوهم أنه

(١) راجع إعجاز القرآن ص ٥١ وتاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام والعصر الأموى ص ٢٨.

افتري الكذب على الله، فنسب إليه كلامًا، لم ينزل به وحى عليه، فقال فى الرد عليهم، هاتوا كلاما كاذبا كهذا الذى أتيت به، فهو لم يتحداهم بالأساليب اللفظية فحسب، ولكن تحداهم بما فى القرآن من معان وخواطر، فلو أن المعانى والخواطر التى يجيئون بها كانت خاطئة أو كاذبة، ما صح أن تكون سوراً مثل سور القرآن. وذهب بعضهم إلى أن وجه الإعجاز هو خلو القرآن من التناقض^(١)، وذلك غير مقبول أيضاً؛ لأن الإجماع منعقد على أن التحدى واقع بكل سورة من سور القرآن، وقد يوجد فى كثير من الخطب والشعر وغيرها ما يكون فى مقدار السورة خالياً من التناقض.

أما الوجه الذى نرتضيه لإعجاز القرآن، فهو ما يتحقق فى كل قدر من القرآن، تحدى به «وهو أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه^(٢)» وقد شعر العرب أنفسهم بما فى القرآن من سمو عن قول البشر، فنسبوه إلى السحر، فكأنهم يقولون إن القرآن لا يستطيع أن يقوله إلا من أوتى قوة خارقة، وليست من جنس قوى البشر، وقد وازن الباقلانى^(٣) بين القرآن وكلام العرب فى وجوه، نجمل بعضها فيما يلى:

فمن ذلك أن نظم القرآن خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، فليس من الشعر، ولا من النثر المرسل، ولا المسجوع، وإذا كنت أخالف الباقلانى فى نفي السجع عن القرآن، وأرى فى بعض آية سَجْعًا، فإنى أرى سجع القرآن يتخذ منهجاً خاصاً به، لا يشركه فيه سواه، كما سنبينه عند دراسة أسلوب القرآن.

ومن ذلك أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع والحكم الكثيرة، والتناسب فى البلاغة، والتشابه فى البراعة، على هذا القدر من الطول، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة.

ومن ذلك أن عجيب نظمه لا يتفاوت على ما يتصرف فيه من الوجوه: من قصص، ووعظ، واحتجاج، وحكم، وأحكام، ووعيد، ووصف، وتعليم أخلاق كريمة، وغير ذلك مما حواه القرآن، بينما نجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع يختلف باختلاف الأغراض، فمنهم من يجيد فى الوصف دون الغزل، ومن يحسن إذا رغب، والآخر إذا طرب، وغيرهما إذا ركب، أما

(٢) إعجاز القرآن ص ٦٨.

(١) الطراز ج ٢ ص ٢٩٧ ونهاية الإيجاز ص ٦.

(٣) المرجع السابق ص ٢٨ وما يليها.

نظم القرآن فلا انحطاط فى جميع ما يتصرف فيه عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى المرتبة الدنيا.

ومن ذلك أن المعانى التى جاء بها القرآن، وتعالج أحكام الشريعة، والاحتجاج فى الدين، والرد على المتحدّين، قد اتسقت فى أسلوب بديع يتعذر على البشر؛ لأنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعانى المتداولة المألوفة أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، فإذا برع اللفظ فى المعنى البارع كان أطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع فى المعنى المتداول.

ومن ذلك أن الكلام يبين فضله، ورجحان فصاحته، بأن يذكر فى تضاعيف كلام، فتأخذه الأسماع، وتتشوق إليه النفوس، ويرى وجه رونقه باديًا، غامرًا سائر ما يقرن به، كالدرة التى ترى فى سلك من خرز، وكالياقوتة فى وسط العقد، وأنت ترى الآية من القرآن، يتمثل بها فى تضاعيف كلام كثير، وهى غرة جميعه، وواسطة عقده، والمنادى على نفسه، بتميزه وتخصصه برونقه وجماله.

وجه الإعجاز الحق إذاً هو ما اتسم به القرآن من بلاغة، تحير فيها أهل الفصاحة من العرب، وأعيان البلاغة من بينهم، فسلموا، ولم يشغلوا أنفسهم بمعارضته؛ لعلمهم بالعجز عن بلوغ مداه، وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ (الأنفال ٣١). يحمل دليل عجزهم، فلو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم: من القدرة على المجيء بمثل القرآن، لتجاوزوا الوعد إلى الوفاء بما ادعوا، فلما لم ينجزوا ما وعدوا، علم عجزهم وقصور باعهم^(١).

ولما كانت البلاغة سر هذا الإعجاز، وجب أن نلتمس أسبابها، وندرك مظاهرها، ونضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلم، حتى لا نكون مقلدين فيما نعلم، وحتى تكون معرفتنا معرفة الصانع الحاذق، الذى يعلم كل خيط من الإبريسم الذى فى الديباج، وكل قطعة من القطع المنجورة فى الباب المقطع، وكل أجرة من الأجر الذى فى البناء البديع^(٢).

(١) راجع من ادعى معارضة القرآن وما عورض به فى كتاب إعجاز القرآن للرافعى من ٢٢٨ وما يليها.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣١.

الفصل الأول

ألفاظ القرآن

البلاغة والنظم:

لا تفضل الكلمة صاحبها منفردة في قاموس اللغة، من حيث دلالة كل على معناه، فكلمة قال، لا تفضل تكلم، وكلمة رجل، لا ميزة لها على أسد، اللهم إلا من ناحية أن بعض الكلمات أسهل جرياً على اللسان من بعض، وأخف نطقاً، فتجد مثلاً كلمة النفس أسلس من كلمة الجرشي، وكلمة مرتفعات أسلس من كلمة مستشزرات، وإلا من ناحية كثرة استعمال بعضها وغرابة البعض الآخر، فإذا ما نظمت الكلمة في جملة، صارت دالة على نصيبها من المعنى، وصار من حقنا أن نسأل: لِمَ اختيرت هذه الكلمة دون تلك، ولِمَ آثرنا صيغة على أخرى؟ وإن الأسلوب قد يروعك ويبهرك، فإذا أخذت مفرداته كل مفرد على حدة، فقد لا تجد فيه كبير روعة، ولا قوة أسر، ولكن عندما انتظمت هذه المفردات في سلك فلاءمت ما قبلها، وارتبطت بما بعدها، واكتسبت جمالا وجلالا، وإن شئت فانظر قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْبَلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُصِّي الْأَمْرَ وَاسْتَوْت عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (مرد ٤٤). فإنك إذا أخذت كل كلمة على حدها، من غير نظر إلى ما قامت به من أداء حظها المقسوم لها في معنى الجملة كلها، فقد لا تجد لها من التأثير ما تجده لها، وهي بين أخواتها تؤدي معناها.

وهنا يحق لنا أن نسأل عن فضل الكلمة في موضعها، ونتبين جمال اختيارها، وندرك ما لها من الميزة على صاحبها، وإذا سلطنا هذا المسلك في الآية الكريمة رأينا الآية تصور ما حدث بعد الطوفان، من ابتلاع الأرض ماءها، ونقاء السماء بعد أن كانت تغطي بسحبها، واستواء السفينة على الجودي، وقد طهرت الأرض من رجس المشركين، فصور الله ذلك تصويراً حسياً، يؤكد في نفسك استجابة هذه الطبيعة العظيمة وخضوعها لأمر الله، فهذا المطر المدرار

ينهمل من السماء، وهذا الماء الطاغى يجتاح نواحي الأرض، وهذا الاضطراب فى أرجاء الكون، لم يلبث أن سكن واستقر، وعادت الطبيعة إلى هدوئها، عندما تلقت أمر الله لها أن تسكن وتهدأ، ولكن لما كان هذا الأمر قد صدر إلى الكون من غير أن يسمعه من فى الكون، أو يروا قائله، بنى الفعل للمجهول كما ترى، وأوثر فى نداء الأرض ﴿يَا﴾ دون الهمزة، لما يدعو اجتماعها مع همزة أرض إلى ثقل على اللسان فى النطق بهما، وفضلت كذلك على «أيا» لما فى هذه من زيادة تنبيه ليست الأرض، وهى رهن أمر الله، فى حاجة إليه، وأوثر تنكير الأرض لما فى ذلك من تصغير أمرها، فالمقام هنا يستدعى ذلك التصغير، ويستدعى الإسراع بتلبية الأمر، وذلك لا يكون مع التعريف المقتضى لإطالة الكلام بأيتها، وجاءت كلمة ﴿ابلي﴾ هنا مصورة لما يراد أن تصنعه الأرض بمائها، وهو أن تبتلعه فى سرعة، فهى هنا أفضل من امتصى مثلاً؛ لأنها لا تدل على الإسراع فى التشرب، وفى إضافة الماء إليها ما يوحي بأنها جديرة بأن تمتص ماء هو ماؤها، فكأنها لم تكلف شططاً من الأمر، وقل مثل ذلك فى قوله: ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْبَلِي﴾، ولاحظ هذا التناسق الموسيقى بين ابلعى وأقلعى، وبنى ﴿غِيضٌ﴾ للمجهول، مصوراً بذلك إحساس من شاهدوا هذا المنظر الطبيعى، فهم قد رأوا الماء يغيض والأمريتم، وكأنما قد حدث ذلك من تلقاء نفسه، من غير أن يكون ثمة فاعل قد فعل، واختيرت كلمة استوت دون رست مثلاً لما فى كلمة استوى من الدلالة على الثبات المستقر، وبنى الفعل ﴿قِيلَ﴾ للمجهول إشارة إلى أن هذا القول قد صدر ممن لا يعد كثرة، حتى لكأن أرجاء الكون تردد هذا الدعاء، وجاءت كلمة ﴿بُعْدًا﴾ دون (هلاكاً) مثلاً، إشارة إلى أن هلاك هؤلاء القوم الظالمين إنما قصد به إبعادهم عن الفساد فى الأرض، والسخرية بمن آمن وعمل صالحاً، وأوثر المجيء بالموصوف هنا؛ لأنه لا يراد الدعاء على الظالمين لا تصافهم بالظلم، وإنما يراد الدعاء على هؤلاء القوم بالبعد؛ لا تصافهم بالظلم، فالمقام هنا، مقام حديث عن قوم ظلموا أنفسهم، فاستحقوا لذلك أن يتخلص منهم، وأحس فى كلمة بعداً، دلالة على الراحة النفسية التى شعر بها من فى الكون، بعد أن تخلصوا من هؤلاء القوم الظالمين، ولعل لاستخدام المصدر الذى يؤكد أن الفعل قد تم، أثراً فى ذلك. أو لا ترى الآية قد صورت لك ما حدث بعد الطوفان أدق تصوير، فى عبارة موجزة، فهامى ذى الأرض تبتلع ماءها، وهى ذى السحب فى السماء تنقش مقلعة، وهى ذى الماء قد غاض، وعادت

الطبيعة كما كانت، فاستقرت سفينة نوح ومن معه على الجودي، وتنفس الكون الصعداء، فقد طهر من القوم الظالمين.

وقد يتجمع الحسن حول حرف واحد في الآية، يثير في نفسك ألواناً من المعانى، لا تجدها إذا استبدلت به حرفاً آخر، واستمع إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِئُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦)﴾ (الروم ٥٥، ٥٦). ألا تشعر بما حول هذه الفاء، من استفهامات تثيرها، فكأن الذين أوتوا العلم والإيمان يقولون لمنكرى البعث: ألا تزالون مصرين على إنكاره؟ وماذا أنتم فاعلون؟ وكيف تلقون رباً أنكرتم لقاءه؟ وشبيه بهذا قول الشاعر، وقد تمثل به أبو بكر، حين أتاه كتاب خالد بالفتح وهزيمة الأعاجم:

تمنانا، ليلقانا بـقـوم تخال بياض لأهمم السرابا

فقد لا قيتنا فرأيت حريبا عوانا، تمنع الشيخ الشرابا

فتأمل موضع الفاء في قوله: فقد لا قيتنا، أو لا ترى فيها معنى الاستخبار عما شاهده الأعداء منهم، عندما لا قوهم، ومعنى الإخبار بأنهم أبلوا خير البلاء، وكانوا في الحرب أبطالاً مغاوير، وكذلك تأمل موضع الفاء في قول العباس بن الأحنف:

قالوا: خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول، فقد جننا خراسانا

أو لا ترى فيها معنى اللفظة على استنجاز الأمل، والشوق القاتل إلى العود إلى الوطن المفارق، والمطالبة بتنفيذ ما وعد به، قبل أن يبدأ رحلته.

تخيـر اللفـظ

يتأنق أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، يستخدم كلا حيث يؤدي معناه في دقة فائقة. تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذى وفته به أختها، فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، ولذلك لا تجد في القرآن ترادفاً، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديداً. ولما بين الكلمات من فروق، ولما يبعثه بعضها في النفس من إحياءات خاصة، دعا القرآن ألا يستخدم لفظ مكان آخر، فقال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات ١٤). فهو لا يرى التهاون في استعمال اللفظ ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا تمويه،

ولما كانت كلمة ﴿رَاعِنًا﴾ لها معنى فى العبرية مذموم، نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول بها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ (البقرة ١٠٤). فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ، يؤدى به المعنى.

استمع إليه فى قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُؤُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَذْبُحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (البقرة ٤٩). ما تجده قد اختار الفعل ذبح، مصورًا به ما حدث، وضعف عينه للدلالة على كثرة ما حدث من القتل فى أبناء إسرائيل يومئذ، ولا تجد ذلك مستفادًا إذا وضعنا مكانها كلمة يقتلون.

وتنكير كلمة حياة، فى قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدُنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ (البقرة ٩٦). يعبر تعبيرًا دقيقًا عن حرص هؤلاء الناس على مطلق حياة يعيشونها، مهما كانت حقيرة القدر، ضئيلة القيمة، وعندما أضيفت هذه الكلمة إلى ياء المتكلم فى قوله تعالى: ﴿وَحَيَاءٌ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر ٢٣، ٢٤). عبرت بأدق تعبير عن شعور الإنسان يومئذ، وقد أدرك فى جلاء ووضوح أن تلك الحياة الدنيا لم تكن إلا وهمًا باطلاً، وسرابًا خادعًا، أما الحياة الحقبة الباقية، فهى تلك التى بعد البعث؛ لأنها دائمة لا انقطاع لها، فلا جرم أن سماها حياته، وندم على أنه لم يقدم عملاً صالحًا، ينفعه فى تلك الحياة. واستمع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَنُوسًا فَمُنْظِرًا﴾ (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (الإنسان ١٠، ١١). تجد كلمة الغنوس قد استعملت أدق استعمال؛ لبيان نظرة الكافرين إلى ذلك اليوم، فإنهم يجدونه عابسًا مكفهرًا، وما أشد اسوداد اليوم، يفقد فيه المرء الأمل والرجاء، وكلمة ﴿فَمُنْظِرًا﴾ بثقل طائها مشعرة بثقل هذا اليوم، وفى كلمتى النضرة والسرور تعبير دقيق عن المظهر الحسى لهؤلاء المؤمنين، وما يبدو على وجوههم من الإشراق، وعمًا يملأ قلوبهم من البهجة.

ومن دقة التمييز بين معانى الكلمات، ما تجده من التفرقة فى الاستعمال بين: يعلمون، ويشعرون، وفى الأمور التى يرجع إلى العقل وحده أمر الفصل فيها، تجد كلمة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ صاحبة الحق فى التعبير عنها، أما الأمور التى يكون للحواس مدخل فى شأنها، فكلمة ﴿يشعرون﴾ أولى بها، وتأمل لذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ١٣). فالسفاهة أمر مرجعه إلى العقل، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (البقرة ٢٦). وقوله تعالى: ﴿أُولَآ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُغْلِبُونَ﴾ (البقرة ٧٧). وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا

الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴿الأنعام ١١٤﴾. وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يونس ٥٥). وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء ٢٤). وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (النور ٢٥). إلى غير ذلك مما يطول بي أمر تعداده، إذا مضيت في إيراد كل ما استخدمت فيه كلمة يعلمون. وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أحياءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة ١٥٤). فمن الممكن أن يرى الأحياء وأن يحس بهم، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الزمر ٥٥). فالعذاب مما يشعر به ويحس، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ (البقرة ١١، ١٢). وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِينَكُمْ لَا يَخْطِئَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل ١٨). وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأَخِيهِ فَصِيهِ فَیَصْرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص ١١). وغير ذلك كثير.

واستخدم القرآن كلمة التراب، ولكنه حين أراد هذا التراب الدقيق الذي لا يقوى على عصف الريح استخدم الكلمة الدقيقة وهي الرماد، فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ (إبراهيم ١٨). كما أنه أثر عليها كلمة الثرى، عندما قال: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾﴾ (طه ٤ - ٦). لأنه يريد - على ما يبدو من سياق الآيات الكريمة - الأرض المكونة من التراب، وهي من معاني الثرى، فضلاً عما في اختيار الكلمة من المحافظة على الموسيقى اللفظية في فواصل الآيات.

وعبر القرآن عن القوة العاقلة في الإنسان بألفاظ، منها الفؤاد واللب والقلب، واستخدم كلا في مكانه المقسوم له، فالفؤاد في الاستخدام القرآني يراد به تلك الآلة التي منحها الله الإنسان، ليفكر بها، ولذا كانت مما سوف يسأل المرء عن مدى انتفاعه بها يوم القيامة، كالسمع، والبصر، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء ٣٦). وتجدر هنا واضحاً فيما وردت فيه تلك الكلمة من الآيات، واستمع إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الملك ٢٣). وقوله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادَ مَا رَأَى﴾ (النجم ١١). وقوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ (الأنعام ١١٢). وقوله تعالى: ﴿نَارَ اللَّهِ الْمُوقَدَةَ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى

الأفئدة (٧) ﴿الهمزة ٦. ٧﴾. وقوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْبِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَقْبَدَتْهُمْ هَوَاءً﴾ (إبراهيم ٤٣).

أما اللب ولم يستخدم في القرآن إلا مجموعاً، فيراد به التفكير الذي هو من عمل تلك الآلة، تجد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة ١٧٩). وقوله تعالى: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (ال عمران ١٩٠). وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة ٢٦٩).

أما القلب، وهو أكثر هذه الكلمات دوراناً في الاستخدام القرآني، فهو بمعنى أداة التفكير، في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ (الأعراف ١٧٩). وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (الحج ٤٦). وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ (ال عمران ٨). وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج ٤٦). وهو أداة الوجدان، كما تشعر بذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال ٢). وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ (الأحزاب ١٠). وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرُفُّ الرَّاجِفَةُ﴾ (٦) تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاحِفَةٌ﴾ (النازعات ٦-٨). وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا إِيمَانًا﴾ (الفتح ٤). وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ (القيامة ٢٧). وقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد ٢٨).

وهو أداة الإرادة، كما يبدو ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الفصم ١٠). وقوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (الأنفال ١١). وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (الأحزاب ٥).

فالقرآن يستخدم القلب فيما نطلق عليه اليوم كلمة العقل، وجعله في الجوف حيناً في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ (الأحزاب ٤).

وفى الصدر حيناً، في قوله: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج ٤٦). تعبير عما يشعر به الإنسان عندما يلم به وجدان، أو تملؤه همة وإرادة.

ومن الدقة القرآنية في استخدام الألفاظ أنه لا يكاد يذكر المشركين، إلا بأنهم أصحاب النار، ولكننا نجده قال في سورة (ص): ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجُلًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ﴾ (٦٢) أَتُخَذُنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ

النَّارِ (٦٤) ﴿﴾. فنراه قد استخدم كلمة ﴿أهل﴾ وهى هنا أولى بهذا المكان من كلمة (أصحاب)، لما تدل عليه تلك من الإقامة فى النار والسكنى بها. وكلمة ﴿ميراث﴾ فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران ١٨٠). واقعة موقعها، وهى أدق من كلمة (ملك) فى هذا الموضوع، لما أن المال يرى فى أيدى مالكيه من الناس، ولكنه سوف يصبح ميراثاً لله.

وقد يحتاج المرء إلى التريث والتدبر، ليدرك السر فى إثارة كلمة على أخرى، ولكنه لا يلبث أن يجد سمو التعبير القرآنى، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرَانٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مَنْ أَلْقَى (٦٥)﴾ (طه ٦٣-٦٥). فقد يبدو للنظرة العاجلة أن الوجه أن يقال: إما أن تلقى وإما أن تلقى، وربما توهم أن سر العدول يرجع إلى مراعاة النغم الموسيقى فحسب، حتى تتفق الفواصل فى هذا النغم، وذلك ما يبدو بادئ الرأى، أما النظرة الفاحصة فإنها تكشف رغبة القرآن فى تصوير نفسية هؤلاء السحرة، وأنهم لم يكونوا يوم تحدوا موسى بسحرهم، خائفين، أو شاكين فى نجاحهم، وإنما كان الأمل يملأ قلوبهم، فى نصر مؤزر عاجل، فهم لا ينتظرون ما عسى أن تسفر عنه مقدرة موسى عندما ألقى عصاه، بل كانوا مؤمنين بالنصر سواء ألقى موسى أولاً، أم كانوا هم أول من ألقى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (البقرة ١٧٦). فقد يتراءى أن وصف الشقاق، وهو الخلاف، بالقوة أولى من وصفه بالبعد، ولكن التأمل يدل على أن المراد هنا وصف خلافهم بأنه خلاف تتباعد فيه وجهات النظر إلى درجة يعسر فيها الالتقاء، ولا يدل على ذلك لفظ غير هذا اللفظ الذى اختاره القرآن. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج ٢٧). فربما كانت الموسيقى، والفاصلة فى الآية السابقة دالية - تجعل من المناسب أن يوصف الفج بالبعد، فيقال: فج بعيد، ولكن إثارة الوصف بالعمق، تصوير لما يشعر به المرء أمام طريق حصر بين جبلين، فصار كأن له طولاً، وعرضاً، وعمقاً.

وإثارة كلمة ﴿مُسْكُوبٌ﴾ فى قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَبْضُودٍ (٢٩) وَظُلِّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١)﴾ (الواقعة ٢٧-٣١).

مكان كلمة (غزيرة)، أدق في بيان غزارته، فهو ماء لا يقتصد في استعماله، كما يقتصد أهل الصحراء، بل هو ماء يستخدمونه استخدام من لا يخشى نفاذه، بل ربما أوحى تلك الكلمة بمعنى الإسراف في هذا الاستخدام.

واستخدام كلمة ﴿يَظُنُّونَ﴾ في الآية الكريمة: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ (البقرة ٤٥، ٤٦)، قوية في دلالتها على مدح هؤلاء الناس، الذين يكفى لبعث الخشوع في نفوسهم، وأداء الصلاة، والاتصاف بالصبر - أن يظنوا لقاء ربهم، فكيف يكون حالهم إذا اعتقدوا؟

ومن دقة أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه ما أشار إليه الجاحظ حين قال^(١): (وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع، إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامّة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين نكر المطر، ونكر الغيث).

لاختيار القرآن للكلمة الدقيقة المعبرة، يفضل الكلمة المصورة للمعنى أكمل تصوير، ليشعرك به أتم شعور وأقواء، وخذ لذلك مثلاً كلمة ﴿يَسْكُنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ (الشورى ٣٢). وكلمة ﴿تَسْوَرُوا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضُمِ إِذْ تَسْوَرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (القصص ٢١). وكلمة ﴿يَطْوُقُونَ﴾ في الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَخْسِبِنَ الَّذِينَ يَتَّخِلُونَ بِمَا أَنَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطْوَقُونَ مَا يَخْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران ١٨٠). وكلمة ﴿يَسْفِكُ﴾ في آية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة ٣٠). وكلمة ﴿انْفَجَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشَرَ نَبِئًا﴾ (البقرة ٦٠). وكلمة ﴿يَجْرُونَ﴾ في الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلآذَانِ سُجْدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨)﴾ (الإسراء ١٠٧، ١٠٨). وكلمة ﴿مَكِبًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَنْشِئْ مُكِبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أُمَّةً مَنِ يَنْشِئُ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النمل ٢٢). وكلمة ﴿تَفِيضُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة ٨٣). وكلمة ﴿يُصَبُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (الحج ١٩). وكلمة ﴿يُدْسُ﴾ في قوله تعالى:

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤.

﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل ٥٨، ٥٩). وكلمة ﴿قَاصِرَاتٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرُقِ عَيْنٌ﴾ (الصفات ٤٨). وكلمة ﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾. في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ (٢٦)﴾ (الصفات ٢٥، ٢٦). ﴿وَمُتَشَاكِسُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ (الزمر ٢٩). ويطول بي القول، إذ أنا مضيت في عرض هذه الكلمات التي توضع في مكانها المقسوم من الجملة، فتجعل المعنى مصورًا تكاد تراه بعينك، وتلمسه بيدك، ولا أريد أن أمضي في تفسير الكلمات التي استشهدت بها؛ لأنها من وضوح الدلالة بمكان.

ولهذا الميل القرآني إلى ناحية التصوير، نراه يعبر عن المعنى المعقول بالألفاظ تدل على محسوسات، مما أفرد له البيانين علمًا خاصًا به دعوه علم البيان، وأوثر أن أرجئ الحديث عن ذلك إلى حين، وحسبى الآن أن أبين ما يوحيه هذا النوع من الألفاظ في النفس، ذلك أن تصوير الأمر المعنوي في صورة الشيء المحسوس يزيده تمكنا من النفس، وتأثيرًا فيها، ويكفي أن تقرأ قوله تعالى: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً﴾ (البقرة ٧). وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ (الجاثية ٢٣). لترى قدرة كلمة ﴿حَتَّمَ﴾، في تصوير امتناع دخول الحق قلوب هؤلاء الناس، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة ٢٥٧). لترى قيمة كلمتي الظلمات والنور، في إثارة العاطفة وتصوير الحق والباطل. وقوله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ غُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة ١٨). لترى قيمة هذه الصفات التي تكاد تخرجهم عن دائرة البشر، وقوله سبحانه: ﴿يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ (البقرة ٢٧). فكلمات ينقضون ويقطعون ويوصل، تصور الأمور المعنوية في صور المحسوس الملموس، وفي القرآن من أمثال ذلك عدد ضخم، سوف نعرض له في حينه.

وفي القرآن كثير من الألفاظ، تشع منها قوى توحى إلى النفس بالمعنى وحيًا، فتشعر به شعورًا عميقًا، وتحس نحو الفكرة إحساسًا قويًا. خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨)﴾ (التكوير ١٧، ١٨). فتأمل ما توحى به كلمة ﴿تَنَفَّسَ﴾ من تصوير هذه اليقظة الشاملة للكون بعد هدأة الليل، فكأنما كانت الطبيعة هاجعة هادئة، لا تحس فيها حركة ولا حياة، وكأنما

الأنفاس قد خفتت حتى لا يكاد يحس بها ولا يشعر، فلما أقبل الصبح صحا الكون، ودبت الحياة فى أرجائه.

وخذ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّى إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ وَضَاقتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ (التوبة ١١٧، ١١٨). وقف عند كلمة ﴿ضَاقٌ﴾ فى ﴿ضَاقتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾، فإنها توحى إليك بما ألم بهؤلاء الثلاثة من الألم والندم، حتى شعروا بأن نفوسهم قد امتلأت من الندم امتلاء، فأصبحوا لا يجدون فى أنفسهم مكاناً، يلتمسون فيه الراحة والهدوء، فأصبح القلق يورق جفنهم، والحيرة تستبد بهم، وكأنما أصبحوا يريدون الفرار من أنفسهم.

واقراً قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ (السجدة ١٦). وتبين ما تغيره فى نفسك كلمة ﴿تَتَجَافَى﴾، من هذه الرغبة الملحة التى تملك على المتقين نفوسهم، فيتألمون إذا مست جنوبهم مضاجعهم، ولا يجدون فيها الراحة والطمأنينة، وكأنما هذه المضاجع قد فرشت بالشوك فلا تكاد جنوبهم تستقر عليها حتى تجفوها، وتنبو عنها. وقف كذلك عند كلمة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ فى قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة ١٥). فإن اشتراك هذه الكلمة مع العمى فى الحروف كفيل بالإيحاء إلى النفس، بما فيه هؤلاء القوم من حيرة واضطراب نفسى، لا يكادون به يستقرون على حال من القلق.

واقراً الآية الكريمة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَعَةٌ فِي الْمَرَجِ﴾ (النساء ١٨٥). أفلا تجد فى كلمة ﴿زُحْزِحَ﴾ ما يوحى إليك بهذا القلق، الذى يملأ صدور الناس فى ذلك اليوم، لشدة اقترابهم من جهنم، وكأنما هم يبعدون أنفسهم عنها فى مشقة وخوف وذعر. وفى كلمة طمس فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٌ﴾ (القمر ٣٧). ما يوحى إليك بانمحاء معالم هذه العيون، حتى كأن لم يكن لها من قبل فى هذا الوجه وجود. ويوحى إليك الراسخون فى قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (النساء ٧). بهذا الثبات المطمئن، الذى يملأ قلب هؤلاء العلماء، لما ظفروا به من معرفة الحق والإيمان به.

وتوحى كلمة ﴿شَتَانٌ﴾ فى قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ (المائدة ٢). توحى بهذا الجوى، الذى يملأ الصدر، حتى لا يطيق المرء رؤية من يبغضه، ولا تستسيغ نفسه الاقتراب منه.

ولما سمعنا قوله تعالى لعيسى بن مريم: ﴿إِنِّي مَتَوِّفِكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (النساء ٥٥). أوحى إلينا التعبير بالتطهير، بما يشعر به المؤمن بالله نحو قوم مشركين، اضطر إلى أن يعيش بينهم، فكانهم يمسونه برجسهم، وكأنه يصاب بشيء من هذا الرجس، فيطهر منه إذا أنقذ من بينهم. وكلمة ﴿سُكْرَتٌ﴾ فى قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكْرَتٌ أُنزِلَتْ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (الحجر ١٤، ١٥). قد عبر بها الكافرون عما يريدون أن يوهموا به، عما حدث لأبصارهم من الزيف، فكانت كلمة ﴿سُكْرَتٌ﴾، وهى مأخوذة من السكر دالة أشد دلالة على هذا الاضطراب فى الرؤية، ولا سيما أن هذا السكر قد أصاب العين واستقل بها، ومعلوم أن الخلط من خصائص السكر، فلا يتبين السكران ما أمامه، ولا يميزه على الوجه الحق. واختار القرآن عند عد المحرمات كلمة ﴿أُمَّهَاتٌ﴾، إذ قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ (النساء ٣). وأثر كلمة ﴿الْوَالِدَاتُ﴾ فى قوله سبحانه: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِئَ الرُّضَاعَةَ﴾ (البقرة ٢٣٣)، لما أن كلمة (الأم) تبعث فى النفس إحساساً بالقداسة، وتصور شخصاً محاطاً بهالة من الإجلال، حتى لتشمئز النفس وتنفر أن يمس بما يشين هذه القداسة، وذلك الإجلال، وتنفر من ذلك أشد النفور، فكانت أنسب كلمة تذكر عند ذكر المحرمات، وكذلك تجد كل كلمة فى هذه المحرمات مثيرة معنى يؤيد التحريم، ويدفع إليه، أما كلمة الوالدات فتوحى إلى النفس بأن من الظلم أن ينزع من الوالدة ما ولدته، وأن يصبح فؤادها فارغاً، ومن هنا كانت كل كلمة منهما موحية فى موضعها، أخذة خير مكان تستطيع أن تحتله.

وقد تكون الكلمة فى موضعها مثيرة معنى لا يراد إثارتها، فيعدل عنها إلى غيرها، تجد ذلك فى قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبَّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (الجن ٣). فقد أثر كلمة ﴿صَاحِبَةٌ﴾ على زوج وامرأة، لما تثيره كلاهما من معان، لا تثيرهما فى عنف مثلهما - كلمة صاحبة.

وقد يكون الجمع بين كلمتين هو سر الإيحاء ومصدره، كالجمع بين ﴿النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٢٤). فهذا الجمع يوحى إلى النفس بالمشاكلة

بينهما والتشابه. وقد تكون العبارة بجملتها هي الموحية كما تجد ذلك فى قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ (المؤمنين ١٩). أو لا تجد هذه الثياب من النار، موحية لك بما يقاسيه هؤلاء القوم من عذاب أليم، فقد خلقت الثياب يتقى بها اللابس الحر والقر، فماذا يكون الحال إذا قدت الثياب من النيران.

لو بغير الماء صدرى شرق كنت كالغصان، بالماء اعتصارى

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ (الزمر ١٦). فإن الظلة إنما تكون ليتقى بها وهج الشمس، فكيف إذا كان الظلة نفسها من النيران.

هذه أمثلة قليلة لما فى القرآن من كلمات شديدة الإيحاء، قوية البعث لما تتضمنه من المعانى. وهناك عدد كبير من ألفاظ، تصور بحروفها، فهذه «الظاء والشين» فى قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ (الرحمن ٣٥). و«الشين والهاء» فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسِئَ الْمَصِيرُ﴾ (٦) إِذَا أَلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ (الملك ٧). و«الظاء» فى قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتَكُمْ نَارًا تَلْقَى﴾ (الليل ١٤). و«الظاء» فى قوله سبحانه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَفِيظًا وَزَفِيرًا﴾ (الفرقان ١١، ١٢). حروف تنقل إليك صوت النار مغتاطة غاضبة. وحرف «الصاد» فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ (القمر ١٩). يحمل إلى سمعك صوت الريح العاصفة، كما تحمل «الظاء» فى قوله سبحانه: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَبْتَعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (فاطر ١٢). إلى أذنك صوت الفلك، تشق عباب الماء.

وألفاظ القرآن مما يجرى على اللسان فى سهولة ويسر، ويعذب وقعه على الأذن، فى اتساق وانسجام.

قال البارزى فى أول كتابه: (أنوار التحصيل فى أسرار التنزيل): اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وكذلك كل واحد من جزأى الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر، ولا بد من استحضار معانى الجمل، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها، واستحضار هذا متعذر على البشر، فى أكثر الأحوال، وذلك عتيد حاصل فى علم الله، فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه، وإن كان مشتملاً على الفصيح والأفصح، والمليح والأملح، ولذلك أمثلة منها قوله تعالى: ﴿وَجِئِى الْجَنَّتَيْنِ ذَانِ﴾ (الرحمن ٥٤). لو قال مكانه: «وثمر الجننتين قريب». لم يرق مقامه من

جهة الجناس بين الجنى والجنيتين، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها، ومن جهة مؤاخاة الفواصل. ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ (العنكبوت ٤٨). أحسن من التعبير بتقرأ لثقله بالهمزة. ومنها: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة ٢). أحسن من (لا شك فيه) لثقل الإدغام، ولهذا كثر ذكر الريب. ومنها: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ (آل عمران ١٣٩). أحسن من (ولا تضعفوا) لخفته. و﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ (مريم ٤). أحسن من (ضعف): لأن الفتحة أخف من الضمة، ومنها «أمن» أخف من «صدق»، ولذا كان ذكره أكثر من ذكر التصديق. و﴿أَثَرَكُ اللَّهُ﴾ (يوسف ٩١). أخف من (فضلك) و(أتى) أخف من (أعطى) و(أنذر) أخف من (خوف) و(خير لكم) أخف من (أفضل لكم) والمصدر فى نحو: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ (لقمان ١١). (يؤمنون بالغيب) أخف من (مخلوق) و(الغائب) و(نكح) أخف من (تزوج): لأن فعل أخف من تفعل، ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر، ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ الرحمة، والغضب، والرضا، والحب، والمقت، فى أوصاف الله تعالى مع أنه لا يوصف بها حقيقة؛ لأنه لو عبر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام، كأن يقال: يعامله معاملة المحب، والماقت، فالمجاز فى مثل هذا أفضل من الحقيقة، لخفته، واختصاره، وابتناؤه على التشبيه البليغ، فإن قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَمَنَّا مِنْهُمْ﴾ (الزخرف ٥٥). أحسن من (فلما عاملونا معاملة الم غضب) أو (فلما أتوا إلينا بما يأتية الم غضب) أهـ^(١).

وهناك لفظتان أبى القرآن أن ينطق بهما، ولعله وجد فيهما ثقلا، وهما كلمتا «الأجر» و«الأرضين». أما الأولى فقد أعرض عنها فى سورة القصص، فبدل أن يقول: (وقال فرعون: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى، فهى لى يا هامان آجرا، فاجعل لى صرحا، لعلى أطلع إلى إله موسى). قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى﴾ (القصص ٣٨).

وأما الثانية فقد تركها فى الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق ١٢).

هذا ومما ينبغى الإشارة إليه أن القرآن قد أقل من استخدام بعض الألفاظ، فكان يستخدم الكلمة مرة أو مرتين، وليس مرجع ذلك لشىء سوى المقام الذى يستدعى

(١) الإتيان ج ٢ ص ١٢٥.

ورود هذه الكلمة. وللقرآن استعمالات يؤثرها، فمن ذلك وصفه الحلال بالطيب، وذكر السجّل مع حجارة، وإضافة الأساطير إلى الأولين، وجعل مسنون وصفاً للحما، ويقرن التأثيم باللغو، وإلا بذمة، ومختالاً بفخور، ويصف الكذاب بأشر.

ووازن ابن الأثير بين كلمات استخدمها القرآن وجاءت في الشعر، فمن ذلك أنه جاءت لفظة واحدة في آية من القرآن وبيت من الشعر، فجاءت في القرآن جزلة متينة، وفي الشعر ركيكة ضعيفة... أما الآية فهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ (الأحزاب ٥٣). وأما بيت الشعر، فهو قول أبي الطيب المتنبي:

تلذ له المروعة، وهى تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام

وهذا البيت من أبيات المعانى الشريفة، إلا أن لفظة تؤذى قد جاءت فيه وفي آية القرآن، فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها، وحسن موقعها فى تركيب الآية... وهذه اللفظة التى هى تؤذى إذا جاءت فى الكلام، فىنبغى أن تكون مندرجة مع ما يأتى بعدها، متعلقة به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ وقد جاءت فى قول المتنبي منقطعة، ألا ترى أنه قال: تلذ له المروعة وهى تؤذى، ثم قال: ومن يعشق يلذ له الغرام، فجاء بكلام مستأنف، وقد جاءت هذه اللفظة بعينها فى الحديث النبوى، وأضيف إليها كاف الخطاب، فأزال ما بها من الضعف والركة، قال: «باسم الله أرقبك، من كل داء يؤذيك»^(١). وكذلك ورد فى القرآن الكريم، ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، لفظة (لى) أيضاً مثل لفظة يؤذى، وقد جاءت فى الآية مندرجة متعلقة بما بعدها، وإذا جاءت منقطعة لا تجيء لاثقة، كقول أبي الطيب أيضاً:

تمسى الأمانى صرعى دون مبلغه فما يقول لشىء: لىبت ذلك لى^(٢)

وهنا من هذا النوع لفظة أخرى، قد وردت فى القرآن الكريم، وفى بيت من شعر الفرزدق، فجاءت فى القرآن حسنة، وفى بيت الشعر غير حسنة، وتلك اللفظة هى لفظة القمل، أما الآية فقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ (الأعراف ١٣٣). وأما بيت الشعر فقول الفرزدق:

من عزه احتجرت كليب عنده زرياً، كأنهم لديه القمل

وإنما حسنت هذه اللفظة فى الآية دون هذا البيت من الشعر؛ لأنها جاءت فى الآية مندرجة فى ضمن كلام، ولم ينقطع الكلام عندها، وجاءت فى الشعر قافية

(٢) المرجع السابق: ص ٥٨.

(١) المثل السائر: ص ٥٧.

أى آخرًا انقطع الكلام عندها، وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم، غصنا في بحر عميق لا قرار له، فمن ذلك هذه الآية المشار إليها، فإنها قد تضمنت خمسة ألفاظ، هي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هي: الطوفان، والجراد، والدم، فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قدم منها لفظتا الطوفان، والجراد، وأخرت لفظة الدم آخرًا، وجعلت لفظة القمل والضفادع في الوسط؛ ليطرق السمع أولاً الحسن من الألفاظ الخمسة، وينتهي إليه آخرًا، ثم إن لفظة الدم أحسن من لفظتي الطوفان، والجراد، وأخف في الاستعمال، ومن أجل ذلك جيء بها آخرًا، ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية^(١).

وقال ابن سنان الخفاجي، معلقًا على قول الشريف الرضي:

أعزز على بأن أراك وقد خلت عن جانبيك مقاعد العواد

إيراد مقاعد في هذا البيت صحيح، إلا أنه موافق لما يكره في هذا الشأن، لاسيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليهم، وهم العواد، ولو انفرد، كان الأمر فيه سهلاً، فأما إضافته إلى ما ذكره ففيها قبح لا خفاء به^(٢). وابن سنان يشترط لفصاحة الكلمة ألا يكون قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره^(٣)، قال ابن الأثير: وقد جاءت هذه اللفظة المعيبة في الشعر في القرآن الكريم فجاءت حسنة مرضيه، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ (ال عمران ١٢١). وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاَهَا مَائِلَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا﴾ (الجن ٨، ٩). ألا ترى أنها في هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافته إليه، كما جاءت في الشعر، ولو قال الشاعر بدلا من مقاعد العواد، مقاعد الزيادة، أو ما جرى مجراه، لذهب ذلك القبح، وزالت تلك الهجنة، ولذا جاءت هذه اللفظة في الآيتين على ما تراه من الحسن، وجاءت على ما تراه من القبح، في قول الشريف الرضي^(٤).

ومن ذلك استخدام كلمة شيء، ترجع إليها في القرآن الكريم، فترى جمالها في مكانها المقسوم لها. واستمع إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ (الكهف ٤٥). وقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور ٣٥). وقوله

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) سر الفصاحة: ص ٧٩.

(٣) المرجع السابق: ص ٧٨.

(٤) المثل السائر: ص ٧١.

تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس ٤٤). إلى غير ذلك من عشرات الآيات التي وردت فيها تلك اللفظة، وكانت متمكنة في مكانها أفضل تمكن وأقواه، ووازن بينها في تلك، وبينها في قول المتنبي يمدح كافوراً:

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شيء عن الدوران

فإنك تحس بقلقها في بيت المتنبي، ذلك أنها لم توح إلى الذهن بفكرة واضحة، تستقر النفس عندها وتطمئن، فلا يزال المرء بعد البيت يسائل نفسه عن هذا الشيء، الذي يعوق الفلك عن الدوران، فكأن هذه اللفظة لم تقم بنصيبها في منح النفس الهدوء الذي يغمرها، عندما تدرك المعنى وتطمئن إليه.

ولم يزد مرور الزمن بألفاظ القرآن إلا حفظاً لإشراقها، وسياجاً لجلالها، لم تهن لفظة ولم تتخل عن نصيبها، في مكانها من الحسن، وقد يقال: إن كلمة الغائط من قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (المائدة ٤٣). قد أصابها الزمن، فجعلها مما تنفر النفس من استعمالها، ولكننا إذا تأملنا الموقف، وأنه موقف تشريع وترتيب أحكام، وجدنا أن القرآن عبر أكرم تعبير عن المعنى، وصاغه في كناية بارعة، فمعنى الغائط في اللغة المكان المنخفض، وكانوا يمشون إليه في تلك الحالة، فتأمل أي كناية تستطيع استخدامها مكان هذه الكناية القرآنية البارعة، وإن شئت أن تتبين ذلك، فضع مكانها كلمة تبرزتم، أو تبولتم، لترى ما يثور في النفس من صور ترسمها هاتان الكلمتان، ومن ذلك كله ترى كيف كان موقع هذه الكناية يوم نزل القرآن، وأنها لا تزال إلى اليوم أسمى ما يمكن أن يستخدم في هذا الموضوع التشريعي الصريح.

الفاصلة (*)

نعنى بها تلك الكلمة التي تختم بها الآية من القرآن، ولعلها مأخوذة من قوله سبحانه: ﴿كَتَابٌ فَضَّلْتَ آيَاتَهُ قُرْآنًا غَرِيبًا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت ٣). وربما سميت بذلك؛ لأن بها يتم بيان المعنى، ويزداد وضوحه جلاء وقوة، وهذا لأن التفصيل فيه توضيح وجلاء وبيان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُضِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ (فصلت ٤٤). فمكانة الفاصلة من الآية مكانة القافية من البيت، إذ تصبح الآية لبنة متميزة في بناء هيكل السورة.

(*) رجعت في كثير من هذا الفصل إلى كتاب الإتيان.

وتنزل الفاصلة من آيتها، تكمل من معناها، ويتم بها النغم الموسيقي للآية، فنراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم وحروف المد، وتلك هى الحروف الطبيعية فى الموسيقى نفسها، قال سيبويه: إن العرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون، لأنهم أرادوا مد الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا.

وتأتى الفاصلة فى القرآن مستقرة فى قرارها، مطمئنة فى موضعها، غير نائرة ولا قلقة، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها، تعلقاً تاماً، بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم، فهى تؤدى فى مكانها جزءاً من معنى الآية، ينقص ويختل بنقصانها، وهاك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ (البقرة ٢-٧). ترى الآية قد كمل معناها بالفاصلة، وأن الفاصلة قامت بأداء نصيبها منه.

وقد يشتد تمكن الفاصلة فى مكانها، حتى لتوحي الآيات بها، قبل نطقها، كما روى عن زيد بن ثابت أنه قال: أملى على رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ (المؤمنون ١٢، ١٣، ١٤). وهنا قال معاذ بن جبل: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: بها ختمت^(١) - وحتى ليأبى قبولها، والاطمئنان إليها، من له ذوق سليم، إذا غيرت وأبدل بها سواها، كما حكى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: «فإن زلتم من بعد ما جاء تكلم البيئات فاعلموا أن الله غفور رحيم»، ولم يكن يقرأ القرآن، فقال: إن كان هذا كلام الله فلا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه^(٢)، والآية إنما ختمت بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وسواء أصح ذلك أم لم يصح، فإننا نشعر هنا بما بين الفاصلة والآية، من ارتباط لا ينفصم.

خذ مثلاً تلك الآيات التى تنتهى بوصفه سبحانه بالحكمة، تجد فيها ما يناسب تلك الحكمة ويرتبط بها، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِضْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ أَنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة ٢٢٠). ألا ترى المقام وهو مقام تشريع وتحذير

(٢) المرجع السابق: ص ١٠١.

(١) الإتيان: ص ١٤.

يستدعى عزة المحذر، وحكمة المشرع. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ (البقرة ٣١، ٣٢). فالمقام هنا مقام للتعليم، ووضع هذا التعليم فى موضع دون سواه، فناسب ذلك وصفه تعالى بالعلم والحكمة. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (ال عمران ٦). فالتفرد بالألوهية، والتصرف المطلق فى اختيار ما يشاء، ثم تصوير الجنين على صورة خاصة، كل ذلك يناسب وصفه تعالى بالعزة والحكمة. وقوله تعالى: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)﴾ (ال عمران: ١٢٥، ١٢٦). فإمداد المؤمنين بالملائكة لتطمئن قلوبهم من نعم حكيم، يمهد للمسببات بأسبابها، والنصر لا يكون إلا من عزيز يهبه لمن يشاء. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾ (الأنفال: ٧٠، ٧١). فهو عليم بخيانتهم، حكيم فى التمكين منهم.

وربما احتاج الأمر إلى إمعان وتدبر، لمعرفة سر اختتام الآية بهذا الوصف، ويبدو أن ختمها بسواه أولى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة ١١٨). فقد يبدو بادئ ذى بدء أن قوله: وإن تغفر لهم، يحتم أن تكون الفاصلة الغفور الرحيم، ولكن تأملا هادئا يهدى إلى أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد، يرد عليه حكمه، فهو عزيز غالب، وحكيم يضع الشيء فى موضعه، وقد يخفى وجه الحكمة على الناس فيما يفعل، فيتوهم أنه خارج عن الحكمة، وليس كذلك، فكان الوصف بالحكيم احتراسا حسنا، أى وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب، فلا اعتراض لأحد عليك فى ذلك، والحكمة فيما فعلته، ونظير ذلك قوله تعالى فى سورة التوبة: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ٧١). وفى سورة الممتحنة: ﴿وَاعْفُرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الممتحنة ٥). وفى سورة غافر: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (غافر ٨). وفى سورة النور: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (النور ١٠). فقد يكون من المناسب فى بادئ الرأى أن يوصف سبحانه هنا بتواب رحيم؛ لأن الرحمة

مناسبة للتوبة، لكن التعبير بالحكمة هنا، إشارة إلى حكمته سبحانه في مشروعية اللعان، الذي سن أحكامه، في هذه السورة^(١).

وخذ الآيات التي تنتهي بوصفه تعالى بالعلم، أو بالقدرة، أو بالحلم، أو بالغفران، تجد المناسبة في ذلك الختم واضحة جلية، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمَهُ﴾ (البقرة ١١٥). فهو يعلم بما يجري في المشرق والمغرب، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة ١٢٧). السميع لنجواننا، والعلیم بما تضمه أفئدتنا من الإخلاص لك، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلَّذِينَ وَالِ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٠، ١٨١). فهو سميع بما تم من وصية وعلیم بمن يبذلها. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ بَاصِرٍ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النحل ٧٧). فالمجىء بالساعة في مثل لمح البصر أو أقرب، يستدعي القدرة الفائقة، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بَأْنُ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الحج ٦). فإحياء الموتى يحتاج كذلك إلى قدرة خارقة، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ - لا ريب - يقدر على كل شيء. وربما خفي الأمر في الختم بأحد هذين الوصفين، كما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٩). وفي آل عمران: ﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُونَ يَغْلِبْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران ٢٩). فإن المتبادر إلى الذهن في آية البقرة الختم بالقدرة، وفي آية آل عمران الختم بالعلم، ولكن لما كانت آية البقرة عن خلق الأرض وما فيها، على حسب مصلحة أهلها ومنافعهم، وخلق السموات خلقاً مستويا محكما من غير تفاوت، والخالق على هذا النسق يجب أن يكون عالما بما فعله، كلياً وجزئياً، مجملاً ومفصلاً، ناسب ذلك ختمها بصفة العلم، ولما كانت آية آل عمران مسوقة للوعيد، وكان التعبير بالعلم فيها، يراد به الجزاء بالعقاب والثواب، ناسب ختمها بصفة القدرة القادرة على هذا الجزاء^(٢).

واقرأ قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٢٥). تجد مناسبة الغفران والحلم لعدم المواخذة على

(٢) المرجع السابق نفسه.

(١) الإتيان ج ٢ ص ١٠٢.

اللغو فى الإيمان، واضحة قوية. وقوله تعالى: ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَمَغْفِرَةً خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٦٣). فالله غنى عن هذه الصدقة المتبوعة بالأذى، وحليم لا يعجل العقوبة، فربما ارتدع هذا المتصدق المؤذى. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَمَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة ١٥٥). فالعفو عن هؤلاء الذين استزلهم الشيطان، يناسبه وصف الله بالغفور الحليم أتم مناسبة، وقد يخفى وجه الوصف بذلك فى بعض الآيات، كما فى قوله سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء ٤٤). فحتم الآية بالحلم والمغفرة عقب تسبيح الأشياء غير ظاهر فى بادئ الرأى، ولكن لما كان كل شىء فى السموات والأرض يسبح بحمد الله، ويشير إليه، ويدل عليه، كان من الغفلة التى تستحق العقوبة ألا نفقه دلالة هذه المخلوقات على الخالق، فناسب ذلك وصفه بالحلم والغفران، حين لم يعاجل هؤلاء الغافلين بالعقاب.

واقراً قوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود ٨٧). وصفوه بالحلم أى العقل، الذى لا يتناسب فى زعمهم مع دعوته إياهم إلى ترك عبادة ما كان آباؤهم يعبدون، ووصفوه بالرشد الذى يتنافى فى زعمهم كذلك، مع دعوته إياهم إلى ترك تصرفهم فى أموالهم، كما كانوا يتصرفون، فقد ناسبت الفاصلة معنى الآية كما رأيت.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢٦) أو لم يروا أنا سوق الماء إلى الأرض الجرز^(١) فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون^(٢)﴾ (السجدة ٢٦، ٢٧). ختمت الآية الأولى بـ ﴿يسمعون﴾، لأن الموعظة فيها مسموعة، وهى أخبار من قبلهم من القرون، وختمت الثانية بـ ﴿يبصرون﴾: لأن الموعظة فيها مرئية من سوق الماء إلى الأرض الجرز، وإخراج الزرع وأكل النبات^(٣).

وقوله تعالى: ﴿لَا تَذَرِكُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام ١٠٣). ختمت الآية باللطيف، وهو يناسب ما لا يدرك بالبصر، وبالخبير، وهو يناسب ما يدرك الأبصار^(٣).

وقد تجتمع فواصل متنوعة، بعدما يكاد يتشابه، لحكمة فى هذا التنوع، ومن

(٢) الإتيان ج ٢ ص ١٠١.

(١) الأرض التى لا تثبت أو أكل نباتات.

(٣) المرجع السابق نفسه.

ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالرِّبْضَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)﴾ (النحل ١٠-١٢).

ختمت آية بـ ﴿يتفكرون﴾، لما أن الاستدلال بإنبيات الزرع، والثمر، على وجود الله وقدرته، يحتاج إلى فضل تأمل، يرشد إلى أن حدوث هذه الأنواع، يحتاج إلى إله قادر، يحدثه، فناسب ذلك ختم الآية بما ختمت به، وانتهت الثانية بـ ﴿يعقلون﴾، لما أن تسخير الليل والنهار لخدمة الإنسان، فيرتاح ليلا ويعمل نهاراً، وتسخير الشمس، والقمر، والنجوم، فتشرق وتغرب في دقة ونظام تامين، يحتاج إلى عقل يهدى إلى أن ذلك لا بد أن يكون بيد خالق مدبر، فختمت الآية بـ ﴿يعقلون﴾، وختمت الآية الأخيرة بـ ﴿يذكرون﴾؛ لأن الموقف فيها يستدعي تذكر ألوان مختلفة بثها الله في الأرض، للموازنة بين أنواعها، بل الموازنة بين أصناف نوع منها، فلا يلهيهم صنف عن سواه، ولا يشغلهم نوع عن غيره، وهذه الموازنة تفضي إلى الإيمان بقدره الله، خالق هذه الأنواع المختلفة المتباينة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ (الأنعام ١٥١-١٥٣).

قال صاحب الإتيان^(١): فإن الأولى ختمت بقوله ﴿لعلكم تعقلون﴾، والثانية بقوله ﴿لعلكم تذكرون﴾، والثالثة بقوله ﴿لعلكم تتقون﴾، لأن الوصايا التي في الآية الأولى، إنما يحمل على تركها عدم العقل، الغالب على الهوى؛ لأن الإشراك لعدم استكمال العقل، الدال على توحيده، وعظمته، وكذلك عقوق الوالدين لا يقتضيه العقل، لسبق إحسانهما، إلى الولد بكل طريق، وكذلك قتل الأولاد بالوآد من الإملاق، مع وجود الرزق الحى الكريم، وكذلك إتيان الفواحش لا يقتضيه عقل، وكذا قتل النفس لغيظ أو غضب في القاتل، فحسن بعد ذلك يعقلون.

(١) ج ٢ صفحة ١٠٢.

وأما الثانية فتعلقها بالحقوق المالية، والقولية، فإن من علم أن له أيتاماً، قد يخلفه عليهم غيره من بعده، لا يليق به أن يعامل أيتام غيره، إلا بما يحب أن يعامل به أيتامه، ومن يكيل، أو يزن، أو يشهد لغيره، لو كان ذلك الأمر له، لم يحب أن يكون فيه خيانة، وكذا من وعد لو وعد، لم يحب أن يخلف، ومن أحب ذلك عامل الناس به ليعاملوه بمثله، فترك ذلك إنما يكون لغفلة عن تدبره وتأمله، فلذلك ناسب الختم بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وأما الثالثة فلأن ترك اتباع شرائع الله الدينية مؤد إلى غضبه، وإلى عقابه، فحسن: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى عقاب الله.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الشُّجُومَ لَتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْذَعٌ مُسْتَوْذَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مَتْرَاقِيًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ ثَلْحُلٍ مِنْ طَلْحِهَا قِثْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَغْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾ (الأنعام ٩٧ - ٩٩). ختمت الآية الأولى بالعلم، لأن الاهتداء بالنجوم فى ظلمات البر والبحر مما يختص به العلماء، فكان إدراك هذا الفضل آية يستدلون بها على وجود الله وقدرته، وختمت الآية الثانية بالفقه؛ لأن إدراك إنشاء الخلائق من نفس واحدة، وتنقلهم فى الأصلاب والأرحام، مما يحتاج إلى تدبر وتفكر، ناسبه ختم الآية بيفقهن، إذ الفقه فهم الأشياء الدقيقة، وتحدثت الآية الثالثة عن النعم التى أنعم الله بها على عباده: من إخراج النبات والثمار، وألوان الفواكه، فناسب ختمها بالإيمان، الداعى إلى شكره تعالى على نعمه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢)﴾ (الحاقة ٤١، ٤٢). فختم الأولى بـ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن مخالفة القرآن لنظم الشعر ظاهرة واضحة، فمن قال إنه شعر كان كافراً ومعانداً عناداً محضاً، فكان من المناسب ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾، أما مخالفة القرآن لنظم الكهان فمما يحتاج إلى تدبر وروية، لأن كلا منها نثر، فليست مخالفته له فى وضوحها لكل أحد كمخالفة الشعر، ولكنها تظهر بتدبر ما فى القرآن من بلاغة رائعة ومعان أنيقة، فحسن لذلك ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾^(١).

ومما يجمل إيراده هنا أن تختلف الفاصلتان فى موضعين، والمتحدث عنه واحد فيهما، وذلك كقوله تعالى فى سورة إبراهيم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا

(١) الإفتان ج ٢ ص ٢٠٢.

تُخْضَوَهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿١٧﴾ (إبراهيم ٣٤). وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُخْضَوَهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ (النحل ١٧، ١٨). والمتأمل يجد سر هذا الاختلاف، أن القرآن راعى مرة موقف الإنسان من نعم الله، فهو ظلوم كفار، وأخرى مقابلة الله سبحانه نكران الجميل والظلم والكفر بالنعم، بالغفران والرحمة، وكان ختام الآية الأولى بما ختمت به، لأنها كانت في معرض صلة الإنسان بالله، وكانت الثانية في معرض الحديث عن الله، فناسب ختم الآية بذكر صفاته.

ونظير ذلك قوله سبحانه في سورة الجاثية: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ (الجاثية ١٤، ١٥). كررت هذه الآية في سورة فصلت، وختمت بفاصلة أخرى، إذ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت ٤٦). ولعل سر ذلك أن الآية الأولى جاء قبلها حديث عن منكرى البعث، فناسب ختم الآية بالحديث عنه، أما الآية الثانية فناسب ختمها معناها: من جزاء كل بما يستحق؛ ونظير هذا أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء ٤٨). وقال مرة أخرى في السورة نفسها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء ١١٦). ونستطيع أن نلتمس سر هذا الاختلاف في أن الآية الأولى وردت في حديث عن اليهود الذين افتروا على الله الكذب، مما ناسب أن تختم الآية بالافتراء، الذي اعتاده اليهود، وهم أهل الكتاب. أما الآية الثانية فقد وردت في حديث عن المشركين، وهم في إشراكهم لا يفترون، ولكنهم ضالون ضلالاً بعيداً.

وقد تكون المخالفة لتعدد الأوصاف وإثباتها، حتى تستقر في النفس، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة ٤٤). فقد كررها قائلاً: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة ٤٥). وقال مرة ثالثة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة ٤٧). يريد أن يبين أن من لم يحكم بما أنزل الله سائر لما أنزله الله، ظالم لنفسه، فاسق بهذا الستر.

وقد يتشابه المقامان في الهدف والغاية فتتحد الفاصلة فيهما كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْفُؤْا الْحِلْمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَصُومُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحِلْمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ (النور ٥٨، ٥٩). فالآيتان في الاستئذان، وقد ختمتا بفاصلة متحدة. واتحدت الفاصلة في قوله سبحانه: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)﴾ (البقرة ٨١، ٨٢). للموازنة بين خلودين، أحدهما في الجنة، والآخر في السعير.

وقد تحدث العلماء عما يكون في الآية مما يشير إلى الفاصلة، ويسمون ذلك تصديراً وتوشيحاً، أما التصدير فأن تكون اللفظة قد تقدمت مادتها في الآية، ودعوه رد العجز على الصدر، ومثلاؤه بقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةَ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء ١٦٦). وقوله تعالى: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران ٨). وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الأنعام ١٠). وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (الاسراء ٢١). وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَآ تَتَّقُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَاحِكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ﴾ (طه ٦١). وقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (نوح ١٠).

وفى ذلك وشبهه ما يدل على التحام الفاصلة بالآية التحاماً تاماً، يستقر في النفس وتتقبله أعظم قبول. وحيناً يظن أن الآية تهى لفاصلة بعينها، ولكن القرآن يأتي بغيرها، إثارة لما هو أصدق بالمعنى، وأشد وفاء بالمراد. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة ٦٧). فربما وقع في النفس أن الفاصلة ترتبط بالاستهزاء، وتتصل به، ولكنها جاءت تبرؤاً من الجهل. وفى ذلك إشارة إلى أن الاستهزاء بالناس جهل وسفه، لا يليق أن يصدر من عاقل ذى خلق. أما ما سموه توشيحاً، فهو أن يكون معنى الآية مشيراً إلى هذه الفاصلة، ومثلاؤه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران ٣٣). فإن الاصطفاء يكون من الجنس، وجنس هؤلاء المصطفين، هو العالمون، ويقول تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (يس ٣٧). هذه الفواصل لها قيمتها في إتمام المعنى، وهى مرتبطة - كما رأينا - بأياتها تمام الارتباط، ولها أثرها الموسيقى فى نظم الكلام، ولهذه الموسيقى أثرها فى النفس، وأسلوب القرآن فيه هذه الموسيقى المؤثرة، ومن أجلها حدث فى نظم الآى

ما يجعل هذه المناسبة أمراً مرعيًا، وتجد بعض ذلك في كتاب الإتيان^(١)، ومن ذلك إيثار أغرب اللفظين نحو ﴿قِسْمَةٌ ضِيْرِي﴾ وقد أحسن ابن الأثير توجيه هذه اللفظة إذ قال^(٢): «إنها في موضعها لا يسد غيرها مسدها؛ ألا ترى أن السورة كلها - التي هي سورة النجم - مجموعة على حرف الياء فقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾ (النجم ٢، ١). وكذلك إلى آخر السورة. فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد، وما كان يزعمه الكفار، قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيْرِي (٢٢)﴾ (النجم ٢١، ٢٢). فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه، وغيرها لا يسد مسدها في مكانها.

وإذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا: إن غير هذه اللفظة أحسن منها، ولكنها في هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها، ولا مناسبة؛ لأنها تكون خارجة عن حروف السورة، وسأبين ذلك فأقول: إذا جئنا بلفظة في معنى هذه اللفظة، قلنا: (قسمة جائرة أو ظالمة) ولاشك أن (جائرة، أو ظالمة) أحسن من ﴿ضِيْرِي﴾، إلا أنا إذا نظمنا الكلام، فقلنا: «ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة جائرة، لم يكن النظم كالنظم الأول، وصار الكلام كالشيء المعوز، الذي يحتاج إلى تمام، وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام»، هذا وإن غرابة هذه اللفظة من أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة.

وقد يشتد التقارب الموسيقى في الفواصل، حتى تتحد الفاصلتان في الوزن والقافية، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤)﴾ (الغاشية ١٣، ١٤). وقوله: ﴿إِنَّا إِلَيْنَا يَأْتِبُهُم (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)﴾ (الغاشية ٢٥، ٢٦). وقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ (الانفطار ١٣، ١٤). وقد تختلفان في الوزن، ولكنهما تتقاربان في حروف السجع، كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤)﴾ (نوح ١٣، ١٤). وقد تتساوى الفاصلتان في الوزن دون التقفية، كقوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾ (الغاشية ١٥، ١٦). وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨)﴾. (الصافات ١١٧، ١١٨).

وقد تختلفان وزنا وقافية، ولكنهما تتقاربان، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ (الفاتحة ٣، ٤). وقوله: ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢)﴾ (ق ١، ٢).

ويسمى العلماء الفواصل المتفقة في الحرف الأخير متماثلة، وما عداها

(٢) المثل السائر ص ٦٢.

(١) ج ٢ ص ٩٩.

مقاربة، ولا تخرج الفواصل عن هذين النوعين أبدًا، وقد تنتهي السورة بفاصلة منفردة تكون كالمقطع الأخير، كقوله تعالى في ختام سورة الضحى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ (الضحى ٩ - ١١).

وقد تتفق الفاصلتان لا في الحرف الأخير فحسب، ولكن في حرف قبله، أو أكثر، من غير أن يكون في ذلك كلفة ولا قلق، بل سلاسة ولين وجمال، مثال التزام حرف قوله تعالى: ﴿الْمَ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾ (الشرح ١ - ٤). وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠)﴾ (الضحى ٩، ١٠). وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (١٦)﴾ (التكوير ١٥، ١٦). وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨)﴾ (الانشقاق ١٧، ١٨).

ومثال ما اتفقا في حرفين، قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢)﴾ (الطور ١، ٢). وقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْتُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣)﴾ (القلم ٢، ٣). وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨)﴾ (القيامة ٢٦ - ٢٨). ومثال التزام ثلاثة أحرف قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾ (الأعراف ٢٠١، ٢٠٢).

وأنت ترى في كل ما التزم فيه حرف أو أكثر أنه طبيعي لا تكلف فيه.

هذا وإذا كانت الفاصلة في الآية كالقافية في الشعر، فقد رأينا فيما سبق بعض ما تختلف فيه الفاصلة عن القافية، حينما تتقارب الفواصل ولا تتماثل، كما أنه من المعيب في الشعر أن تتكرر القافية، قبل سبعة أبيات، وليس ذلك بعيب في الفاصلة. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَّرُونَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١)﴾ (مریم ٨٨ - ٩١).

الغريب

نقصد بالغريب ما قل دورانته على الألسنة، فلم يستعمله الخطباء ولا الشعراء استعمال غيره من الألفاظ، ويحوى القرآن الكريم عددًا منه، فكان العرب في عصر نزول القرآن، يمشون إلى كبار الصحابة، يسألونهم عن معاني هذه الألفاظ الغريبة، فيجيبونهم ويقربون لهم هذه المعاني، مستشهرين بأبيات الشعر، والواقع أن قدرة الصحابة على فهم نصوص القرآن لم تكن في درجة واحدة:

(٢) جمع.

(١) الكواكب السيارة.

فكان منهم المثقف ثقافة أدبية ممتازة، ولم يكن ما نسميه الآن غريباً، بغريب عند هؤلاء الذين تحداهم القرآن، فلم يكن استخدامه حينئذ معيباً ولا مستكرهاً، ومثال ذلك استعمال عباقرة الشعراء ألفاظاً يعرفها جمهور المتأدبين، ويتذوقون جمالها، وإن كانت غير دائرة على السنة العامة، فلا يعاب الشاعر على هذا الاستخدام، ولا ينقص ذلك من قدر كلامه، بل يضع أدبه في مستوى الأدب الرفيع، الذي هدره وتدرک قيمته الصفوة الممتازة من الأدباء.

ومما يدل على أن القرآن يؤثر رفعة الأسلوب أنه يفضل أحياناً كلمة أدبية، على أخرى شائعة عامية، فتراه يستخدم ﴿إِلْحَافًا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أُغْيَاءً مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (البقرة ٢٧٣). مكان «إلحاحاً» وربما كان لتكرير الحاءين في الكلمة أثر في الإعراض عنها، وليس ذلك بعجيب على كتاب نزل، ليتحدى أبلغ البلغاء، مستخدماً أجمل وأرقى ما يعرفونه من الألفاظ.

وينبغي أن نقرر أن ما نسميه اليوم غريب القرآن، قد برئ من الثقل على اللسان، والكراهة على السمع، والقرآن الكريم لا يستخدم هذا النوع من الألفاظ إلا قليلاً، وليس كل ما ذكره المؤلفون في القرآن مما يندرج في هذا النوع، بل يضعون فيه كل ما يرتفع قليلاً عن مستوى العام الشائع، فتجد السجستاني مثلاً يعد منه كلمات «انفصام، وإسرافاً، وادرعوا، وإعصار»^(١)، وليس ذلك بغريب.

أما ما نعهده اليوم غريباً فعدد محدود من الكلمات، مثل ﴿قَضْبًا﴾ و﴿أَبًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَبْنَا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غَلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١)﴾ (عبس ٢٥-٣١). والقضب: القث، والأب ما ترعاه الأنعام، ويقال: الأب للبهائم كالفاكهة للناس^(٢)، وقد جاءت الكلمتان فاصلتين محافظتين أقوى محافظة على النغم الموسيقي، كما أن الكلمة الثانية استخدمت في معناها الدقيق.

وعلى هذا الوجه جاءت ﴿إِدًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ (مريم ٨٩). بمعنى الأمر العظيم.

وقد يكون ما يحيط بالكلمة دالا على معناها، كما نجد ذلك في «أزكس» في قوله تعالى: ﴿كَلِّمًا رُذِّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أَرْكَسُوا فِيهَا﴾ (النساء ٩١). وفي ﴿أَكِنَّة﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (الأنعام ٢٥). و﴿أمتاً﴾ بمعنى ارتفاعاً وهبوطاً^(٣) من قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ و ١٨٠.

(١) غريب القرآن ص ٣٦ و ٣٧.

(٣) المرجع السابق ص ١٧.

صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) ﴿طه ١٠٥-١٠٧﴾. و﴿أَلْتَأْتِ﴾ بمعنى نقصنا، من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلْتَأْتُهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور ٢١). ويكاد يكون هذا الأمر مبدأ عاماً في معظم ما نسميه اليوم بالغريب، فهو مع قلته يحاط بما يشير إلى معناه، وقد يتولى القرآن نفسه تفسير ما يرد من تلك الألفاظ، ويكون ذلك في موضع الترهيب والزجر، أو الوعد بالخير، فيكون النطق بهذه الكلمة الغريبة، مثيراً في نفس سامعها السؤال عنها، والتنبيه القوي لمعناها، حتى إذا جاء هذا المعنى استقر في النفس، فملاًها خوفاً، أو غمراً بالبهجة والحبور، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿سَأُصَلِّيهُ سَقَرًا (٢٦) وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرٌ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاحِيَةٌ لِّبَشِيرٍ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا (٣١)﴾ (المدر ٢٦-٣١). وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَذْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَنِیلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١)﴾ (المطففين ٧-١١). ومثله قوله سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنِ (١٨) وَمَا أَذْرَاكَ مَا عِلِّيُونُ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١)﴾ (المطففين ١٨-٢١).

ولعل من وجوه بلاغة استخدام هذه الألفاظ الأدبية التي لم تشع على الألسنة إلا قليلاً، ما نراه من اختيار ما حسن وقعه على الأذن، وجريه على اللسان منها، ثم في وضعه حيث لا يغني غيره من الألفاظ غناءه، لئتناسب موسيقاه، أو لأنه يؤدي المعنى الدقيق دون سواه، وفي ذلك من براعة الاستعمال ما لا نجده في الألفاظ المستعملة الشائعة.

وإذا أردت أن تعرف ما عده العلماء من غريب القرآن، فارجع إلى مؤلف السجستاني، وإلى كتاب الإتقان (ج ١ ص ١١٥) وفيهما تفسير هذا الغريب، وفي الإتقان أبيات الشعر، التي استشهد بها على معاني ما ورد في القرآن من هذه الألفاظ.

المعرب

واستخدم القرآن ألفاظاً تكلمت بها العرب، وأدخلتها في لغتها، وإن كانت في أصلها ليست من اللغة العربية، وقد صقلتها العرب بألسنتها، وشذبتها، وربما تكون قد غيرت بعض حروفها، أو أسقطت بعضها، وإذا أدخلت العرب هذه الألفاظ، استغنت بها غالباً عن أن تضع ألفاظاً في معناها.

ومن هذه الكلمات المعربة التي استخدمها القرآن، وهي في جملتها طائفة قليلة، كلمة ﴿إبريق﴾^(١) في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ (١٨)﴾ (الواقعة ١٧-١٨). وكلمات ﴿إستبرق﴾، و﴿زنجيلاً﴾، و﴿سندس﴾، و﴿سلسيل﴾^(٢)، في قوله سبحانه: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا

(١) المعرب للجواليقي ص ٢٣. (٢) المرجع السابق ص ١٥ و ١٧٤ و ١٧٧ و ١٨٩ على التوالي.

زَنَجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا (٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خَصْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوعًا أُسَورٌ مِنْ فَضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) ﴿(الإنسان ١٧- ٢١).﴾
 ﴿كافور﴾^(١)، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (الإنسان ٥). و﴿الفردوس﴾^(٢) فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (الكهف ١٠٧). و﴿التنوير﴾^(٣) فى الآية: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (مود ٤٠)، و﴿دينار﴾^(٤)، فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ (آل عمران ٧٥). و﴿ذراهم﴾^(٥)، فى قوله: ﴿وَتَسْرُوهُ بِشَمْنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (يوسف ٢٠). و﴿سجيل﴾^(٦) فى الآية الكريمة: ﴿وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤)﴾ (الفيل ٤، ٣). و﴿سرادق﴾^(٧)، فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا بِهَمِّ سَرَادِقِهَا﴾ (الكهف ٢٩). و﴿القسطناس﴾^(٨) فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (الإسراء ٣٥). و﴿الْمَجُوسُ﴾^(٩)، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الحج ١٧). وغير ذلك وقد أحصى كتاب الإتيقان^(١٠) هذه الكلمات المعربة، ولكنه عد فيها ما ليس منها، متبعًا فى ذلك بعض الآراء، مثل كلمة سيد، وابلعى، وأواب، وتحت، وغير ذلك، وربما اتفقت العربية وغيرها من اللغات السامية، فى بعض الكلمات؛ لأنها جميعها من أصل واحد وحينئذ لا يقال إن اللغة العربية قد أخذتها عن غيرها من اللغات السامية.

وليس استخدام هذه الألفاظ المعربة بمخرج القرآن عن أن يكون بلسان عربى مبين، فقد ارتضى العرب هذه الألفاظ، واستخدموها فى لغتهم، وارتضوها بين كلماتهم، وقد نزل القرآن بما ألف العرب استعماله، ليدركوا معناه، فليس غريبًا أن يتخذ من تلك الأدوات المعربة، أدوات له يؤدى بها أغراضه، ومعانيه.

ووجه البلاغة فى إثارةها، أنها تؤدى معانيها الدقيقة فى عبارة موجزة، فإن

(١) المرجع السابق ص ٢٨٥.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٠.

(٣) المرجع السابق ص ٨٤.

(٤) المرجع السابق ص ١٣٩.

(٥) المرجع السابق ص ١٨١.

(٦) المرجع السابق ص ٢٠٠.

(٧) المرجع السابق ص ٢٥١.

(٨) ج ١ ص ١٣٨.

(٩) المرجع السابق ص ٢٣٠ والقاموس مادة مجوس.

العرب لم تضع لفظاً تدل به على معنى ما عربته، فلم تعد ثمة وسيلة للتعبير عنه، سوى اختيار اللفظ المعرب، أو الإتيان بأكثر من كلمة لأداء معناه، فإذا أريد مثلاً الاستغناء عن كلمة استبرق، احتيج إلى كلمتين أو أكثر، فليل الديباج الثخين، ومادامت الكلمة المعربة خفيفة على اللسان، فهي أولى من الكلمتين، وهي متعينة حين لم يضع العرب بدلاً منها.

الزائد

أحصى النحاة ما ورد فى القرآن الكريم من كلمات زائدة، وحصروها فى خمسة عشر لفظاً: هى ﴿إِذ﴾، فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٣٠). وإذا فى قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (الانشقاق ١). أى انشقت السماء كما قال: ﴿اقتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ (الفرقان ١). وإلى، فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم ٣٧). فى رواية من قرأ تهوى، يفتح الواو. وأم، فى قوله تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٥١). أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (٥٢) ﴿(الزخرف ٥١، ٥٢). والتقدير: «أفلا تبصرون! أنا خير» وإن فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي مَا أَنْعَمْنَا عَلَيْكُمْ لِنُعْلِمَ مِنْكُمْ شَيْئًا﴾ (الأحقاف ٢٦). وأن، فى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ (العنكبوت ٣٣). وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَازْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف ٩٦). وقوله سبحانه: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا﴾ (البقرة ٢٤٦). وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ (إبراهيم ١٢). و(الباء) فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة ١٩٥). ﴿وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا﴾ (مريم ٢٥). ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ مَا يَكْبُطُ﴾ (الحج ١٥). ﴿وَمَنْ يَرُدَّ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدْفِعْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (الحج ٢٥). ﴿فَسْتَبْصِرْ وَتُبْصِرُونَ﴾ (٥) بِأَيْكُمْ

الْمُفْتُونَ ﴿٦١﴾ (القلم ٦٠). ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ (يونس ٢٧). ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ
 يَرْجِعْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة ٢٢٨). و(الفاء)، فى قوله سبحانه: ﴿هَذَا وَإِنِ لِلطَّاغِيْنَ
 لَشَرًّا مَّابٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَمِنْهَا قَبَسَ الْمُجَاهِدُ (٥٦) هَذَا فَلْيَدْوُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ (٥٧)﴾
 (مره ٥٥-٥٧). وفى، من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اذْكُبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مُجْرَاهَا وَمَتَّعَهَا﴾ (مرد ٤١).
 و(الكاف)، فى الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى ١١).
 و(اللام)، فى قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَقِصٌ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (النمل ٧٢).
 ﴿هِيَئَاتُ هِيَئَاتُ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ (المؤمنون ٣٦). ولا، فى قوله تعالى: ﴿مَا مَتَّعَكَ إِلَّا تُسْجُدًا إِذْ
 أَمَرْتُكَ﴾ (الأعراف ١٢). ﴿قَالَ يَا هَازُونَ مَا مَتَّعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) إِلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ
 أَمْرِي (٩٣)﴾ (طه ٩٢، ٩٣). وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ
 كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ
 الْكِتَابِ إِلَّا يُقَدِّرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
 الْعَظِيمِ (٢٩)﴾ (الحديد ٢٨، ٢٩). وقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (القيامة ١). وما على
 شاكلته من الآيات، وقوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ
 ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء ٦٥). وقوله تعالى: ﴿قُلْ
 تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ
 إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ
 اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام ١٥١). وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ
 جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنَبَأَ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا
 يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام ١٠٩). وقوله سبحانه: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قُرْبَىٰ أَهْلِ كِنَانَهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾
 (الأنبياء ٩٥). وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُؤْتِيَ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ
 لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ
 تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ (آل عمران ٧٩، ٨٠). وما، فى
 قوله سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضْتُمَا مِنْ
 حَوْلِكَ﴾ (آل عمران ١٥٩). و﴿فَبِمَا نَقَّضْنَاهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرْنَا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (النساء ١٥٥). وقوله
 سبحانه: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ (نوح ٢٥). ومن، فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ
 جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام ٣٤). و(الواو)، فى قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى
 الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا

خَالِدِينَ ﴿الزمر ٧٣﴾. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا وَتَلَّ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْتَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُخْسِنِينَ (١٠٥)﴾ (الصافات ١٠٣-١٠٥). ذلك ما أحصاه النحويون من حروف، قالوا: إنها زائدة وردت في القرآن، يعنون بزيادتها أنهم لا يستطيعون لها توجيهاً إعرابياً، وإن كانوا يجدونها قد أدت معانى، لا تستفاد من الجملة إذا هي حذفت، وسنقف عند كل آية نتبين فيها ما زيد وسر زيادته.

أما زيادة إذ في الآية الأولى فمما لم يرتضه ابن هشام في مغنيه^(١)، وقال صاحب الكشاف^(٢): إذ منصوبة بإضمار اذكر، ويجوز أن ينتصب بقالوا، وعليه، فليست إذ بزائدة.

وكذلك لم يرتض^(٣) زيادة إذا في الآية السابقة بل رآها شرطية حذف جوابها، لتذهب النفس في تقديره كل مذهب، أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار، ففي كلتا السورتين قد ذكر جواب إذا، فقيل في سورة التكوير في الجواب: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أَحْضَرْتَ﴾ (التكوير ١٤). وقيل في سورة الانفطار: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ﴾ (الانفطار ٥).

وقيل في توجيه آية (الى): إن تهوى بفتح الواو قد ضمنت معنى تميل^(٤)، وهو يتعدى بالى فليست على ذلك بزائدة. وأم في آيتها ليست زائدة كذلك، بل هي منقطعة بمعنى بل، وتفيد الإضراب الانتقالى، وليست إن في آيتها زائدة، بل نافية والمعنى ولقد مكناهم، في أمور لم يمكنكم فيها، والمجىء بإن هنا أفضل من المجىء بما، حذرا من التكرير اللفظى.

أما أن في الآيتين الأوليين فزائدة، جىء بها مؤذنة بتراخى حدوث الفعلين بعدها في الزمن، تراخيا عبر عنه القرآن بهذه اللفظة، ولو أن الفعل كان على الفور لاتصل الفعل بلما من غير فاصل بينهما. وأما في الآيتين الأخيرتين، فأن غير زائدة فيهما، والمعنى أى داع لنا فى ترك القتال فى سبيل الله، وفى ألا نتوكل على الله، وقد هدانا سبلنا.

والباء ليست زائدة فى الآية الأولى، فمعناها: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، أى: لا تكونوا سبباً فى هلاك أنفسكم بأفعالكم. أما فى الآية الثانية فقد ضمن ﴿هُرَى﴾ معنى أمسكى هازة، فجىء بالباء مصورة لمريم، ممسكة بجذع النخلة،

(١) ج ١ ص ١٣٤.

(٢) ج ١ ص ٥٣٣.

(٣) ج ٢ ص ٥٣٣.

(٤) معنى اللباب ج ١ ص ١٢٣.

تهزها، مبعدة هذا الجذع حيناً، ومقربة له إليها حيناً آخر. وأما الباء فى (بسبب) فعلى تضمين يمدد معنى يتصل، إذ ليس المراد مطلق مد سبب إلى السماء، بل الهدف أن يعلق المغيظ نفسه بهذا السبب، فساغ لذلك هذا التضمين ودلت الباء عليه.

وليست الباء فى (بالحداد) داخلة على المفعول به بل هو محذوف، والجار والمجرور حال من فاعل يرد، كشأن الجار والمجرور بعده، والمعنى ومن يرد فيه مراداً ما، عادلاً عن القصد، ظالماً، والإلحاد العدول عن القصد^(١) فالباء للمصاحبة لا زائدة.

وليس من الضرورى جعل الباء زائدة فى ﴿بأيكم المفتون﴾، بل من الممكن أن تكون بمعنى فى، والتقدير فى أيكم المفتون، أى سئرو ويرون فى أى الفريقين منكم يكون المجنون، أى فريق المسلمين، أم فى فريق الكافرين.

ولم يرتض ابن هشام أن تكون الباء فى (بمثلها) زائدة، بل قال: والأولى تعليق بمثلها، باستقرار محذوف، هو الخبر^(٢)؛ كما لم يرتض زيادة الباء فى بأنفسهن فى الآية الكريمة، بل قال: «فيه نظر، إذ حق الضمير المرفوع المتصل، المؤكد بالنفس، أو العين، أن يؤكد أولاً بالمنفصل، نحو قمتم أنتم أنفسكم، ولأن التوكيد هنا ضائع، إذ المأمورات بالتربص، لا يذهب الوهم إلى أن المأمور غيرهن، بخلاف قولك زارنى الخليفة نفسه^(٣)» وعلل صاحب^(٤) الكشف ذكر الأنفس هنا، فقال: «فى ذكر الأنفس تهيبج لهن على التربص، وزيادة بعث، لأن فيه ما يستنكفن منه، فيحملهن على أن يتربصن، وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن، ويغلبنهن على الطموح، ويجبرنهن على التربص».

وليست (الفاء) فى قوله سبحانه: ﴿هَذَا فَلْيُدْوُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَاقٌ﴾ (ص ٥٧). - بزائدة، بل هى آية ضمت ثلاث جمل قصيرة، يوحى قصرها الخاطف بالرهبة فى النفس، والخوف؛ فالجملة الأولى مبتدؤها مذكور حذف خبره، فكأنه قال: هذا حق ثابت لا مرأى فيه، وكأنه يشير إلى ما تقدم من قوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَمِنْ أَلْمِهَادِ﴾ (ص ٥٦). ثم فرع على ذلك العذاب الذى أعد لهم، قائلاً: ﴿فَلْيُدْوُوهُ﴾ ذاكراً ضميراً يبعث فى النفس ترقب تفسيره، ففسره بأن ما سيدوقونه حميم يحرق بحرّه، وغساق يقتل بيرده، ولم يذكر المبتدأ هنا إسراراً إلى ذكر العذاب المعد لهم. وخرجه ابن هشام^(٥) على أن خبر هذا هو حميم وغساق، لا الجملة الطلبية،

(٢) معنى اللبيب ج ١ ص ١٧٩.

(١) مدارك التنزيل ج ٣ ص ٧٦.

(٥) المرجع السابق ص ٢٤٧.

(٤) (٤) ج ١ ص ١٠٦.

وعليه فتأويل الآية: «هذا حميم وغساق، فليذوقوه» وإنما أسرع بالجملة الطلبية، تهديداً لهم، وتشفيًا منهم.

ولا وجه لزيادة «فى» من قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ اذْكَبُوا فِيهَا﴾ (مود ٤١). لأن ركوبهم كان فى السفينة. ولم ير صاحب الكشاف الكاف زائدة بل وجه الآية الكريمة بقوله: «قالوا مثلك لا يبخل، فنفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة فى ذلك، فسلكوا به طريق الكناية؛ لأنهم إذا نفوه عن مسده، وعن هو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه، ونظيره قولك للعربى: العرب لا تخفر الذمم، كان أبلغ من قولك: أنت لا تخفر، ومنه قولهم قد أيفعت لداته، وبلغت أترابه، يريدون إيفاعه وبلوغه، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله: «ليس كالله شىء»، وبين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١).

وإذا ضمنت ﴿رَدِفٌ﴾ معنى دنا، فى قوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧١) فَلَمْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٧٢) (النمل ٧١، ٧٢). لم تعد اللام زائدة، كما لا تصير اللام زائدة فى الآية التالية إذا جعلناها وما بعدها متعلقة بالفاعل المحذوف، وكان تأويل الجملة: هيهات هيهات الوقوع لما توعدون، وكان حذف الفاعل لوضوح دلالة الجملة عليه.

أما لا الواقعة بعد منع فى الآيتين فزائدة، أريد بها تصوير فعل الممتنع، فإبليس فى الآية الأولى لم يسجد، حين أمره الله، وهارون فى الثانية لم يتبع موسى، وعصى أمره. وأريد بها كذلك تصوير ما يكون من هؤلاء الكفرة، إذا استجيب لهم، ونزلت الآية التى اقترحوها، فقال تعالى: ﴿وَمَا يُشْعُرُكُمْ أَنْهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام ١٠٩). - وتصوير أمر القرية التى أهلكت، وأن من المحال عودتها فقال سبحانه: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنْهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء ٩٥). - وبيان ما يكون من هذا البشر الذى يؤتبه الله الكتاب والحكم والنبوة، فهو لا يأمر باتخاذ الملائكة والنبیین أرباباً. وتشعر فى لا وهى زائدة فى قوله تعالى: ﴿لَيْلًا يَغْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ (الحديد ٢٩). بأن أهل الكتاب هؤلاء، لن يتدبروا الأمر تدبراً يؤدى بهم إلى الإيمان، وأن علمهم حينئذ سيكون كلا علم، فكأنهم لم يعلموا.

وأما لا الواردة فى القسم القرآنى، فإنها مزيدة توطئة للنفى بعده، وتوكيداً له، كما فى قوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء ٦٥). وذلك مستفيض فى أشعارهم، كقول امرئ القيس:

(١) الكشاف ص ٣٨٨ ج ٢.

فلا وأبيك ابنة العامري لا يدعى القوم أنسى أفر
ومنها ما كان للنفي تعظيماً للمقسم به، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ
النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَغْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ (الواقعة ٧٥، ٧٦). وليس ذلك بمانع من أن
تكون هذه الصيغة مؤكدة لما يذكر بعدها.

أما الآية الكريمة: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام ١٥١). فنظرة إليها
تريك أنه لم يذكر فيها المحرم، وإنما ذكر فيها ما أمروا به، من عدم الشرك بالله،
والإحسان إلى الوالدين، إلى غير ذلك، فكان المحرم عليهم ضد هذا الذي ذكره،
فليست لا زائدة بل هي للنفي، والجملة متسقة مع ما تلاها.

وما ليست زائدة في الآيات الثلاث الواردة، بل هي نكرة تامة بمعنى شيء،
وما بعدها بدل كل منها، والمجيء بهذه النكرة متصلة بحرف الجر، وهي تبعث
في النفس معنى مبهماً، ليزداد الشوق إلى معرفة معناها، حتى إذا ورد استقر في
النفس واطمأنت إليه. ولا يكون ذلك إلا حيث يكون الكلام مرتبطاً بأمر عظيم،
كالرحمة التي ألانت قلب الرسول، والخطيئات التي أغرقتهم فأدخلوا بها النيران،
ونقض الموثيق التي كانت سبب ما يعانونه من اللعنة وسوء المصير.

أما من في الآية الكريمة فاسم بمعنى بعض. والواو في الآيتين ليست بزائدة،
وجواب إذا ولما محذوف ترك إلى النفس إدراكه، حتى كأن العبارة لا تفي
بالدلالة عليه.

ومن كل ذلك يبدو أن ما يمكن عده زائداً، إنما هو حروف نادرة، جيء بها
لأغراض بلاغية، وفت بها هذه الحروف الزائدة، ويظهر أن تسميتها زائدة معناها
أنها لا يرتبط بها حكم إعرابي، لا أنها لم تؤد في الجملة معنى.

وورد في القرآن ما يبدو للنظرة السريعة أنه يمكن الاستغناء عنه، ولكن التأمل
يبين عن دقة بارعة، في اختيار هذا التعبير، وبلاغة مؤثرة في المجيء به، وهالك
قوله تعالى: ﴿قَوْلِ الَّذِينَ يُكْتَبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا﴾ (البقرة ٧٩). فتأمل قوله بأيديهم يصور بها جريمة الافتراء، ويرسم بها مقدار
اجترائهم على الله، ويؤكد ارتكابهم الجريمة بأنفسهم، وإن شئت فأسقط تلك
الكلمة، وانظر أي فراغ تتركه إذا سقطت.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النحل ٢٦). فمن فوقهم صورت هذه
الكارثة، التي نزلت بهم أكمل تصوير، ومن هذا الباب قوله سبحانه: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ

مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴿البقرة ١٩﴾. فالمطر لا يكون إلا من السماء، ولكن التعبير عن المطر بالصيب، ووصفه بأنه من السماء، يصوره لك كأنما هو حجارة مصوبة، تهبط من هذا العلو الشاهق، فتصيب بأذاها هذا السائر الضال.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَخْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور ١٥). وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (الأحزاب ٤). فأفواهكم تدل في الآية الأولى على أن الحديث الذي يجرى على ألسنتهم حديث لم يشترك فيه العقل، ولم يصدر عنه، وفي الآية الثانية، تدل على أن النطق اللساني، لا يغير من الحقيقة شيئاً، فهو لا يتعدى اللسان، إلى ما في الأفئدة من حقائق.

وقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ (الأحزاب ٤). ففي ذكر الجوف تأكيد لإنكار وجود قلبين لرجل، فإذا تصور القارئ جوفاً، بادر بإنكار أن يكون فيه قلبان.

وذكر واحدة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) وَخَمِلَتِ الْأَرْضُ وَالجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) ﴿الحاقة ١٣ - ١٥﴾. فضلاً عما فيه من صيانة النغم الموسيقي، يوحى بقصر النفخة، وسرعة الدكة، وفي ذلك من إشارة الرعب، وتصوير شدة الهول ما فيه. وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَتَا تَأْتِيَةُ الْأُخْرَىٰ (٢٠)﴾ (النجم ١٩، ٢٠). تجد فيه وصف مناة بالثالثة، زيادة عما فيه من الحفاظ على الاتساق القرآني، والموسيقى المتناسبة، إشارة إلى ما منى به هؤلاء القوم من ضعف في العقول، وفساد في التفكير، حتى إنهم لم يقفوا بإشراكهم عند حد إلهين، بل زادوا عليهما ثالثاً، وإنى أشعر بالتهكم المرفى قوله: ﴿الْأُخْرَىٰ﴾

وقد كفاني الأدباء أمر البحث في توجيه قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ (البقرة ١٩٦). فقوله: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ﴾ مع أن الثلاثة والسبعة معلوم أنها عشرة، رفع لتوهم أنها ثلاثة في الحج أو سبعة في الرجوع لاحتمال التردد. وقوله: ﴿كَامِلَةٌ﴾ مع أن العشرة لو نقصت لم تكن عشرة، فائدته أن التفريق ما نقص أجرها، بل أجرها كامل، كما لو كانت متوالية فنسب الكمال إليها، لكمال أجرها^(١).

(١) الأقصى القريب ص ٨.

الفصل الثاني

الآية القرآنية

تكونها:

﴿ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (مود ١). ذلك خير ما توصف به الجملة القرآنية، فهي بناء قد أحكمت لبناته، ونسقت أدق تنسيق، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها، أو لا تعيش مع أخواتها، حتى صار من العسير بل من المستحيل، أن تغير في الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغنى فيها عن لفظ، أو أن تزيد فيها شيئاً، وصار قصارى أمرك إذا أردت معارضة جملة في القرآن، أن ترجع بعد طول المطاف إليها، كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعاني، غير هذه الألفاظ، وكأنما ضاقت اللغة، فلم تجد فيها، وهي بحر خضم، ما تؤدي به تلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء.

والجملة القرآنية تتبع المعنى النفسى، فتصوره بألفاظها، لتلقيه فى النفس، حتى إذا استكملت الجملة أركانها، برز المعنى، ظاهراً فيه المهم والأهم، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذى جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه، وإلا اختل وانهار. خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة ١٢٧).

تجد إسماعيل معطوفاً على إبراهيم، فهو كأبيه يرفع القواعد من البيت، ولكن تأخره فى الذكر، يوحى بأن دوره فى رفع القواعد دور ثانوى، أما الدور الأساسى فقد قام به إبراهيم، «قيل كان إبراهيم يبنى، وإسماعيل يناوله الحجارة^(١)»، فنزلت الآية، وكأنما كانت ستسنى دور إسماعيل لثانويته، ثم ذكرته بعد أن انتهت من تكونها. وخذ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة ٥). فإنك ترى تقديم المفعول هنا؛ لأنه موضع عناية العابد ورجاء المستعين، فلا جرم وهو مناط الاهتمام أن يتقدم

(١) الكشاف ج ١ ص ٧٤.

كما يتقدم كل ما يهتم به ويعنى. وخذ قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة ٤٥). تجد المستعان عليه فى الآية غير مذكور، لا تخففاً من ذكره، ولكن ليوحى هذا الحذف إلى النفس أن كل ما يقوم أمام المرء من مشقة، وما يعترضه من صعوبات، يستعان على التغلب عليه، بالصبر والصلاة.

تمضى الجملة القرآنية، وقد كونت من كلمات قد اختيرت، ثم نسقت فى سلك من النظام، فلا ضعف فى تأليف، ولا تعقيد فى نظم، ولكن حسن تنسيق، ودقة ترتيب، وإحكام فى تلاؤم. وقرأ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ (البقرة ٢ - ٥). ترى آيات قد التحم نسجها، وارتبط بناء بعضها ببعض، تسلم الجملة إلى أختها، فى التثام واتساق، فالجملة الأولى قد وصفت القرآن بالكمال، ووصفته الجملة الثانية، بأنه لا يعلق به الريب، لا فى أخباره، ولا فى نسبه إلى الله، وفى الجملة التالية جعله هادياً لأولئك الذين يخشون الله ويتقونه، ومضت الآية الثانية تصف هؤلاء الذين ينتفعون بالقرآن، فهم الذين يوقنون بما أنبأهم به من أمور غائبة لا يرونها، ويقومون بواجبهم لله، فيؤدون الصلاة كما يجب أن تؤدى، وواجبهم للمجتمع، فيقدمون من أموالهم ما يساعدون به البائس والمعتز، ولا يتعصبون لرسول دون رسول، بل يؤمنون بما أنزل على محمد، وما أنزل من قبله، ورأس الإيمان وأساسه هو إيمانهم باليوم الآخر، لأن ذلك الإيمان يدفع إلى العمل الصالح، وينهى عن المنكر والبغى، فلا جرم أن كان أولئك على هدى من ربهم وكانوا هم المفلحين.

ذلك مثل من أمثلة الارتباط القوى بين جملة الآية القرآنية، وكثير من الجمل فى القرآن توحى إليك ألفاظها، بمعان لا يستطيع لفظ أن يحدها، بل يترك للنفس أمر إدراكها، وحسبى أن أشير من ذلك إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَزْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (البقرة ٨٤، ٨٥). أولاً توحى إليك جملة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ بالفرق بين ما كان يجب أن يكونوا عليه، وما هم حقيقة عليه، فأى خيبة أمل تملأ النفس منهم، أو لا تدل هذه الجملة القصيرة على سخط شديد، وتعجب لأمر ما كان ينتظر حدوثها، ونتائج كانت المقدمات تمهد لغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة ١١١). أولا تحس في قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾؛ بالتهكم اللاذع بهم، وأن تلك الأمانى التى تجول فى صدورهم، لن تجد لها سبيلا إلى التحقق فى غير أحلامهم.

وتستخدم الجملة الفعلية فى القرآن للدلالة على التجدد والحدوث، والاسمية للثبوت والاستمرار، والمراد بالتجدد فى الماضى حصوله، وفى المضارع تكراره، تأمل ذلك فى قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يُهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء ٧٨ - ٨٠). فأتى فى الخلق بالماضى لحصوله مرة واحدة، وفيما عداه بالمضارع لتكرره طول الحياة، وتأمل قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران ٢٦، ٢٧). تجد المضارع هنا دالا على ما يتجدد من فعل الله سبحانه فى كل حين، ومن الجملة الاسمية قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ (آل عمران ١٢٦).

وقد يتغير اتجاه الجملة تبعاً لتغيير الاتجاه النفسى ففاتحة الكتاب قد تلون فيها الحديث، وتغير اتجاه الجملة، فكان حديثا عن الله المستحق للحمد، وكان التصريح باسمه وصفاته مؤذنا بأنه أهل للحمد والثناء، فإذا كان المقام مقام العبادة والاستعانة، تحولت الجملة إلى الخطاب إيذانا بقربك ممن تحمد قريبا قلبيا، ويسمح لك الشعور بهذا القرب أن تطلب منه العون والمساعدة، ويستمر الخطاب فى الجمل إلى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى إذا جاء دور المغضوب عليهم، تحول الأسلوب مرة أخرى، فمن تعظيم الله ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه والإضلال.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨٩)﴾ (مريم ٨٨، ٨٩). فالانتقال من الحديث عنهم، إلى الحديث إليهم زيادة فى تهديد من قالوا، ومواجهة لهم بالسخط عليهم، والتأنيب لهم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء ١). فقد يكون ظاهر السياق أن يقال: «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الذى بارك حوله، ليديه من

آياته، إنه هو السميع البصير»، ولكنه عدل عن الغيبة إلى الحضور فى وسط الآية، تعظيما من شأن المسجد الأقصى، ومن شأن ما يرى الله من آياته. وقوله سبحانه: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس ٢٢). فقد يتراءى أن اتجاه الآية يقضى بأن تنتهى بقوله: وإليه أرجع: ولكنه عدل عن ذلك؛ لأن المقام مقام نقاش بين من آمن ومن كفروا؛ فهو ينتهز كل فرصة ليقنعهم فيها بوجود الإيمان بالله واليوم الآخر. أولا تدلنا هذه الخاتمة على أن كمال الأدب هو الذى صاغ العبارة هذا الصوغ. وأنه يخفى وراءها قوله: وما لكم لا تعبدون الذى فطركم؛ وقد يكون فى تعبيره هذا موحيا لهم بأنه لا يريد لهم غير ما يريد لنفسه؛ وذلك أسرع إلى قبول النصح، وأشد إظهارا للإخلاص.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يَسِّرْكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرْنِ لَكُمْ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَفِّرَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢٢). فلما أنجاهم إذا هم يتغنون فى الأرض بغير الحق ﴿يونس ٢٢، ٢٣﴾. فقد كان السياق يقضى أن تسير الآية على الخطاب. ولكنه انتقل ليقص قصة هؤلاء الذين لا يذكرهم الله إلا عند شدة تنزل بهم، حتى إذا انقضت المحنة بغوا فى الأرض، وفى ذلك تعجيب من أمر هؤلاء القوم، وإنكار عليهم كفرهم بأنعم الله، ونسيانهم التخلص من المأرق متى ابتعدوا عنها، وفى الحديث عن غائبين إحياء للمخاطبين بألا يفعلوا هذا الفعل المستنكر. وعلى منوال هذه الآية يجرى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢) وَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ (الأنبياء ٩٢، ٩٣). وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف ١٥٨). فقد يكون ظاهر السياق يقضى أن يقول: «فآمِنوا بالله ورسوليه، ولكنه عدل عن ذلك ليبين الدوافع التى تدعو إلى الإيمان به واتباعه».

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ (فصلت ١١، ١٢). فعندما جاء الحديث عن زينة السماء الدنيا، نسب ذلك إلى نفسه صراحة، لما فيها من الجمال الذى يبهى نفس رائيه، والنفع الملموس لهم، فذكرهم الله بأنه خالق هذا الجمال، ومبدع هذه الزينة.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَ لِقَوْمِكَ مِمَّا مِصْرَ بُوْتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ٨٧). فريما ظن أن وجه العبارة أن تسند الأفعال كلها إلى ضمير الاثنين: «موسى وهرون» ولكنه أسند الفعل مرتين إلى واو الجماعة إشارة إلى أن هذا التكليف لا يخصهما فحسب، بل هما وقومهما جميعا، ثم أفرد الفعل فى آخر الآية يشير بذلك إلى أن المخاطب أولا وبالذات إنما هو أحدهما، وهو الرسول موسى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤)﴾ (مرد ٥٣، ٥٤). فلم يقل: وأشهدكم، لما يشعر به هذا التعبير من العناية بأمرهم، لجعلهم قرناء لله، فى الشهادة عليه؛ أما التعبير بفعل الأمر ففيه تنبيه لهم، وإيقاظ، حتى يتلقوا ما سيلقيه عليهم، مؤذنا إياهم بما ينتهم فيما يعبدون. وتأمل سر تلوين الأسلوب فى قوله تعالى: ﴿فَلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف ٢٩). فقد أبرز هذا التلوين العناية بكل واحد مما أمروا به على حدة، فاتجه أمر الرب إلى القسط وحده، ثم أمروا أمرا جديدا، بأن يقيموا وجوههم عند كل مسجد، وأمرا جديدا آخر بأن يدعوه مخلصين له الدين، وفى ذلك من العناية بتوكيد كل أمر ما فيه، ولم يجعل أحد هذه الأمور ملحقا بصاحبه - وانظر تفخيم أمر النبى صلوات الله عليه من تغيير نهج الأسلوب، فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (النساء ٦٤). إذ لم يقل: واستغفرت لهم.

ومن ذلك استعمال أحد الفعلين الماضى والمضارع، موضع صاحبه، فيأتى بالمضارع مكان الماضى؛ لإحضار صورة الفعل أمام السامع، حتى لكأنه يشاهده؛ وليس ذلك مما يثيره الفعل الماضى، لأن سامعه قد يكتفى بأن يتخيل فعلا قد مضى، وربما لا يستحضر صورته أو تكرره. واقرأ قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة ٨٧). تجد الفعل المضارع قد صور جريمتهم كأنهم يرتكبونها؛ وفى ذلك من التشنيع عليهم ما فيه. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَنُقْتَلُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيْتٍ فَأَخْبَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (فاطر ٩). ففى ﴿تُثِيرُ﴾ ما يحضر تلك الصورة الطبيعية، الدالة على القدرة الباهرة. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج ٣١). ففى ذكر المضارع استحضار صورة

خطف الطير له، وهوى الریح به. ويستخدم الماضى مكان المضارع إشارة إلى تأكيد وقوع الفعل، حتى كأنه قد وقع، وذلك يكون فيما يستعظم من الأمور؛ ومن أمثله قوله سبحانه ﴿وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُفِرَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهَ دَاخِرِينَ﴾ (النمل ٨٧). وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَسِىَ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا لَهُمْ فَلَمْ نَغَاذِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف ٤٧). وقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النحل ١). وقوله تعالى: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَّرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِصٍ﴾ (إبراهيم ٢١). وفى الإتيان بالماضى هنا من إيقاع الرهبة فى النفوس ما فيه لأن الفعل كأنه قد تم، والقرآن يتحدث عنه، وفى استخدام الماضى فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (١٥٩) إلى الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا قَوْلَ لَيْكَ أَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ١٥٩، ١٦٠). إشارة إلى ما اتسم به هؤلاء التائبون من مبادرة، وإسراع إلى التوبة. وفى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (١٦٥) إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة ١٦٥-١٦٧). تأكيد لما سيحدث فى المستقبل حتى كأنه حدث.

التقديم والتأخير

إذا كانت الواو لمطلق الجمع، ولا تقتضى ترتيباً، ولا تعقيباً، فليس معنى ذلك أن الآية القرآنية، تجمع بها معطوفات على غير ترتيب ولا نظام، وإذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء الجملة على بعض، فقد حرصت الجملة فى القرآن، على أن يكون هذا التقديم، مشيراً إلى مغزى، دالا على هدف، حتى تصبح الآية بتكوينها، تابعة لمنهج نفسى، يتقدم عندها فيها ما تجد النفس تقديمه أفضل من التأخير، فيتقدم مثلا بعض أجزاء الجملة حين يكون المحور الذى يدور عليه الحديث وحده، فيكون هو المقصود والمعنى، والنفس يتقدم عندها من يكون هذا شأنه، فلا جرم أن يتقدم فى الجملة، كما تقدم فى النفس، ويدعو البلاغيون هذا التقديم بالاختصاص، ومن أمثله قوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة ٥). فالله هنا وحده أهل العبادة، ومنه وحده نستمد المعونة، وقوله: ﴿خَذُوا فَعُولَهُ﴾ (٣٠). ثم الْجَحِيمَ صَلْوَهُ (٣١). ثم في سِلْسِلَةٍ دَزَعَهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) ﴿(الحاقة ٣٠-٣٢). أولا ترى أن الجحيم وهذه السلسلة، لن يفلت منهما أبداً هذا العاصي الأثيم، وقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فتقديم شاخِصَةٌ^(١) على أبصار، يصورها لك كأن كل صفة أخرى لها قد انمحت، ولم يبق لها سوى الانفتاح الذي يؤذن بالخوف، والذهول معاً. ولذلك كان نفى الغول^(٢) مقصوراً على خمر الآخرة، دون خمر هذه الحياة الدنيا، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧)﴾ (الصافات ٤٥-٤٧). وكان الإنكار منصباً على عبادة غير الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَنْ أَعْبُدَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (الزمر ٦٤). قال عبد القاهر^(٣) «ومن أجل ذلك قدم ﴿غَيْرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَغْفِرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ (الأنعام ٤٠). وكان له من الحسن والمزية والفخامة ما تعلم أنه لا يكون لو أخر فقيل: قل أأخذ غير الله ولياً، وأتدعون غير الله، وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً، وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك، أو يكون جهل أجهل، وعمى أعمى من ذلك؟! ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل: أأخذ غير الله ولياً، وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط، ولا يزيد على ذلك فاعرفه. وكذلك الحكم في قوله تعالى: ﴿أَبَشْرًا مَبَأً وَاحِدًا تَنْبِغُهُ﴾ (القمر ٢٤). وذلك لأنهم بنوا كفرهم على أن من كان مثلهم بشراً، لم يكن بمثابة أن يتبع ويطاع، وينتهى إلى أن يأمر ويصدق أنه مبعوث من الله تعالى، وأنهم مأمورون بطاعته».

وقل في القرآن أن يأتي التقديم للاحتفاظ بالموسيقى في الآية القرآنية، ولزيادة التناسق اللفظي فحسب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨)﴾ (طه ٦٧، ٦٨). فالتقديم والتأخير لهذه الصياغة التي يعنى بها القرآن، وهي إحدى وسائل تأثيره في النفس، وأصل الجملة «فأوجس موسى في نفسه خيفة» وإذا أنت قرنت هذا التعبير بالآية السابقة واللاحقة، وجدت خروجاً على النسق، ونفرة لا تلتئم. وللمحافظة على هذه الموسيقى كذلك ورد قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّهُمْ أَنْ يَبْلُغُنَا أَجْرًا مُعْتَدًا فَتَقَفَ فِي الْجِدَارِ وَنَافِلَتُهُمَا فَسَاءَ لِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (١٨)﴾ (البقره ١٨). فالتقديم والتأخير هنا أيضاً ليس لتأثيره في النفس، بل للمحافظة على الموسيقى كذلك ورد قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّهُمْ أَنْ يَبْلُغُنَا أَجْرًا مُعْتَدًا فَتَقَفَ فِي الْجِدَارِ وَنَافِلَتُهُمَا فَسَاءَ لِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (١٨)﴾ (البقره ١٨).

(١) شخص بصره فتح عينيه وجبل لا يطرف. (٢) غاله يفوله غولا إذا أهلكه وأفسده.

(٣) دلائل الإعجاز ص ٩٥.

فَلَا تَنْهَرُوا (١٠) ﴿الضحى ٩، ١٠﴾. وعد ابن الأثير منها قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدْرَانَهُ مَتَازِلٌ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) ﴿يس ٢٧ - ٢٩﴾. قال ^(١): فقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدْرَانَهُ مَتَازِلٌ﴾، ليس تقديم المفعول به على الفعل من باب الاختصاص، وإنما هو من باب مراعاة نظم الكلام، فإنه قال: ﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾، ثم قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾، هاقتضى حسن للنظم أن يقول: ﴿وَالْقَمَرَ قَدْرَانَهُ مَتَازِلٌ﴾، ليكون الجميع على نسق واحد فى النظم أى أن تبدأ الجملة كلها بالأسماء المتناسبة.

وبتقديم بعض المعطوفات والصفات على بعض، كما يتقدم السبب على المسبب، فى قوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة ٥). فتقديمهم العبادة على الاستعانة، تقديم للوسيلة، قبل طلب الحاجة، وذلك أنجح فى توقع حصولها، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِي كَثِيرًا (٤٩)﴾ (الفرقان ٤٨، ٤٩). فتقدم ذكر البلدة الميتة؛ لأن فى حياتها حياة الأنعام، فمن نباتها تأكل وتنمو، وتقدم الأنعام على الأناس، لأن فى حياة تلك حياة هؤلاء؛ ولهذا قدمت التوبة، على الطهارة، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة ٢٢٢). وقدم الإفك على الإثم فى قوله سبحانه: ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة ٧). والاعتداء عليه، فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ يُغْتَدِرُ آثِمٍ (١٢)﴾ (القم ١٠ - ١٢). ويرد الحكيم بعد العليم، فى معظم الآيات التى ورد فيها الوصفان، فإن ورد الوصف بالحكمة أولا كان ذلك لاتجاهات أخرى، اقتضاها سياق الآية.

وتتقدم الكلمة لتقدمها فى الزمن، أو العمل، كما فى الآيات التى ورد فيها ذكر الأنبياء وكتبهم، فإن بعضهم يتقدم على بعض، يسبق زمنه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلِ هَٰذِهِ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ﴾ (ال عمران ٣، ٤). وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ازْكُوا وَاذْكُرُوا﴾ (الحج ٧٧). وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة ٦).

وللترقى من العدد القليل إلى الكثير، كما فى قوله سبحانه: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء ٣). وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا

(١) المثل السائر ص ١٧٩.

أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيَّمَا كَانُوا تَمَّ يَنْبَهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿المجادلة ٧﴾. وأما قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى فَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبا ٤٦). فقد سيقت في مقام دعوتهم إلى التفكير في شأن محمد ورسالته، وربما كان اجتماعهم مثنى، أسرع في وصولهم إلى الحق، فقد تعترض أحدهم شبهة، فيبديها صاحبه، ولهذا قدم مثنى على فرادى.

ولتقديم الكثير على ما دونه، ولهذا قدم السارق على السارقة في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة ٣٨). لأن السرقة في الذكور أكثر. والأزواج على الأولاد، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادٍ كُمْ عَدُوا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَضَفَّحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التغابن ١٤)؛ لأن العداوة في الأزواج أكثر منها في الأولاد. وقدمت الأموال على الأولاد، في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن ١٥). لأن الأموال أكثر فتنة من الأولاد، كما قدمت في الآية الكريمة: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف ٤٦). ولكنه عند ذكر الشهوات، قدم النساء والبنين عليها، فقال: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآءِ﴾ (ال عمران ١٤).

ولشرف المقدم وعلو رتبته، ولهذا قدم اسمه تعالى في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء ٥٩). وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ (المؤمنون ٥٠). أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ٩١). فلأن الكلام السابق كان حديثاً عنها.

ولأنه أدل على القدرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ (النور ٤٥). ومما يحتاج إلى تدبر لإدراك سر تقدمه قوله سبحانه: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة ٢٥٥). فقد يبدو أن نفي النوم بعد السنة لا محل له، فنفي السنة يدل من باب أولى على نفي النوم، ولكن نسق الآية يريد أن ينفي الشبه بين الله والإنسان، فهو قيوم، مدبر لشئون السموات والأرض، لا يدركه ما يدرك الناس، من سنة، يعقبها نوم، فيترك شئون العالم، ولا يديرها، فالترتيب هنا ترتيب زمني، لا ترتيب يتجه إلى نفي الأدنى فالأكثر.

وتقدم ضمير المخاطبين على الضمير العائد على الأولاد فى قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام ١٥١). وفى موضع آخر، تقدم الضمير العائد على الأولاد، وتأخر ضمير المخاطبين فى قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (الإسراء ٣١). ولعل السر فى ذلك أنه فى الآية الأولى يخاطب آباء مملقين، بدليل قوله من إملاق، فكان من البلاغة أن يسرع فيعد هؤلاء الآباء بما يغنيهم من الرزق، وأن يكمل ذلك بعدتهم برزق أبنائهم، حتى تسكن نفوسهم، ولا يجد القلق سبيلا إليها. أما فى الآية الثانية فالخطاب للأغنياء، بدليل قوله خشية إملاق، فإنه لا يخشى الفقر إلا من كان غنياً، إذ الفقير منغمس فى الفقر، فكان من البلاغة أن يقدم وعد الأبناء بالرزق، حتى يسرع بإزالة ما يتوهمون من أنهم بإنفاقهم على أبنائهم، صائرون إلى الفقر بعد الغنى، ثم مضى يكمل طمأنينتهم فوعدهم بالرزق بعد عدة أبنائهم به.

وهكذا نرى القرآن الكريم، لا يتهج فى ترتيب كلماته سوى هذا المنهج الفنى الذى يقدم ما يقدم، لمعنى نفهمه وراء رصف الألفاظ، وحكمة ندركها من هذا النسيج المحكم المتين.

الذِّكْرُ وَالْحَذْفُ

يذكر القرآن ما يذكره، مما يبدو أن السياق يجيز حذفه، عندما يكون في هذا الذكر تثبيت للمعنى، وتوطيد له في النفس، ويكون في ذكره فضلا عن ذلك معان لا تستفاد إذا حذف فمما ذكر فيه المسند إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ (الإخلاص ١، ٢). ذكر اسم الجلالة في الجملة الثانية ليستقر في النفس مرتبطا بخبره، وليفيد بتعريفه وتعريف الخبر أنه وحده السيد الذي يقصد إليه، عند اشتداد الخطوب، وفضلا عن ذلك نرى في الأسلوب هذا التناسق الموسيقي، الذي يفقد إذا حذفنا لفظ الله، برغم ما في الكلام مما يدل عليه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِي وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء ٨٥). ألا ترى في ذكر الروح وارتباطها بخبرها، ما يثبت معنى الجملة في نفسك، ولا يشتت أركانها في فؤادك، فيذكر لك ما يتحدث عنه صراحة، ولا يدعك تلتسمه من الكلام. وإن شئت فاحذف كلمة الروح من الجملة، وانظر أتجد المعنى في الجلاء والاستقرار مثله عندما تذكر.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ (طه ١٧، ١٨) وذكر البلاغيون أن ذكر المسند إليه هنا للرجعة في إطالة الكلام، وتلذذا بهذه الإطالة، هذا التلذذ الذي دفع موسى إلى أن يتحدث بما لم يسأل عنه، فقال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَمِّي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (طه ١٨).

ويذكر المسند إليه أيضا صراحة، تأكيدا لوقوع المسند، إذا كان ذكر اسمه مما يطمئن السامع إليه، وقرأ قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (المائدة ٩٥). أو لا ترى في ذكر اسم الله بعد الوعد ضمانا لتنفيذه، كما يذكر للتصوير الباعث على الرهبة، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)﴾ (الزلزلة ١، ٢). فذكر الأرض إلى جانب إخراج الأثقال، يصور هذا الجرم الهائل، وقد انشق عن فجوات تقذف بما ضمت الأرض من أثقال،

وذكرها وهي المكان المستقر الثابت الذي نجد على سطحه الاستقرار، يصورها مائدة مضطربة تحت أقدامنا، فأى فزع يلم بنا عند هذا التصور. كما يذكر تأكيداً لنعمة أداها، فيكون ذكره مثيراً لشكره، كما في قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَتَالَوْا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ (الأحزاب ٢٥). ألا ترى هذه النعمة الكبرى نعمة حقن دماء المسلمين جديدة بذكر المنعم، ليشكر.

وفي ذكر المسند كذلك تثبیت لمعنى الجملة فى النفس، وقد يثير حذفه برغم ما قد يدل عليه، معنى لا يراد، وتأمل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرَهُمْ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة ٤١). ففى تكرير لهم ما يشعر بكمال قوة الجزاءين، ويؤكد أن العذاب العظيم قد أعد لهم فى الآخرة.

ويحذف الفاعل من الجملة عندما تدل عليه قرينة واضحة، فيصبح كالممتعين الذى تنصرف إليه النفس أول وهلة، كما تجد ذلك فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨)﴾ (القيامة ٢٦ - ٢٨). فالحديث فى ذكر الموت، ولا يبلغ التراقى عند الموت إلا النفس، وإذا نظرنا إلى الآيتين الكريمتين اللتين حذف الفاعل منهما، وهما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (الأنعام ٩٤). وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُ حَتَّى حِينٍ﴾ (يوسف ٣٥). وجدنا ذكر الفعل فى الجملة الأولى مغنياً عن ذكر فاعله، فالمراد أن التقطع حل بينهم مكان التواصل، فكأنه قيل: لقد تم التقاطع بينكم، وفى الجملة الثانية أغنى ذكر ليسجننه، بما فيه من أدوات التوكيد عن ذكره، وكان المجيء بتلك الجملة مصوراً لما حدث من هولاء القوم، ومعبراً عما كان من أمرهم، وهم يتشاورون فى أمر يوسف، فقد قلبوا وجوه الرأى بينهم، ثم بدا لهم فى عقولهم أمر، عبروا عنه بقولهم: ليسجننه، فكانت الآية حاكية لما حدث، مصورة له. ويحذف المبتدأ عندما يكون ذكر الخبر المتصف بصفة، كأنه يشير إلى هذا المبتدأ، وكأنما بلغ من الشهرة بهذا الوصف مبلغاً يغنى عن ذكره، كما تجد ذلك فى قوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (مود ١).

ويحذف لأن ذكره يبعث فى النفس السأم، لشدة وضوحه، لقرب الحديث عنه، كما تحس بذلك فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ٢). أو لا ترى أن فى ذكر الضمير العائد على الكتاب قلقاً، لشدة قرب الكتاب المائل أمام النفس، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)﴾ (القارعة ١٠، ١١). وتأمل الفرق بين

هذا الأسلوب الموجز وبين أن يقال. «وما أدراك ماهيه، هي نار حامية» من الإسراع إلى ذكر النار، بعد أن أثار الشوق بالسؤال عنها، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ. نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾، وقوله تعالى: ﴿صُمُّكُمْ غَمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة ١٨). فمادام في معرض الحديث عنهم، ليس في حاجة إلى إعادة ذكرهم.

ويحذف الخبر عندما يقوم دليل في الكلام عليه، فيكون ذكره كاللغو، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (الطلاق ٤). فالصمت عن الخبر، وعطف اللائى لم يحضن على اللائى يئسن، مؤذن باتحادهما في الخبر. وتأمل حذف الخبر في قوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الزمر ٢٢). أولا ترى في حذف الخبر ما يشير إلى أن عقد الموازنة بين من هو على نور من ربه، ومن هو قاسى القلب مظلمة، لا تستسيغه النفس، حتى في معرض الإنكار. ويحذف الفعل إذا وقعت جملة جواب سؤال، فيكون في ذكر الفاعل إسراع بذكر المسئول عنه، بعد أن فهمت النفس الفعل المسئول عنه، واستقر أمره في الفؤاد، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)﴾ (الإسراء ٥٠، ٥١). ومثله قوله سبحانه: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (العنكبوت ٦١). وحذف الفعل في باب التحذير، مثل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ (الشمس ١٣). يشير إلى أن هذا المفعول المذكور منهى عن المساس به، بأى نوع من أنواع الأذى، ففى حذف الفعل تعميم، لا يتأتى إذا ذكر فعل بعينه.

وحذف فعل القول في الجمل القرآنية الآتية: ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الكهف ٤٨). أى فقيل لهم: لقد جئتمونا؛ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْمْ طَبِيبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ (الأحقاف ٢٠). أى فيقال لهم: ﴿أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْمْ طَبِيبَاتِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَوَضَّيْنَا لِلْإِنْسَانِ بَوْلَإِذِهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ (العنكبوت ٨). أى وقلنا له إن جاهدك... هذا الحذف يصور ما حدث، ولما كان ما حدث هو أنهم عرضوا على الله صفا، ثم سمعوا هذا التأنيب، فكان القول مضمرا في الواقع، فأضمر في الجملة المعبرة عنه، وعلى هذا النسق نرى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْمْ طَبِيبَاتِكُمْ﴾ (الأحقاف ٢٠).

فإنهم عرضوا، فسمعوا، فالقول مضمَر كذلك ومن السائغ لدى في الآية الثالثة، أن تكون من باب تلوين الأسلوب، فقد كان الحديث عن غائب فلما كان أمر الوصية بالتوحيد معنياً به العناية كلها، اتجه إلى المأمور يخاطبه، موجهاً له الحديث زيادة في التأكيد، ولن يكون ذلك إذا كان الحديث عن غائب.

ويحذف المفعول، عندما يكون المراد الاقتصار على إثبات المعاني، التي اشتقت منها الأفعال لفاعليها، من غير تعرض لذكر المفعولين، فيصبح الفعل المتعدى كغير المتعدى، ومن أمثلة هذا الحذف، قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَعْرِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩). إذ المعنى أيستوى من له علم ومن لا علم عنده، من غير أن يقصد النص على معلوم. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤٣)، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ (٤٤) ﴿النجم ٤٣، ٤٤﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى﴾ (النجم ٤٨). فالمعنى هو الذى منه الإضحاك والإبكاء، والإماتة، والإحياء، والإغناء، والإقناء، فالغرض هنا إثبات الفعل للفاعل. قال عبد القاهر^(١): وإن أردت أن تزداد تبيناً لهذا الأصل.. فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٢٣) ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ (القصص ٢٣، ٢٤). ففيها حذف مفعول في أربعة مواضع، إذ المعنى: وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم، أو مواشيهم، وامرأتين تذودان غنمهما، وقالتا لا نسقى غنمنا، فسقى لهما غنمهما، ثم إنه لا يخفى على ذى بصر أنه ليس فى ذلك كله إلا أن يترك ذكره، ويؤتى بالفعل مطلقاً، وماذا لك إلا أن الغرض فى أن يعلم أنه كان من الناس فى تلك الحال سقى، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا لا يكون منا سقى، حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى، فأما ما كان المسقى، أغنما أم إبلا أم غير ذلك، فخارج عن الغرض وموهم خلافه، وذلك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما، جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبلا لم ينكر الذود... فاعرفه، تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول فى هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت، إلا لأن فى حذفه وتركه فائدة جليلة، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه».

ويحذف المفعول بعد فعل المشيئة بعد لو، ويعد حروف الجزاء، حذراً من التكرير كما فى قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ (الأنعام ٣٥). ولا يكاد يأتى مفعول المشيئة إلا فى الأمور الغريبة المتعجب منها، كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا

(١) أقتنى: أعطى ما يقتنى.

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٢٤.

أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا لَاتَّخِذَنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿الأنبياء ١٧﴾. وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ لَدَا لَأَصْطَلَفِي مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (الزمر ٤).

ويحذف المضاف كثيراً في القرآن: لأغراض شتى، تفهم من هذا الحذف، وقد أحصى عز الدين بن عبد السلام في كتابه: الإشارة إلى الإيجاز، ما حذف من مضافات في القرآن الكريم، ويطول بي المقام إذا أنا حاولت ذكر السبب في كل حذف، وحسبى أن أورد هنا بعض الأمثلة، مشيراً إلى ما يحدثه الحذف فيها من جمال وروعة:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾ (البقرة ٢٦١). قالوا: أى كمثل باذر حبة أو زارعها. ولعل السرف في هذا الحذف هو اتجاه القرآن إلى الصدقة نفسها، والجزاء عليها هذا الجزاء المضاعف.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ (ال عمران ٢٨). أى فليس من موالاته الله فى شىء، يعنى أنه منسلخ من ولاية الله: أو لا ترى أن حذف المضاف فى هذه الآية قد أوحى إلى أنفسنا معنى براءة الله منه، وانقطاع الصلة بينه وبين الله، تمام الانقطاع. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ (ال عمران ١٠). ومن أجمل ما حذف فيه المضاف قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءَ وَنِدَاءَ صُمٌّ بِكُمْ غَمٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ١٧١). فأصل الجملة ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينطق بما لا يسمع، ثم حذف المضاف وهو داعى، رفعا لشأنه، فى اللفظ، عن أن يقرن بهذا الذى ينطق بما لا يسمع، وبقي المراد وهو أن هؤلاء الكفار صم بكم عمى فهم لا يعقلون.

وحذف الصفة فى قوله سبحانه: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْذَتْ أَنْ أَعْيَهَا وَكَانَ وِزَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ (الكهف ٧٩). فقد حذف الصفة بعد سفينة، إذ المراد بها السفينة الصالحة، لدلالة الآية على هذه الصفة، فإن عيب السفينة لا يخرجها عن أن تكون سفينة، وقد أوحى إلينا هذا الحذف، بأن الملك ينظر إلى السفينة المعيبة، كأنها فقدت حقيقتها.

وكثيراً ما يحذف جواب القسم فى القرآن كقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾ (الفجر ١-٨).

وقوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَلَيْدًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)﴾ (ق ١-٣).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالنَّارِغَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ

سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاحِفَةُ (٦) تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) ﴿
 (النازعات ١-٧).

فجواب القسم فى ذلك كله محذوف يفهم من السورة التى ورد فيها هذا القسم، وإن فى هذا الحذف بعث النفس على التفكير، لتهتدى إلى الجواب، وتظل النفس تتبع هذه الآيات، يتلو بعضها بعضاً، تستوحى منها هذا الجواب، الذى لا بد أن يكون شيئاً عظيماً يقسم عليه الله، وإذا أنت تتبعت آيات السورة رأيتها حديثاً عن البعث، وتعجباً من منكره، مما يؤذن بأن هذا القسم وارد لتأكيد، وأنه سيكون لا محالة، أو لا ترى فى حذف هذا الجواب دلالة على مثوله فى الذهن لشدة ما شغل النفس، واستأثر بعميق تفكيرها، يوم نزل القرآن مؤكداً مجيء اليوم الآخر. وكذلك يحذف فى القرآن جواب - لو، ولولا، ولما، وأما، وإذا - ويورث هذا الحذف الكلام قوة وشدة أسر:

فمن أمثلة ﴿لَوْ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (سبا ٥١). أو لا ترى فى هذا الحذف إشارة إلى أن الجواب أمر عظيم، يترك إلى الخيال إدراكه، أما اللفظ فلا يستطيع الإحاطة به.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) لَوْ يُعَلِّمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (الأنبياء ٣٨، ٣٩). وحذف الجواب هنا كأنه يشير إلى تعيينه، فإن من يعلم أنه سيعرض للنار، فيشوى بها وجهه وظهره، ولا يجد ناصراً ينصره، إن لم يؤمن، يعمل بكل قواه على أن يتقى هذه النار، فكأن تقدير الآية لو يعلم الذين كفروا.. لما أنكروا البعث، وما لجوا فى كفرهم. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنْ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى زُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود ٧٩، ٨٠). وفى حذف الجواب هنا إخفاء لأمنية تجول فى نفس لوط، كأنما لا يستطيع أن يبديها أمام قومه.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الثَّمَرَاتُ﴾ (البرق ٢١). وحذف الجواب هنا يشير إلى أنه من الواضح بمكان، فلو أن قرآناً أوتى تلك القوة الخارقة، لكان هذا القرآن جديراً أن تكون له هذه القوة. فإذا لم يتضح جواب (لو) ولم يشر إليه سياق الآيات ذكر، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَغرْجُونَ﴾ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (الحجر ١٥، ١٤). لأنه إذا حذف احتمال وجوها، منها أن يقال لما آمنوا، أو لطلبوا ما وراء ذلك.

ومن حذف جواب ﴿لولا﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩)﴾ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوفٌ رحيمٌ ﴿٢٠﴾ (النور ١٩، ٢٠). وترك جواب ﴿لولا﴾ هنا يثير في نفس هؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة الرهبة من عذاب الله، الذي يشير إليه ما بعد لولا. ومن حذف جواب لما قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَتَلَّ لِلْجِبِينِ (١٠٣)﴾ وَنَادَيْتَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ (الصافات ١٠٣-١٠٥). وفي هذا الحذف إشارة كذلك إلى أن اللفظ لا يستطيع أن يصف ما أصاب إبراهيم وابنه من المسرة والابتهاج. ومن حذف جواب أما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَدُورُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، واستغنى هنا عن الجواب وهو القول، إذ التقدير فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم استغناء بالمقول عنه. ومن حذف جواب إذا قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥)﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ (س ٤٥، ٤٦). وكان في حذف جواب إذا إشارة إلى أنه معروف واضح عند المخاطبين، لا يكاد يحتاج إلى أن يذكر، فضلا عما في الآية الثانية من دلالة عليه فكأنه قيل: وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون، أعرضوا، وبينت الآية التالية أن هذا الإعراض سجية لهم، فلا تكاد الآية تأتي إليهم حتى يعرضوا عنها.

ويعتمد القرآن على ذكاء قارئه فيحذف من الجمل ما يستطيع القارئ أن يدركه، لأن السياق يستلزمه ويستدعيه، فمن ذلك قوله تعالى، في قصة سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧)﴾ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ (النمل ٢٧-٢٩). فحذف ما حذف هنا من تفصيلات جزئية تدرك من السياق، وفي تخطيها وصول إلى العناصر الجوهرية في القصة، وقل مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧)﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَأَكْفَرُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آتِيكَ الْأَنْتَ كَلَّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَي قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ (مريم ٧-١٢). فأغفل القرآن الحديث عن مجيء الغلام، ونشأته، وترعرعه، مما ليس بعنصر أساسي في القصة، مادامت مخاطبته بأخذ الكتاب مغنية عنه، ونهج القرآن ذلك النهج في كثير من قصصه، ويدخل البلغاء كل ما ذكرناه من الحذف في باب الإيجاز.

التكثير والتعريف

وقفت طويلاً عند الاسم النكرة، أتبين ما قد يدل عليه التكثير من معنى، ودرست ما ذكر العلماء من معان، قالوا إن هذا التكثير يفيدها، وبدا لي من هذا التأمل الطويل أن النكرة يراد بها، واحد من أفراد الجنس، ويؤتى بها، عندما لا يراد تعيين هذا الفرد، كقوله سبحانه: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (القصص ٢٠). فليس المراد هنا تعيين الرجل، ولكن يراد هنا أن يصل إلى موسى نبأ الائتثار عليه بالقتل.

والنكرة بعدئذ تفيد معناها مطلقاً من كل قيد، أما ما يذكره علماء البلاغة من معان استفيدت من النكرة، فإنها لم تفدها بطبيعتها، وإنما استفادت من المقام الذى وردت فيه، فكأنما المقام هو الذى يصف النكرة، ويحدد معناها، فكلما حياة مثلا تدل على معناها المجرد، والمقام يهبها معنى التحقير حيناً، والتعظيم حيناً آخر، والنوعية من موضع ثالث، ولتقف قليلاً عند بعض الآيات التى ورد فيها الاسم نكرة، نتبين مدى الجمال فى وروده.

قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضَخٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ (البقرة ٩٦). أو لا ترى أن المراد هنا بيان حرص هؤلاء الناس على مطلق حياة، وأنها غالية عندهم كل الغلو، لا يعنيه أن تكون تلك الحياة رفيعة أو وضيفة، ولهذا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، ومن هنا جاء التنديد بهم، لأن الإنسان المثالى، لا يريد الحياة، إلا إذا كانت رفيعة صالحة. وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة ١٧٩). وهنا تجد المراد كذلك مطلق حياة يستفيد منها المجتمع من حكم القصاص، هى تلك التى يظفر بها من يرتدع عن القتل، ولا يقدم عليه خوفاً، أن تناله يد القانون فيقتل، فهذا الحكم العادل، استزاد به المجتمع حياة بعض الأفراد الذين كانوا عرضة للقتل قصاصاً.

وقال تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قِبَلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴿(ال عمران ١٨٤، ١٨٣). فالرسل منكراً لا تدل على أكثر من معنى المرسلين والكثرة إنما استفيدت

من هذه الصيغة من جموع التكثير، الدالة على هذه الكثرة، أما التعظيم فلا يستفاد من التنكير، وإنما يستفاد من وصف هؤلاء الرسل، بأنهم جاءوا بالبينات، فالمقام هو الذى عظم هؤلاء الرسل، وقد تأتى الكلمة نفسها فى مقام آخر، ويكون ما يحيط بها دالا على حقارتها وضعفها، مما يدل على أن التنكير فى ذاته لا يؤذن بتعظيم ولا تحقير. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢٧٩). فكلمة حرب منكرة، لا تدل على أكثر من حقيقتها، وإذا كان ثمة تعظيم لهذه الحرب فممنشؤه وصفها بأنها من الله ورسوله، وإن حرباً يثيرها الله، جديرة أن تبعث فى النفس أشد ألوان الفرع والرعب.

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة ٧٢). فلا تحمل كلمة رضوان فى الآية معنى أكثر من العطف، أما أن يدل التنكير هنا على التقليل لا تفيد النكرة وحدها، وإن كان معنى الآية يحتمل، أن قليل رضوان الله أكبر من الجنات والمسكن الطيبة، لأن النكرة تطلق على القليل والكثير فما يطلق عليه رضوان قل أو كثر، أكبر مما أثبوا به.

ودل المقام على تعظيم الاسم المنكر، فى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (الأعراف ١١٣). ذلك أنهم يطلبون مكافأة على عمل ضخم يقومون به، هو إبطال دعوة موسى، والإبقاء على دين فرعون، أو لا يكون ثواب ذلك عظيماً يناسبه.

كما دل المقام على تعظيم الذكر، فى كل آية وردت فيها تلك الكلمة منكراً، كقوله تعالى: ﴿أَوْعَدْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا﴾ (الأعراف ٦٣). وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (يوسف ١٠٤). فوصفه حيناً بأنه من الله، وحيناً بأنه ذكر للعالمين، وحيناً بأنه مبارك، يؤذن بعظمة هذا الذكر وجلال قدره. كما دل المقام على التقليل فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ﴾ (الجنات ٣٢). ألا ترى أن جردهم للساعة، لا يؤذن إلا بظن ضئيل فى وجودها يتردد فى رءوسهم. وقد تكون الكلمة النكرة موحية بمعنى حقير إلى النفس، كما فى قوله تعالى: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ (الكهف ٢٧). وقوله سبحانه: ﴿قَبَلِ الْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (١٧) من أي شيء خلقه (١٨) من نطفة خلقه فقدّره (١٩)﴾ (عبس ١٧ - ١٩).

ولأن النكرة لا تدل على شيء معين، كان استخدامها فى بعض المقام مثيراً

للشوق والرغبة فى المعرفة، كما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (الصف ١٠). ولأنها تدل على القليل والكثير كانت بعد النفى لقصد العموم وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة ٢).

وتحدث العلماء عن تنكير السلام الصادر من الله فى قوله سبحانه: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (يس ٥٨). وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (الصافات ٧٩). وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات ١٢٠). وقوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم ١٥). وقوله: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ (هود ٤٨). والذي أحسه فى هذا التعبير أن المقام هنا يدل على تعظيم هذا السلام الصادر منه سبحانه، والمقام ينبئ بهذا التعظيم ويشير إليه.

وتستخدم ألوان المعارف فى القرآن الكريم فى مواضعها الدقيقة الجديرة بها: فيستخدم الضمير الذى يجمع بين الاختصار الشديد، والارتباط المتين، بين جمل الآية بعضها وبعض، ومن روائع استخدام ضمير المخاطب، أن يأتى به مخاطباً كل من يستطاع الخطاب معه، عندما يكون الأمر من الوضوح بمكان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُرُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة ١٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ قُرْعُوا فَلَأَقْوَتَ وَأَخِدُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (سبا ٥١). فكان سوء حالهم من الوضوح لدرجة ظهوره لكل أحد.

وعادة القرآن فى ضمائر الغيبة أنها تتفق إذا كان مرجعها واحداً، حتى لا يتشتت الذهن ولا يغمض المعنى، ولذا كانت الضمائر كلها تعود إلى موسى، فى قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلِتُضَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (طه ٢٨، ٢٩). وما بعدها. وليس من قوة النظم فى شىء أن يعود بعض هذه الضمائر على موسى وبعضها الآخر على التابوت. كما تعود الضمائر كلها إلى الله فى قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفتح ٩).

فإن اتحد الضميران، وكانا يعودان إلى مختلفين، كان المقام يحددهما تحديداً واضحاً؛ ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف ٢٢). فضمير فيهم يرجع إلى أهل الكهف، وضمير منهم يرجع إلى ما رجع إليه ضمير سيقولون.

ولكن الكثير في الاستعمال القرآني أن يخالف بين الضمائر إذا تعدد مرجعها لسهولة التمييز^(١) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ قَوْمٌ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ (التوبة: ٣٦). فضمير منها وهو لاثنى عشر شهرا، أتى به مفردا، وضمير منهن وهو للأربعة، أتى به جمعا، وكلا الأمرين جائز في كليهما، ولكن سنة القرآن إذا أعاد الضمير على جمع ما لا يعقل، أعاده مفردا إذا كان لأكثر من عشرة، وجمعا إذا كان لأقل منها^(٢).

وإذا كان مرجع الضمير مفرد اللفظ جمع المعنى، راعى الأسلوب القرآني اللفظ أولاً، والمعنى ثانياً عند تعدد الضمير، وذلك أجمل في السياق من العكس، وتأمل ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٨). وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (الأنعام: ٢٥). فإن هذا الأسلوب حديثا عن كل فرد من أفراد هذا المجموع أولاً، ثم حديثا عنه في جماعة ثانياً.

وقد لا تجد في الآية مرجعاً للضمير، ولكنك تحس بوضوح معناه أيما وضوح، لدلالة المقام على هذا المرجع، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَان﴾ (الرحمن: ٢٦). فالضمير في عليها يعود إلى الأرض، من غير أن يجرى لها ذكر، ولكنك لا تجد حرجا ولا مشقة في إدراك معناه.

وقد يضع القرآن الاسم الظاهر موضع الضمير، لأمر تلمسها في كل مكان حدث فيه هذا الوضع، وتأمل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١٩). قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: ١٩، ٢٠). فوضع الله مكان ضميره لأن هذا الاسم يوحى بالجلال، المؤذن بيسر بدء الخلق عليه، وقدرته على إنشاء النشأة الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (التوبة: ٢٥، ٢٦). ففي إظهار المؤمنين بدل أن يقول ثم أنزل الله سكينته عليكم، إظهار لمن ثبت منهم في مظهر من يستحق اسم المؤمن الحقيقي. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (سبا: ٤٣). فأظهر الذين كفروا بدل الإتيان بضمير يعود عليهم، لما في

(٢) المرجع السابق نفسه.

(١) تاريخ الأدب العربي للأستاذ السباعي بيومي ص ٩٢.

ذلك من إبرازهم متعنتين جاحدين، لا يراعون ما يجب أن يكون للحق، من حسن القبول والرضا به، والاطمئنان إليه، وفي ذلك تشنيع عليهم، وتصوير لمدى ضلالهم ومكابرتهم، وعلى هذا المنهج جاء قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحِثُّبِ مَتَّصٍ (٣) وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤)﴾ (ص ١ - ٤). وهو بذلك يشير إلى أن هذا القول لا يكون إلا من كافر يخفى الحق ولا يقربه.

ومما استخدمه القرآن ضمير الشأن أو القصة، وهو ضمير لا مرجع له، تسمعه النفس فتتهياً لسماع ما يأتي بعده، لأن الأسلوب العربي لا يأتي بهذا الضمير إلا في المواطن التي يكون فيها أمر مهم، تراد العناية به، فيكون هذا الضمير أداة للتنبية، يدفع المرء إلى الإصغاء، فإذا وردت الجملة بعده استقرت في النفس واطمأن إليها الفؤاد.

واستمع إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص ١). أو لا ترى الشوق يحفز السامع عندما يصغى إلى هذا الضمير - إلى أن يدرك ما يراد به، فإذا وردت الجملة ثبتت في النفس، وقرت في القلب.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج ٤٦). تجد للضمير هنا من الإثارة وتثبيت المعنى، ما يبين عن فضل هذا الضمير، وما يمنحه الأسلوب من قوة وحسن بيان.

ويستخدم القرآن العلم ولم يستخدم الكنية^(١) إلا في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد ١). وفي اختيار هذه الكنية من الذم، ما ليس في الاسم، وهذا هو السر في اختيارها، وقل استخدامه كذلك للقب، ومنه استخدام إسرائيل، لقب يعقوب، ومعناه عبد الله، وقيل صفوة الله، ولم تخاطب اليهود في القرآن إلا بـ «يا بني إسرائيل»^(٢). ومنه المسيح، لقب لعيسى، قيل معناه الصديق، وقيل الذي لا يمسح ذاهة إلا برئ^(٣).

ويأتي اسم الإشارة للقرب في القرآن، مؤذنا بقربه، قريبا لا يحول دون الانتفاع به، ومن هنا أوتر هذا النوع من أسماء الإشارة، في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيَشْرُرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أُجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء ٩)، أولا ترى أن المقام هنا مقام حديث عن هاد، يقود إلى أقوم الطرق، ولأن يكون هذا الهادي قريبا أنجح لرسالته، وأقطع لعذر من ينصرف عن الاسترشاد بهديه، بينما استخدم اسم الإشارة للبعيد، مشيراً إلى القرآن نفسه عندما تحدث عن بعده عن الريب، فكان الحديث عنه باسم الإشارة للبعيد، أنسب في الدلالة على ذلك.

(١) الإتيان ج ٢ ص ١٤٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المرجع السابق نفسه.

ويستخدم اسم الإشارة للقريب تنبيها على ضعة المشار إليه، كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذَّكُرُ إِلَيْكُمْ﴾ (الأنبياء ٣٦). وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (الفرقان ٤١). وكان فى اسم الإشارة للقريب، ما يشير إلى أن هذا الشخص القريب منا، والذي نعلم من أموره ما نعلم، لا تقبل منه دعوى الرسالة، ولا يليق به أن يذكر آلهتنا بسوء.

ويستخدم اسم الإشارة للبعيد أحيانا ليدل على ارتفاع مكانته، وبعده عن أن يكون موضع الأمل والرجاء، كما فى قوله سبحانه، على لسان امرأة العزيز: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمُنْتِنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُ لَسَجَنٌ وَلِكُونًا مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾ (يوسف ٢٢)، أو ليدل على ما يجب أن يكون عليه من بعد فى المكان والمنزلة، ولعل من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران ١٧٥).

وفى اسم الإشارة لون من الإيجاز والتنبيه معًا، عندما يشير إلى موصوف بصفات عدة، فيبنى الحكم على هذه الصفات، كما فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾ (الأنفال ٢ - ٤).

ويأتى القرآن بالاسم الموصول، عندما تكون صلته هى التى عليها مدار الحكم، كما فى قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء ١٢٢). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَرَاءَ فَلَنْ يَاقَبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (آل عمران ٩١).

والمجىء باسم الموصول، فضلا عما ذكرناه، يثير فى النفس الشوق إلى معرفة الخبر، وقد تكون الصلة نفسها ممهدة لهذا الخبر ودالة عليه، وقرأ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يَسْتُرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنْ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ (التوبة ٢٠ - ٢٢). أو لا ترى فى الصلة ما يوحى إليك بأنه قد أعد لهم خير عظيم، يناسب إيمانهم وهجرتهم، وجهادهم بأموالهم وأنفسهم.

ومن خصائص اسم الموصول استطاعته أن يخفى تحته اسم المذنب، وفى ذلك من الرجاء فى هدايته، ما ليس فى إفشاء اسمه وفضيحه، وتأمل قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الحج ٨)، وقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ (العنكبوت ١٠)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (لقمان ٦). ففى هذا وغيره ذم لمن يتصف بذلك، ودعوة له فى صمت إلى الإقلاع والكف، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُغْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة ٢٠٤). وجاء قوله تعالى بعده: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة ٢٠٧). ليكون فى مقابلته، حتى تكون الموازنة قوية جلية، تدفع إلى العمل الصالح ابتغاء مرضاة الله.

وقد يعدل القرآن عن العلم إلى الاسم الموصول، إذا كان فيه زيادة تقرير لأمر يريده القرآن، كما فى قوله تعالى: ﴿وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ (يوسف ٢٣). ألا ترى فى ذكر اسم الموصول زيادة تقرير لعفته، فهو فى بيتها، ووسائل إغرائه موفورة عندها، وهو تحت سلطانها، ولن تفهم هذه المعانى إذا جاء باسمها.

ويستخدم اسم الموصول كذلك، لإظهار أن الأمر لا يستطاع تحديده بوصف، مهما بولغ فيه، تلمس ذلك فى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (١٨) ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (الشعراء ١٨، ١٩). وقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنْ آلَمِ مَا عَشِيَهِمْ﴾ (طه ٧٨). وفى ذلك ترك للخيال يسبح، ليكمل الصورة ويرسمها.

ويستخدم القرآن التعريف بأل، فتكون للعهد حيناً، وللجنس حيناً آخر، ومن أجمل مواقعها فيه أن تستخدم لاستغراق خصائص الجنس، كما فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ٢). فكأنه قال ذلك هو الكتاب المستكمل لخصائص جنسه، فهو الكتاب الكامل.

وتأتى الإضافة فى القرآن أحياناً لتعظيم المضاف كقوله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل ٨٨). أو تحقيره كما فى قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المجادلة ١٩).

وقد يعدل عن الإضافة، حيث يبدو فى ظاهر الأمر أن المقام لها، كما فى قوله سبحانه على لسان إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (مريم ٤٥). فالعدول عن إضافة العذاب إلى الرحمن لعدم التجانس بينهما، فالمناسب للعذاب أن يضاف إلى الجبار، أو المنتقم مثلاً، لا إلى مصدر النعم، أما السر فى وصف العذاب بأنه من الرحمن، فالإشارة إلى أن العذاب إنما كان، لأنه كفر بمن كان مصدراً للنعمة، ولم يقم بواجب شكره.

الإفراد والتذكير وفروعهما

قال أبو منصور الثعالبي: لم يأت لفظ الريح في القرآن إلا فى الشر، والرياح إلا فى الخير، قال الله عز وجل: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّيمِ (٤٢)﴾ (الذاريات ٤١، ٤٢). وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ (٢٠)﴾ (القمر ١٩، ٢٠). وقال جل جلاله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ (الأعراف ٥٧). وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مَبْشُرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَعْلَمَ أَنَّكُمْ بِآيَاتِهِ لَا تُبْتَغَوْنَ مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الروم ٤٦).

ولعل السبب فى ذلك أن ريح الشر، تهب مدمرة عاصفة، لا تهدأ، ولا تدع الناس يهدءون، فهى لاستمرارها ريح واحدة، لا يشعر الناس فيها بتحول ولا تغير، ولا يحسون بهدوء يلم بها، فهى متصلة فى عصفها وشدة تحطيمها، وذلك مصدر الرهبة منها والفرع، أما الرياح التى تحمل الخير فتهب حيناً، وتهدأ حيناً، لتسمع للسحب أن تمطر، فهى متقطعة تهب فى هدوء، ويشعر المرء فيها بفترات سكون، وأنها ريح متتابعة، ففى تعبير القرآن تصوير للإحساس النفسى.

ووصفت الريح مفردة بالطيبة فى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِن أُنجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (يونس ٢٢، ٢٣): لتقابل ريح الشر، ولأن إفراد الريح مع السفن هو الرحمة بها، ولو أنها جمعت، فقد يدل الجمع على مجيء الريح من مهاب متعددة، وفى ذلك دمار لها.

وأبى القرآن - كما سبق أن ذكرنا - أن يجمع الأرض على أرضين، ولعله وجد فيها ثقلاً على اللسان فتركها.

قال الأستاذ السباعى^(١): «ومن دقائق القرآن فى هذا الباب اختياره إفراد السبيل مع الحق، وجمعه مع الباطل، لأن سبيل الحق واحدة، وسبيل الباطل

(٢) تاريخ الأدب العربى ص ٩٥.

(١) فقه اللغة ص ٤٠٣.

متعددة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام ١٥٣). ومن هذه الجهة بعينها، مجيء النور مفرداً للهدى، والظلمات جمعاً للضلال، وكلمة ولى بالإفراد مضافة إلى المؤمنين، وبالجمع مضافة إلى الكفار. قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة ٢٥٧).

واستخدام القرآن السماء مفردة ومجموعة، يدلنا على الفرق بين المعنيين في الاستخدام القرآني قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٩). فهو يعنى بالسماء هذه الجهة المرتفعة التي نشاهدها فوق رؤوسنا، ويعنى بالسموات هذه الكواكب السبعة، التي تدور في أفلاكها، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (البروج ١). وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢٢). وقوله تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (نصلت ١٢). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر ٤١).

واستخدام القرآن جموعاً لم يستخدم مفرداتها، كالأصواف والأوبار، في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (النحل ٨٠). وليس في مفرد هذين الجمعيين من ثقل، بل هو مفرداً ومجموعاً حسن رائق، وإنما استخدم الجمع هنا، لأن المقام له فهى أصواف وأوبار عدة متنوعة.

واستخدم الأرجاء في قوله سبحانه: ﴿وَالْمَلِكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الحاقة ١٧)، والألباب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر ٢١). ولم يستخدم مفرد هذين الجمعيين، وهما رجا ولب، والمفرد الأول قل استعماله، والمفرد الثانى قل استعماله بالنسبة لجمعه، وجمع الكلمتين أرق على اللسان من مفرديهما، والمقام يستدعيه فيما ورد فيه، كما استدعى المجيء بالجمع في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَنْ نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ (ص ٦٢). ولم يستخدم «الشريير». وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ (محمد ١٨). فللساعة أشراط عدة، واستدعى المجيء بالمفرد دون الجمع، في

كلمة البقعة، في قوله تعالى في قصة موسى: ﴿فَلَمَّا آتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ (القصص ٣٠)، وليس في الجمع وهو البقاع ثقل ولا نفور. ولم ترد الكلمة في غير هذا الموضع وورد المشرق والمغرب مفردين بمعنى جهة الشروق والغروب، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ (البقرة ١٧٧)، وورد المشرق مثنى في آيتين، هما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينِ﴾ (الزخرف ٣٨). وواضح أن المراد بالمشرقين هنا المشرق والمغرب، وقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (١٧) ﴿فَأَيُّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٨) ﴿(الرحمن ١٧، ١٨). وعلى النسق القرآني يكون المراد بالمشرقين المشرق والمغرب، وبالمغربيين المغرب والمشرق، فيكون في ذلك تكرير، لتعظيم أمر المشرق والمغرب.

وقال بعض المفسرين: المشرقان هما مشرق الشمس في الصيف ومشرقها في الشتاء، والمغربان مغربها في الصيف ومغربها في الشتاء^(١). فإذا جمعت كان المراد الجهات التي تشرق منها الشمس أو تغرب، والشمس ترى من الأرض تشرق في كل يوم من مشرق، غير الذي أشرقت منه بالأمس. وللقرآن بعض لفتات في التذكير والتأنيث، يعتمد فيها على ما تنبئ به الكلمة في النفس من معنى، فيعيد الضمير على المعنى الذي أثارته الكلمة، ورأيت من ذلك ثلاثة مواضع:

أولها قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (١١) ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ (١٢) ﴿(الفرقان ١١، ١٢). فلما كانت كلمة السعير تدل على النار المستعرة وتوحى بها، أعاد الضمير عليها مؤنثًا.

وثانيها وصفه البلدة بالميت في قوله سبحانه: ﴿... وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٤٨) ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ (٤٩) ﴿(الفرقان ٤٨، ٤٩). وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (الزخرف ١١)، وسر ذلك أن الذي أحياه المطر؛ إنما هو المكان الذي تقام عليه البلدة، فهو في الحقيقة الذي جرى المطر في عروقه. فحيى، فلما كان المراد بالبلدة المكان صح وصفها بالمتذكر.

وثالثها قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (١٧) ﴿السَّمَاءِ مَنفُطَرٍ بِهِ كَانَ وَغَدُوهُ مَقْفُولًا﴾ (١٨) ﴿(نوح ١٧، ١٨).

ذكر السماء وهي مؤنثة، لأنها بالنسبة إلى الأرض سقف لها، وتنبه الذهن إلى أن السماء سقف، يصور لك تشققها تصويراً قريباً إليك، دانيًا منك. وإن في انتهاج القرآن ذلك النهج من المخالفة الصورية لما يلفت الذهن إلى ما وراء الألفاظ، من معان مقصودة، وصور ملحوظة.

التوكيد والتكرير

التوكيد من أهم العوامل لبث الفكرة في نفوس الجماعات، وإقرارها في قلوبهم إقراراً، ينتهي إلى الإيمان بها، وقيمة التوكيد بدوام تكراره بالألفاظ عينها، ما أمكن ذلك، «فإذا تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوخاً، تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة»^(١) وللتكرار تأثير في عقول المستنيرين، وتأثيره أكبر في عقول الجماعات من باب أولى، والسبب في ذلك كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية، التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منا صاحب التكرار، وانتهى بتصديق المكرر^(٢).

واستخدم القرآن التوكيد وسيلة لتثبيت المعنى في نفوس قارئيه، وإقراره في أفئدتهم، حتى يصبح عقيدة من عقائدهم.

وقد يكرر القرآن الجملة المؤكدة عدة مرات بالألفاظ نفسها، علماً منه بما لذلك من أثر في النفس، فتراه مثلاً في سورة الشعراء يكرر الجملتين الآتيتين خمس مرات، من غير أن يغير من ألفاظهما حرفاً، فقال على لسان بعض رسله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٠٧) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٠٨) ﴿الشعراء ١٠٧، ١٠٨، ١٢٦، ١٤٤، ١٦٣، ١٧٩﴾. وهي وإن كانت مقولة على ألسنة عدة رسل، توحى لتكررها بعبارة واحدة، بصدق هؤلاء الرسل وتثبيت التصديق بهم.

ويؤكد القرآن صفات الله، حتى يستقر الإيمان بها في النفوس، وذلك هو الأساس الذي يبنى عليه الدين، فتسمعه يقول مكرراً ومؤكداً في كثير مما يكرره: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة ٢٠). ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة ١١٠). ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ١١٥). ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة ١٥٣). ﴿إِنَّ اللَّهَ تَسَاكُرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ١٥٨). ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة ١٧٣). ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة ١٩٠). ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة ١٩٥). ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة ١٩٦). ﴿أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة ٢٠٩). ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة ٢٢٢). ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

(٢) المرجع السابق نفسه.

(١) روح الاجتماع ص ١٣٩.

﴿البقرة ١٨١﴾، ﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٣١)، ﴿أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَمِيدٌ﴾ (البقرة ٢٦٧)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (ال عمران ٥)، ﴿إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (ال عمران ٩)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْمِيعَادَ﴾ (الرعد ٣١)، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (ال عمران ١٩٩)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ال عمران ٣٧)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت ٦)، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (ال عمران ١١٩)، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (الأنفال ٤٧)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْمِيعَادَ﴾ (ال عمران ٩).

فهذا التأكيد يقرر معاني هذه الصفات في النفس، وإذا تكررت هذه المعاني في النفس انبثق منها العمل الصالح، المبني على أساس من الإيمان المكين. وفي أحيان كثيرة يستغنى القرآن عن التوكيد بتكريرها في مواضع شتى، وهذا التكرير للصفات في المناسبات المختلفة مصدر توطيدها في النفس.

ويؤكد القرآن وعده ووعيده، فيكرر مؤكداً قوله: إن الله يحب المتقين، وإن الله مع المتقين، وفي مواضع شتى، وقوله: إن الله لا يحب الكافرين، وإن الله لا يهدي القوم الكافرين، وحينئذ يكتفى بالتكرير - كما قلنا - عن توكيد الجملة.

ويؤكد كل خبر هو مجال للشك أو الإنكار، وكلما توغل الخبر في ميدان الشك زادت ألوان المؤكدات، وتأمل لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾ (البقرة ١١-١٤). أولاً تراهم عندما أنكروا الإفساد في الأرض والسفاهة، أكد اتصافهم بها بالأ، وإن، وتعريف ركني الجملة المؤذن بالقصر، وضمير الفصل. ولما كان إقرارهم للمؤمنين بالإيمان بألسنتهم مبعثاً للشك في نفوس شياطينهم، دفعهم ذلك إلى تأكيدهم لهم الثبات على مبادئهم، وأنهم لا يبيغون عنها حولاً.

واقراً قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا مَا لَا عَلَّمْنَا لَوْلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُم مَّرْسَلِينَ (١٦)﴾ (يس ١٣-١٦). ألا ترى المرسلين قد أكدوا رسالتهم بيان، عندما كذبهم أصحاب القرية، فلما لج هؤلاء في التكذيب، زادوا في تأكيد رسالتهم مؤكداً جديداً، هو اللام، وأشهدوا ربهم على صدق دعواهم.

وللتوكيد أساليب كثيرة في القرآن الكريم، فمنها التوكيد المعنوي بكل وأجمع، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (الحجر ٣٠). وفائدة هذا اللون من التوكيد رفع ما يتوهم من عدم الشمول، وإنى أرى هنا ما رآه الفراء^(١) من أن كلهم أفادت ذلك، وأجمعون أفادت اجتماعهم على السجود، وأنهم لم يسجدوا متفرقين. ومنها التوكيد اللفظي، بأن يكرر السابق لفظه، اسما كان، أو فعلا، أو اسم فعل، أو حرفا، أو جملة، كما ترى ذلك في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (النجر ٢١). وقوله: ﴿فَمَهَلَّ الْكَافِرِينَ أَنهَلَهُمْ رُؤُوسُنَا﴾ (الطارق ١٧). وقوله سبحانه: ﴿هَيَّاتِ هَيَّاتِ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ (المؤمنون ٣٦). وقوله: ﴿أَيُّدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِثْمُ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ﴾ (المؤمنون ٣٥)، وقوله: ﴿فَإِن مَّعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِن مَّعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح ٦٠٥). وكثيرا ما تقترن الجملة الثانية بـثم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٨)﴾ (الانفطار ١٧، ١٨).

ومنه تأكيد الضمير المنفصل بمثله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (النمل ٣). وتأكيد الضمير المتصل بالمنفصل، في قوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَن تَلْفِي وَإِنَّمَا أَن نَكُونُ نَحْنُ الْمَلْفِينَ﴾ (الأعراف ١١٥). وفي تأكيدهم ما يشعر بثقتهم بأنفسهم، وقوله تعالى: ﴿فَلَنَّا لَا تَحْفَ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (طه ٦٨). وفي ذلك تثبيت قلب موسى وبعث الطمأنينة إليه.

ومنه تأكيد الفعل بمصدره، ويكون ذلك في الأمور التي يتوهم فيها المجان، فيأتي الفعل لرفع هذا التوهم، وتأمل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء ١٠٤)، فقد يطلق الكلام على الإيحاء، وينصرف الذهن إليه، فجاء المصدر لإزالة هذا التوهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠)﴾ (الطور ٧ - ١٠). أو لا ترى أن اضطراب السماء، وسير الجبال، مما قد تتردد النفس في قبوله، فجاء بالمصدر تأكيدا لوقوعه. وقد يؤكد الفعل بمصدر فعل آخر نيابة عن المصدر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَرَّاسِمَ رَبِّكَ وَتَبَّلَّ إِلَيْهِ تَبْيِلًا﴾ (الجن ٨). وفي ذلك دلالة على ما للتبديل من أثر في استجلاب رضوان الله، فأمر به مؤكدا، ولعل السر في العدول إلى هذا المصدر، هو المحافظة على النغمة الموسيقية للآية.

ومن ألوان التوكيد أن يكون في الجملة أداة من أدوات التوكيد، وهي إن، وأن، ولام الابتداء، والقسم، وألا الاستفتاحية، وهاء التنبيه، وكأن في تأكيد التشبيه، وضمير الشأن، وضمير الفصل، وقد، والسين، وسوف، والنونان في تأكيد الفعل، ودخول الأحرف

(١) الإتيان ج ٢ ص ٦٦.

الزائدة فى الجملة، وتؤكد الجملة بذلك لتثبيت معناها وتوطيدها فى النفس، وكلما كان هذا المعنى مجالا للشك أو الإنكار، كان موضع التوكيد أنسب وأقوى، كما ذكرنا. وقد يؤكد القرآن أمراً هو من البدهة بمكان، لأنه يرمى من وراء ذلك إلى هدف هام، تتبينه النفس عندما تتدبر أمر هذا التوكيد، لترى ما موقعه، ولم كان، وتأمل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيُّتُونَ﴾ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ (المؤمنون ١٥، ١٦). فلما كان تماديهم فى الضلال يصرفهم عن التفكير المستقيم، المؤدى إلى الإيمان، بالله ورسله، واليوم الآخر، وكانت هذه الغفلة تفتتهم عن التفكير فى مصيرهم، فكأنهم مخلدون لا يصيبهم موت ولا فناء - أكد نزول الموت بهم تأكيداً ليفكروا فيه، وفيما يتطلبه نزوله بهم، من عمل صالح ينفعهم بعد هذا الموت.

وقد يكون تقوية التوكيد لقصد الترغيب، كما ترى ذلك فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ٥٤)، فتأكيد هذه الصفة بأربعة تأكيدات، لترغيب العباد فى التوبة، والرجوع إلى الله سبحانه.

تدخل إن فى الكلام، ففضلاً عن تأكيدها لمعنى الجملة، تربط ما بعدها بما قبلها. قال عبد القاهر: «هل شئ أبين فى الفائدة، وأدل على أن ليس سواء دخولها وألا تدخل^(١) من أنك ترى الجملة إذا هى دخلت، ترتبط بما قبلها وتأتلف معه، وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغاً إفراغاً واحداً وكان أحدهم قد سبك فى الآخر، هذه هى الصورة، حتى إذا جئت إلى إن فأسقطتها، رأيت الثانى مبهماً قد نبا عن الأول، وتجافى معناه عن معناه، ورأيت لا يتصل به، ولا يكون منه بسبيل، حتى تجىء بالفاء.. ثم لا ترى الفاء تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه من الألفة، وترد عليك الذى كنت تجد بيان من المعنى، وهذا الضرب كثير من التنزيل جداً، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج ١)، وقوله عز اسمه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِوَعْدِهِ وَأَتُوا الصَّلَاةَ وَآمِنُوا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان ١٧)، وقوله سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ (التوبة ١٠٣)، ومن أبين ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (هود ٣٧). وقد يتكرر فى الآية الواحدة، كقوله عز اسمه: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف ٥٣)، وهى على الجملة من الكثرة، بحيث لا يدركها الإحصاء.

(١) دلالات الإعجاز ص ٢٤٣.

وإنما تقع إن موضع الفاء، إذا كانت جملة ما توضح ما قبلها، وتبين وجه الفائدة فيه، كذلك الآيات التي أوردها عبد القاهر، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج ١). يبين سبب أمرهم بالتقوى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ (الحج ١)، وكذلك ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ (التوبة ١٠٣). بيان للسبب في طلب الصلاة لهم من النبي، ولكن ذلك لا يطرد في كل موضع، بل هناك ما لا يحصى من الجمل التي لا تقتضى الفاء، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢)﴾ (الدخان ٥١، ٥٢). فقبله ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ (الدخان ٥٠)، ولو أنك قلت: «إن هذا ما كنتم به تمترون، إن المتقين في جنات وعيون» لم يكن كلاماً^(١)، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَّتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَتَقْنَا مُبْعَدُونَ (١٠١)﴾ (الأنبياء ١٠٠، ١٠١). فلو أتينا مكان إن بالفاء لم تجد لها وجهاً، كما أنه لا يجوز المجيء بالفاء مكان إن في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الحج ١٧). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف ٣٠). لأن جملة إن الثانية خير عن الأولى في الآيتين، والخبر لا يجوز عطفه على المبتدأ. قال عبد القاهر^(٢): «ومن خصائصها أنك ترى لضمير الأمر والشأن معها من الحسن واللطف، ما لا تراه إذا هي لم تدخل عليه، بل تراه لا يصلح حيث يصلح إلا بها، وذلك في مثل قوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة ١٢٠). وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ (التوبة ٦٣). وقوله: ﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ﴾ (الأنعام ٥٤). وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ﴾ (المؤمنون ١١٧). وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ (الحج ٤٦).

فإن قلت أو ليس قد جاء ضمير الأمر مبتدأ به معرى من العوامل في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص ١). قيل: هو، وإن جاء هنا فإنه لا يكاد يوجد مع الجملة مع الشرط والجزاء، بل تراه لا يجيء إلا بيان، على أنهم قد أجازوا في ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ألا يكون الضمير للأمر.

ولما كان جواب السؤال والجملة التي تلقى في مواضع الجدل مما يحتاج إلى إقراره في نفس السائل والمجادل وتثبيتته في قلبهما، كانت الجملة التي تقع جواباً من المواضع التي تجيء فيها إن، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْتَيْنِ قُلْ سَأَلْتُوْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكْنُتُ لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الكهف ٨٣، ٨٤). وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ

(١) المرجع السابق ص ٢٤٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿الشعراء ٢١٦﴾. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿الأنعام ٥٦﴾. فإذا كان الكلام جواب منكر حشد له أكثر من أداة واحدة للتوكيد. وقد تدخل إن للدلالة على أن المتكلم كان يظن أمراً فحدث خلافه، فيأتي بهذا التوكيد ليرد على نفسه ظنه، وكأنه يريد لهذه النفس أن يستقر فيها هذا النبا الجديد الذي لم تكن تتوقعه، بل تتوقع سواه، وكأنها تريد أن تخلى مكاناً من القلب قد شغل بخاطر، لتحل فيه خاطراً جديداً، وتأمل قوله تعالى حكاية عن أم مريم: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴿ال عمران ٣٦﴾. فأم مريم كان الأمل يملأ قلبها في أن تلد ذكراً نذرته لله، ولطول ما شغلها هذا الأمل تجسم في خيالها، حتى صار كأنه حقيقة واقعة، فلما وضعت مريم فوجئت، فأرادت أن تقر هذا الأمر الجديد في قلبها، حتى تروض نفسها عليه، وتستسلم لما كان. وكذلك قوله تعالى: حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿الشعراء ١١٧﴾. فلم يكن نوح يتوقع أن يكذبه قومه، وقد جاءهم من ربهم بالنور والهدى، فكان تكذيبهم صدمة له يريد أن يوطن عليها نفسه.

والتأكيد بإن أقوى من التوكيد باللام المؤكدة، واللام المؤكدة هي لام الابتداء في قوله تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ﴿الحشر ١٣﴾. وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴿القلم ٤﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴿الليل ١٢، ١٣﴾. ولام القسم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴿يوسف ٩١﴾.

وهنا نقف عند قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿مريم ٦٦﴾. فقد يبدو أن اللام لا موضع لها هنا لأن الإنسان المتحدث منكر للبعث. ولكن التأمل يبين أن هذا الإنسان المنكر إنما يحكى ما حدثه به الرسول حين أكد له هذا البعث. ومن أمثلة «ألا» التنبيهية التي تفيد التوكيد قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّافِهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿البقرة ١٣﴾ وقوله سبحانه: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴿هود ٨﴾. ومن أمثلة «ها» التنبيهية، ولم ترد في القرآن إلا داخلة على ضمير المخاطبين المخبر عنه باسم الإشارة - قوله تعالى: ﴿هَأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴿ال عمران ١١٩﴾. ويبدو لى أن منشأ التوكيد في البدء بهاتين الأداتين يعود إلى ما فيهما من تنبيه السامع إلى ما سيرد بعدهما من أخبار، وتهيئته لسماعها، وذلك لا يكون إلا حيث يعتنى بهذه الأخبار، لتستقر في النفس وثبت بها.

ويفيد ضمير الشأن التوكيد من ناحية أنه يثير النفس، ويدفعها إلى معرفة

المراد منه، فإذا جاء تفسيره استقر هذا التفسير في النفس، وتأكد فيها، وليس بكثير استخدام هذا الضمير في القرآن، وإنما يكون في المواضع التي يراد بها تعظيم أمر وتفخيمه عن طريق إبهامه ثم إيضاحه. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص ١). و﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج ٤٦). و﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الأنبياء ٩٧).

أما ضمير الفصل فهو كثير في القرآن، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَتَمُودَ فَمَا أَبْنَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى﴾ (النجم ٤٣ - ٥٢).

وقد استخدم القرآن هنا ضمير الفصل في الأفعال التي هي مظنة الاشتراك، كما ترى ذلك في جملة الإضحاك والإبكاء، والإماتة والإحياء والإغناء والإقناء، أما حيث لا تدعى الشركة فلا حاجة إلى هذا الضمير، كما ترى في جمل خلق الزوجين، والنشأة الأخرى، وإهلاك عاد الأولى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيشُنِي ثُمَّ يُخْبِنِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾ (الشعراء ٧٥ - ٨٢)، وترى هنا ما رأيت في الآية الماضية من المجيء بضمير الفصل حيث يتوهم في الفعل شركة، كما في الهداية والإطعام والشفاء، أما حيث لا تتوهم تلك الشركة فلا يأتي ضمير الفصل كما في الخلق والإماتة والإحياء. ويقوى التوكيد في ضمير الفصل حتى يدل على القصر والاختصاص، كما ترى ذلك في الآيتين السالفتين، فإن ضمير الفصل نفى الشركة، وجعل الفعل خاصا بالله وحده، وتلمس القصر الذي أفاده ضمير الفصل في قوله سبحانه على لسان عيسى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة ١١٧)، فبعد وفاة عيسى لم يكن الرقيب عليهم سوى الله وحده.

هذا وقد تحدث البلاغيون طويلا فيما تفيد به الباء الزائدة في خبر ما، وليس من تأكيد في الجملة، منشؤه ما للباء الزائدة من معان، منها المصاحبة، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة ١٤٤). وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿المجادلة-١٠﴾. ترى هذه الباء قد نفت كل صلة تربط بين الله والغفلة، فى الآية الأولى، وبين السحر والضير فى الآية الثانية، فلا صحبة بينهما ولا تلاق.

وكرر القرآن فى سورة الرحمن نيفا وثلاثين مرة قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن-١٦). متسائلا عما يستطيع أن ينكره الجن والإنس مما أولاهما الله من نعم، فلعل فى هذا السؤال المتكرر ما يثير فى نفس سامعيه اليقين بأنه ليس من الصواب نكران نعم تكررت وآلاء توالى.

وهنا يحسن أن أقف مشيراً إلى ما قد يبدو حيناً من أن لا وجه لهذا التساؤل بعد بعض آيات السورة، كما يتراءى ذلك فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴿(الرحمن-٢٦-٢٨). فأى نعمة يذكر بها الجن والإنس فى فناء هذا العالم؟ ولكن تأملا فى هذه الآيات وما ورد من هذا السؤال بعد وصف اليوم الآخر وأهواله، يدل على أن مثل هذا السؤال سيوجه بعد فناء هذا العالم، فكأن القرآن يقرر أن سيلقى مثل هذا السؤال، يوم تنشق السماء، ويوم يعرف المجرمون بسيماهم، أفلا يجدر بالمرء أن يفكر طويلا، كما أوحى القرآن بذلك، فى تلك الآلاء والنعم، فيقوم بواجب الإيمان بالنعم وشكرها، حتى لا يقف موقف الجاحد لهذه النعم يوم يحاسب الله الثقيلين.

وكررت فى سورة المرسلات تلك الجملة المنذرة، وهى قوله تعالى: ﴿وَنِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (المرسلات-١٩). وإذا نظرنا إلى هذه السورة، وجدناها تتحدث عن وقوع اليوم الآخر، وتصفه، فلا جرم كرر هذا الإنذار عقب كل وصف له، أو فعل يقع فيه، أو عمل من الله يدل على قدرة، يحيى بها الناس بعد موتهم، وفى هذا التكرير ما يوحى بالرهبة، ويملأ القلب رعباً من التكذيب بهذا اليوم الواقع بلا ريب.

وفى سورة الشعراء، كررت الآية الكريمة، وهى قوله تعالى: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ (الشعراء-٨، ٩). ثمانى مرات وكانت متمكنة من موضعها فى كل مكان حلت فيه، فقد جاءت فى هذه السورة أولاً، بعد أن وجه القرآن نظرهم إلى الأرض، أو ليس فيما تنبته من كل زوج بهيج ما يثير فى النفس التأمل لمعرفة خالق الأرض ومحبيها. واستمع إليه سبحانه يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ (الشعراء-٧-٩).

ويكرر الآية فى موضع آخر، تحدث فيه عن انفلاق البحر لموسى، ونجاته، وغرق فرعون، وتلك آية من أكبر دلائل قدرته سبحانه، فهى جديرة بتسجيلها

والإشارة إليها. قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)﴾ (الشعراء ٦٣ - ٦٨).

وكررت تلك الآية ست مرات أخرى عقب كل ما يجدر أن يكون عظة يعتبر بها، كتصوير جند إبليس، وقد كبكبوا في جهنم، وأخذوا يختصمون فيما بينهم، ويقررون أنهم كانوا في ضلالة وعمى، ويتمنون لو عادوا ليصلحوا ما أفسدوه، أو ليس في ذلك من العظة ما ينهى عن مثل هذا المصير.

وكررها كذلك عقب قصة صالح ولوط وشعيب، لأن مصير أقوامهم حقيق بأن تتلقى منه العظات والعبر، وكأن تلك الآية المكررة تشير إلى مرحلة من القول، يحسن الوقوف عندها والتريث لتدبرها، وتأمل ما تحوى من دروس تستفاد مما مضى من حوادث التاريخ.

وختم الآية بوصفه تعالى بالعزة والرحمة فيه كل المناسبة للحديث عن مصير الكافر والمؤمن، فهو عزيز يعاقب الكافر، ورحيم بمن آمن.

وتجد الآية التي كررت في سورة القمر، وهي قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ (القمر ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠) - منبهة في كل موضع وردت فيه، إلى أن ما سيأتى بعدئذ مما عنى القرآن بالحديث عنه، تذكرة وعظة، وهو لذلك جدير بالتأمل الهادئ والتدبر والادكار.

وقد يحدث التكرير في آيتين متوالياتين، كما في قوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢)﴾ (النساء ١٣١، ١٣٢). وذلك لتثبيت الإيمان بغنى الله عن عبادة العابد، في قلوب الناس، ليقبلوا على العبادة مؤمنين بأنها لخيرهم وحدهم، بل قد يكون التكرير في الآية الواحدة وذلك لتثبيت المكرر في النفس، كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر ١٨)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران ٤٢).

ويوحى التكرير في سورة «الكافرون» باليأس إلى قلوب من كفر من أن ينصرف الرسول عن دينه إلى ما كان يعبد هؤلاء الكفرة، فليتدبروا أمرهم بينهم ملياً، ليروا سر هذا الإصرار من محمد، فمساهم يدركون أن هذا السر هو أن الرسول على حق، فيما يدعو إليه، فلم ينصرف عنه إلى أديان لا سند لها من الصواب والحق.

القصر

يستخدم القرآن ألوانا من القصر، عندما يراد إثبات الحكم لمذكور ونفيه عما عداه، فقد يقصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً، بحيث لا يتصف بهذه الصفة إلا ذلك الموصوف وحده، كما تجده في قوله سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُتَوَكِّمٍ﴾ (محمد ١٩)، وقوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (٤) ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥) (الفاتحة ٤، ٥). وقد لا يريد هذا الحصر الحقيقي بل يبغى إثبات الحكم لموصوفات يعتقد اتصافها بغير هذه الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام ١٤٥)، فليس الطعام المحرم هو ما ذكر في تلك الآية فحسب بدليل آية المائدة وإنما ذكرت تلك المحرمات هنا في معرض الرد على من كان يعتقد حلها.

وقد يقصر موصوفا على صفة، ولم يرد في القرآن هذا القصر حقيقياً، ومما ورد منه إضافياً قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ (ال عمران ١٤٤)، فليس المراد هنا قصر محمد على الرسالة فحسب، بحيث لا يتعداها إلى غيرها، بل المراد أن محمداً مقصور على الرسالة، لا يتعداها إلى الخلوص من الموت الذي استعظموا أن يلم به.

وقد تتجسم صفة من صفات الشيء، حتى تظفي على ما سواها، وحتى كأن الموصوف قد خلص لها فلم يعد متصفاً بغيرها، فيصح قصره عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام ٣٢).

ويخاطب القرآن بأسلوب القصر من يعتقد الشركة، فيثبت القرآن بهذا الأسلوب الحكم لواحد وينفيه عن غيره، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة ٧٣).

وقد يقلب به ما يعتقد المخاطب، كما ترى ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْزِمُنْ كَمَا آمَنَ السَّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿البقرة ١٣﴾، فقد كان المنافقون، كما ترى، يعتقدون أن المؤمنين سفهاء دونهم.

واستخدم القرآن من طرق القصر (ما وإلا)، وهى أقوى أدواته لما فيها من وضوح معنى القصر، ولذا تستخدم فى الأمور التى هى مجال الشك والإنكار، نجد ذلك فى قوله سبحانه: ﴿تَخُنْ أَغْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (النمل ٤٧). ألا ترى أن الظالمين يخاطبون بذلك قوماً آمنوا، وينكرون دعوى سحر الرسول.

وقوله سبحانه: ﴿وَنُحَوِّثُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (النمل ٦)، فالتخويف يبعث فى النفس الشك فى أنهم ينصرفون عن كفرهم، فكان ثمة مدعاة لتأكيد زيادة طغيانهم.

وقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء ٨٢)، فهذا القرآن الذى هو شفاء ورحمة، مجال لشك النفس فى أنه خسارة للظالمين، فكان المجال مجال تأكيد ذلك بما وإلا.

فإذا جاء أمر من الأمور المسلم بها بالنفى والإثبات، فذلك لتقدير أمر صار به فى حكم المشكوك فيه، كقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣)﴾ (فاطر ٢٢، ٢٣). فالمجىء هنا بالنفى والإثبات لأن النبى قد خوطب خطاب من يظن أنه يستطيع أن يحول قلوب المشركين عما هى عليه من الإيذاء والعناد، ولا يعلم علم اليقين أن ليس فى وسعه شىء أكثر من التحذير والإنذار، فجرى الأسلوب كما جرى فى خطاب الشاك، فقيل: «إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ».

وكقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَغْلَمَ الْغَيْبِ لَا سَتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ١٨٨)، فهو يخاطب قوما يرون فى الرسول مخلوقا قد يملك لنفسه الضر والنفع، ويعلم الغيب، فكان من المناسب، وتلك حالهم، أن يأتى من أدوات القصر بالنفى والاستثناء، يزيل بها بذور الشك من نفوس سامعيه.

وكقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَفَى اللَّهِ شِكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلَنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠)﴾ قَالَتْ لَهُمْ رَسُولُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلَكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (إبراهيم ١٠، ١١).

فإن هؤلاء المشركين «جعلوا الرسل كأنهم بادعائهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم

عن أن يكونوا بشرًا مثلهم، وادعوا أمرًا لا يجوز أن يكون لمن هو بشر، ولما كان الأمر كذلك أخرج اللفظ مخرجه حيث يراد إثبات أمر يدفعه المخاطب ويدعى خلافه، ثم جاء الجواب من الرسل الذي هو قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (إبراهيم ١١). كذلك بيان وإلا دون إنما، لأن من حكم من ادعى عليه خصمه الخلاف في أمر هو لا يخالف فيه، أن يعيد كلام الخصم على وجهه، ويجيء به على هيئته، ويحكيه كما هو^(١).

ويجىء النفي والاستثناء أيضا لبيان تأكيد الأمر في نفس قائله، كما في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْنَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء ٥٢). فهذا تعبير صادق لشعور المبعوثين يوم القيامة، بأنه ما انقضى عليهم منذ وفاتهم سوى أمد يسير.

كما يجىء للإجابة عن سؤال محقق أو مقدر لتأكيد لهذا الجواب، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ (المائدة ١١٦، ١١٧).

واستخدم إنما، والأصل فيها أن تأتي في الأمور التي يدعى أنها من الوضوح بمكان، قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَمْ يُحْمَلْهُمُ قَلْبٌ وَلَا أَجْدٌ مَا أَحْمَلِكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)﴾ (التوبة ٩١ - ٩٣). ألا ترى أنه من الوضوح بمكان مواخذة هؤلاء الأغنياء القادرين على المساهمة في الجهاد، ثم يستأذنون راضين بأن يكونوا مع الخوالف. وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال ٢). فواضح بين أن المؤمنين ليسوا سوى هؤلاء الذين تخاف قلوبهم إذا ذكروا الله، ويزدادون إيمانًا إذا تليت عليهم آياته ويتوكلون على ربهم.

ولأنها تستخدم في الأمور الواضحة جاء قوله تعالى حكاية عن اليهود: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة ١١). فقد ادعوا أن إصلاحهم أمر واضح لا يحتاج إلى دليل، ولذا احتوى الرد عليهم فنونا من التوكيد، إذ قال

(١) دلالات الإعجاز ص ٢٥٦.

سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة ١٢). وكذلك حكى القرآن عنهم فى موضع آخر فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة ١٤). فهم يدعون لشياطينهم أن استهزاءهم بالمؤمنين من الأمور التى لا مجال للريب فيها، ولا تكون مبعثا لسوء ظن شياطينهم فيهم.

وقد تجيء إنما فى موضع هو مجال للشك أو الإنكار كما فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾ (الشعراء ١٥٣). فهم يخاطبون الرسول الذى ينكر ولا ريب هذا الحكم، ولكنهم أتوا بتلك الصيغة، كأنهم يدعون وضوح أنه مسحور لا ينطق عن عقل واع مفكر.

قال عبد القاهر^(١): « ثم اعلم أنك إذا استقرت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه، نحو أنا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر ٩)، أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يذم الكفار، وأن يقال إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم، فى حكم من ليس بذى عقل وإنكم إذا طمعتم منهم فى أن ينظروا ويتذكروا، كنتم كمن طمع فى ذلك من غير أولى الألباب، وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَخْشَاهَا﴾ (النازعات ٤٥)، وقوله عن اسمه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ (ناظر ١٨)، المعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فهو كأنه ليس له أذن تسمع، وقلب يعقل، فالإنذار معه كلا إنذار. »

وإنما فى مقام التعريض وسيلة مؤدبة مؤثرة معاً فضلاً عن إيجازها. أما إنها مؤدبة فلأنها تصل إلى الغرض من غير أن تذكر الطرف المقابل، ومؤثرة من ناحية أنك توحى بأن ترك التصريح بما يخالف ما أثبتته هو من الواضح بمكان، كما أن الاكتفاء بالمثبت يوحي أحياناً بأنه لا يليق أن يوازن بين ما أثبت وما نفى.

ويغلب على إنما فى القرآن أن تكون بمثابة الجواب عن سؤال يقتضيه السياق قبلها صريحاً أو ضمناً^(٢)، يكثر فى الصريح سبقها بمادة القول، كما فى قوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَآ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآ تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَتْمِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَآ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف ١٨٧). ومن السؤال الضمنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ

(١) المرجع السابق ص ٢٧٢.

(٢) تاريخ الأدب العربى للأستاذ السباعى ص ١٠٥.

مَنْ يَلْمِزْكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أَغْطَوْا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُغْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ (التوبة ٥٨ - ٦٠).

وقل أن تستخدم أنما مفتوحة الهمزة وسيلة للقصر في القرآن، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (الأنبياء ١٠٨). فالآية الكريمة تقصر الوحي على وحدانية الله، والقصر هنا إضافي لاجتيازي.

ويفيد التقديم الحصر في مواضع كثيرة، كما سبق أن ذكرنا، ومن أظهر ما يبدو فيه الحصر للتقديم مواضع الاستفهام، وخذ لذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الزخرف ٤٠)، فمعنى الآية أنت بخاصة قد أوتيت قدرة إسماع الصم وهداية العمى، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُغَيِّرَ اللَّهُ اتِّخَذَ وَلِيًّا فَأَطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام ١٤). وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام ٤٠، ٤١). ففي الآية الأولى اتجه الإنكار إلى اتخاذ غير الله ولياً، وفي الآية الثانية لا يسألون عن مطلق الدعاء، ولكن عن دعاء غير الله، بإفراده بالدعاء أو بإشراكه مع الله، فقد حصل بالتقديم معنى قولك أكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً؟! ومعنى قولك أكون غير الله بمثابة أن يكون موضعاً لدعائكم. وكذلك الحكم في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَاحِدًا نَبِيَّهُ﴾ (القمر ٢٤).

ومن وسائل القصر في القرآن الكريم ضمير الفصل^(١)، وقد سبق بيان ذلك في باب التوكيد.

وتعريف طرفي الجملة وسيلة للقصر أيضاً، وكثيراً ما يذكر بين الطرفين ضمير الفصل كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (المشر ٢٠). وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة ٥). وضمير الفصل في هذا ومثله يجعل ما بعده خالصاً لأن يكون خبراً.

(١) هو ضمير حر لا محل له من الإعراب يأتي بصيغة المرفوع مطابقاً لما قبله - السباعي بيومي.

الاستفهام

ورد الاستفهام فى القرآن الكريم على أصل معناه، وهو طلب الفهم ومعرفة المجهول، كما فى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (الأعراف ١٨٧). وقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء ٢٣)، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ (المائدة ١١٢)، وقوله: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا تُلَوِّهَنَا﴾ (البقرة ٦٩)، وقوله: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ (البقرة ٦٨)، وذلك الاستعمال كثير فى القرآن، وأكثر منه أن يخرج الاستفهام عن أصل وضعه، لمعان أخرى تفهم من سياق الكلام.

فمن ذلك الإنكار ومعنى الاستفهام حينئذ معنى النفى، وما بعده منفى، ولذلك تصحبه إلا، ويعطف عليه المنفى، ويكون معناه فى الماضى معنى لم يكن، وفى المستقبل معنى لا يكون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْزِلْ عَلَيْنَا آيَةً فَتَأْتِي السَّمَاءُ بِغُمامٍ مُمِيطٍ﴾ (الأنعام ١١١)، و﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ (المائدة ١١٢)، و﴿فَهَلْ يُهْلِكُ الْإِنْسَانَ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الأحقاف ٣٥)، و﴿الْكُمْ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْتَى﴾ (النجم ٢٢)، و﴿أَنْزَلْنَا مَكُّمُوهَا وَأَنْشَمَ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (هود ٢٨)، و﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيِّنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ (الإسراء ٤٠)، و﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (ال عمران ٢٢).

ولعل السرفى جمال أسلوب الاستفهام هنا، والعدول إليه عن أسلوب النفى، هو أن الاستفهام فى أصل وضعه يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير، يقع به هذا الجواب فى موضعه، ولما كان المسئول يجب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفى، كان فى توجيه السؤال إليه حملا له على الإقرار بهذا النفى، وهو أفضل من النفى ابتداء.

ومنها التوبيخ على فعل وقع، وكان الأولى ألا يقع، أو على ترك فعل ما كان ينبغى ألا يقع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْغاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (الصافات ١٢٥). وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (النساء ٩٧)، والاستفهام هنا كذلك يثير فى النفس التفكير ويدفعها إلى تدبر الأمور حتى تقتنع بتفكيرها الخاص، بأنه ما كان ينبغى أن يقع ما وقع، أو كان الصواب أن يقع ما لم يقع.

ومنها التقرير، وهو حملك المخاطب على أمر قد استقر عنده، والاستفهام فى التقرير للنفى، فإذا دخل على النفى صار الكلام موجبا، ولذا يعطف عليه الموجب الصريح، ويعطف هو على الموجب الصريح، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّبٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (الفيل ٢، ٣). والعدول عن الإخبار إلى الاستفهام حمل للمخاطب على الاعتراف بعد التدبر والأناة، وتأمل قوله سبحانه: ﴿الْأَسْتَأْ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف ١٧٢).

ومنها التعجب كما فى قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، وقوله سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ (البقرة ٤٤)، والعتاب كقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لِهَيْمٍ﴾ (التوبة ٤٣). والاستبطاء فى قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبًا وَالصَّارِعَ إِذْ يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة ٢١٤). وتنبية المخاطب على الضلال حين تدفعه بالاستفهام إلى التفكير وتدبر العواقب، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢)﴾... ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦)﴾ (التكوير ٢، ٢٦).

وتحس بالهول والخوف يثيره الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢)﴾ (الحاقة ٢، ١). وقوله: ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢)﴾ (القارعة ٢، ١). وفهم التهويل من الاستفهام، لأنك به توحى إلى المخاطب بأن ما ذكر لا يليق أن يمر به المرء من الكرام، بل من الواجب التريث والتهمل وفهم حقيقته ومدلوله. وبالتهديد والوعيد فى قوله: ﴿أَلَمْ نَهْلِكِ الْأُولِينَ﴾ (المرسلات ١٦). وبالتشويق والترغيب فى قوله سبحانه: ﴿هَلْ أَدْرِكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (الصف ١٠). وبالتحضيض فى قوله: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ (التوبة ١٣) وبالأمر فى قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة ٩١)، وإيراد الأمر فى صورة الاستفهام فضلا عما فيه من تعبير مؤدب، لأنك تترك مخاطبك بالخيار بين أن يفعل وألا يفعل - فيه إغراء بالعمل وحث عليه.

وتستفيد التمنى من الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأعراف ٥٣). ولعل السر فى إيرادهم التمنى فى أسلوب الاستفهام، هو تصوير هذا الأمل الذى

يجول بنفوسهم مجسما فيها تجسماً قوياً، حتى ليتلمسونه بين
ظهرانهم.

وتحس بالاستهزاء فى الاستفهام الوارد فى قوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ
أَصْلَٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ (هود ٨٧).

وبالاستبعاد فى قوله: ﴿أَنْتَى لَهُمُ الدَّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ (الدخان ٢٣).

وقد يكون الاستفهام مثاراً لتنبية المخاطب على أمر يغفل عنه، ولا يوليه من
عنايته ما هو به جدير، كما فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ
لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ (الفرقان ٤٥). وفى إيراد هذه المعانى بأسلوب الاستفهام تشويق، وإثارة
للتفكير للاهتمام إلى معرفة وجه الصواب.

الأمر والنهي

الأصل في الأمر أن يكون لطلب الفعل على سبيل الإيجاب، كقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلْتُوَلِّتْكَ قِبَلَهُ تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة ١٤٤).

ولكنه يجيء لغير الإيجاب كثيرا، فيكون مثلاً للدعاء في قوله تعالى: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة ٦). وللتهديد في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (فصلت ٤٠)، ألا ترى أن هذا الأمر يحمل معنى عدم الاكتراث بأعمالهم، لأن وبالها عائد عليهم لا محالة. وللتعجيز في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ (يونس ٣٨). وفي هذا الأمر معنى التحدى، ليظهر عجزهم في وضوح وجلاء. ولما كان الأثيم ولا ريب في أقصى حالات التنبه لما ينزل به من عذاب أليم، ولما يغلى في بطنه كغلي الحميم، كان الأمر في قوله سبحانه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان ٤٩)، للإهانة. ويأتي الأمر لأغراض أخرى تدرك من سياق المقام.

والأصل في النهي أن يكون لطلب الكف على سبيل التحريم كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام ١٥١). ويأتي لغير ذلك، كالدعاء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ (آل عمران ٨). ويفهم من النهي في قوله تعالى: ﴿قَالَ احْسَبُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ (المؤمنون ١٠٨). الإهانة ومن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التحريم ٧)، اليأس من جدوى الاعتذار. ويأتي النهي في القرآن لغير ذلك.

التمنى والترجى

التمنى طلب حصول أمر محبوب مستحيل الوقوع أو بعيده، والحرف الموضوع له «ليت» كما في قوله سبحانه: ﴿يَالَيْتِي مِتَّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ (مریم ٢٣).

وقوله سبحانه: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص ٧٩)، والمتمنى فى الآية الأولى مستحيل الوقوع، والثانى بعيد.

وقد يتمنى بهل كما أشرنا إلى سر ذلك فى فصل الاستفهام، وبلو: كما فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ (البقرة ١٦٧)، وسر المجيء بلو للتمنى، وهى تدل على الامتناع، إشعار السامع من أول الأمر بامتناع هذا المتمنى واستحالة وقوعه.

أما الترجى ففى أمر محبوب قريب الوقوع، والحرف الموضوع له لعل كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (القصص ٢٢). وقد ترد لعل دالة على توقع أمر محذور، كما فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (الشورى ١٧).

النداء

لم يستخدم القرآن من أدوات النداء سوى يا، ويكون النداء لطلب إقبال المدعو ليصغى إلى أمر ذى بال، ولذا غلب أن يلى النداء أمر أو نهى، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)﴾ (المدثر ١، ٢)، وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (المائدة ٨٧). وقد يتقدم عليه الأمر، كما فى قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا زَوْجَ الْيَوْمِ أَيْهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (يس ٥٩)، وقد يعقب النداء جملة خبرية تليها جملة الأمر، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ (يوسف ٧٨)، وقد لا تاتى جملة الأمر كما فى قوله: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ (النمل ٢٩).

وحيثما يأتى الاستفهام بعد النداء، كقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ (التوبة ٣٨). أو قبله كقوله: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (الزمر ٦٤).

وكثيراً ما يحذف لفظ النداء فى القرآن كما فى قوله سبحانه: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (الحجر ٥٧)، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَا كِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُومٍ (٥٢)﴾ (الواقعة ٥١، ٥٢).

ولا يكاد يستخدم حرف النداء مع الرب، بل ينادى مجرداً من حرف النداء، ولعل فى ذلك تعبيراً عن شعور الداعى بقربه من ربه، كقوله تعالى: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يَكْلَفُ اللَّهُ

نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
 عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لِطَآئِفَةٍ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا
 وَارْحَمْنَا ﴿البقرة ٢٨٥-٢٨٦﴾. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾
 (البقرة ٢٦٠).

وعلى كثرة ما نودى الرب في القرآن لم أعتز عليه مسبقا بحرف النداء إلا في
 تلك الآية الكريمة: ﴿وَقِيلِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ
 فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿الزخرف ٨٨، ٨٩﴾. وألمح في المجيء بحرف النداء هنا خاصة،
 تعبيراً عن حالة نفسية أُلْمِتْ بالرسول، وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم،
 فلم يزداهم ذلك إلا تمادياً في كفرهم فأطبق الهم على فؤاده، وكأنما شعر بتخلى
 الرب عن نصرته، وبعده عن أن يمد إليه يد المساعدة فأتى بحرف النداء، كأنما
 يريد أن يرفع صوته، زيادة في الضراعة إلى الله واستجلاب رضاه.

ولم يناد لفظ الجلالة في القرآن، واستغنى عنه حينئذ بكلمة اللهم، قال
 سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ (آل عمران ٢٦)،
 وأحس في كلمة ﴿اللَّهُمَّ﴾ فخامة وروعة لا أحس بهما في «ياالله».

القسم

لجأ القرآن إلى القسم متبعا النهج العربى فى توكيد الأخبار به، لتستقر فى النفس، ويتزعزع فيها ما يخالفها، وإذا كان القسم لا ينجح أحيانا فى حمل المخاطب على التصديق، فإنه كثيرا ما يوهن فى النفس الفكرة المخالفة، ويدفع إلى الشك فيها، ويبعث المرء على التفكير القوى فيما ورد القسم من أجله.

أقسم القرآن برب، ولكنه ذكره حيننا مضافا إلى السماء والأرض، فقال: ﴿قُورَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (الذاريات ٢٣). لما فى هذه الإضافة من الإشارة إلى خضوع السماء والأرض لأمره، وفى ذلك تعظيم لشأنه، وإيحاء بأن من كان هذا أمره لا يزعج باسمه إلا فيما هو حق لا مرية فيه. وحيننا مضافا إلى المشارق والمغرب، فقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ (المعارج ٤٠). لما توحى به هذه الإضافة من القدرة البالغة التى تسخر هذا الجرم الهائل وهو الشمس، فيشرق ويغرب فى دقة وإحكام. وحيننا مضافا إلى الرسول، فقال: ﴿قُورَبِكَ لَنُحْشِرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ (مريم ٦٨). وكأنه بذلك يوحى بأن أرباب المشركين ليست جديدة بأن يقسم بها، أو تكون محل الإجلال والتقدير.

واستخدم ما كان العرب يستخدمونه من الحلف بحياة المخاطب، فأقسم بحياة رسوله عندما قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر ٧٢). وفى ذلك تشريف لحياة الرسول، وتعظيم لأمره فى أعين السامعين.

فإذا أقسم القرآن بمصنوعات الله كان فى ذلك تنبيه إلى ما فيها من روعة، تدفع إلى التفكير فى خالقها، وتأمل جمال القسم فى قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾ (الشمس ١ - ١٠). أو لا ترى هذا القسم مثيرا فى النفس أقوى إحساسات الإعجاب بمدبر هذا الكون، ومنظم شئونه هذا التنظيم المحكم الدقيق، أو ليست هذه الشمس التى تبلغ أوج مجدها وجمالها عند الضحى، وهذا القمر يتلوها إذا غابت، وكأنه يقوم مقامها فى حراسة الكون وإبهاجه، وهذا

النهار يبرز هذا الكوكب الوهاج، ثم لا يلبث الليل أن يمحو سناه، وهذه السماء وقد أحكم خلقها، واتسقت في عين رائيها كالبناء المحكم الدقيق، وهذه الأرض وقد انبسطت في سعة، وهذه النفس الإنسانية العجيبة الخلقة التي يتسرب إليها الهدى والضلال في دقة وخفاء، أليس في ذلك كله ما يبعث النفس إلى التفكير العميق في خالقها، وأن هذا الخالق لا يذكر هو وما خلق محاطا بهذا الإجلال، إلا في مقام الحق والصدق.

وتأمل جلال القسم في قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ (الواقعة ٧٥، ٧٦)، وقوله سبحانه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾ (النجم ١، ٢)، وأنظر كيف وجه النظر إلى ما في حفظ النجوم في مواقعها فلا تسقط ولا تضطرب، من قدرة قديرة على هذه الصيانة والضبط، وما يبعثه هوى النجوم من رهبة في النفس، وكلا الأمرين مثار إعجاب بخالقه، يبعث في النفس الاطمئنان إلى خبر يكون هو موضع القسم فيه.

وأقسم القرآن في مواضع أخرى بالليل والنهار والنجوم، لما أنها مظاهر للقدرة الباهرة. كما أقسم بالرياح تحمل السحب مليئة بالمياه، فتجري بها في رفق ويسر، ثم تدعها توزع مياها هنا وهناك، إذ قال: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ (٥)﴾ (الذاريات ١ - ٥). وفي قدرة الريح على حمل السحب الموقرة بالماء، وجريها بها في الفضاء، ثم في نزول المطر ما يدل على قدرة الخالق الباهرة.

وهكذا في كل ما أقسم به الله مظهر من مظاهر قدرته وعظمته. وحينما يثير العاطفة الوطنية، التي تدفع إلى تقديس الوطن وإعزازه، وتحمل النفس على قبول ما يقسم عليه به، تجد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾ (التين ١ - ٤). وفي قوله سبحانه: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤)﴾ (البلد ١ - ٤).

ويقسم القرآن غالباً على صدق ما جاء به هذا الدين، الذي نزل القرآن لتثبيت أسسه وقواعده، فيقول: ﴿إِنْ إِلَهُكُمُ لَوَاحِدٌ (٤)﴾ (الصافات ٤). و﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ (١)﴾ (الذاريات ٥). و﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)﴾ (الواقعة ٧٧). و﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾ (النجم ٢). وأحياناً يؤكد أحوال الإنسان فيقول: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكُمْ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨)﴾ (العاديات ٦ - ٨). إلى غير ذلك من آيات تتحدث عن طبائع الإنسان، وأخلاقه، وصلته بهذا الدين.

وقد تحدثنا فيما مضى عن حذف جواب القسم، وسر هذا الحذف، ونضيف إلى ما أسلفناه أن «أكثر ما يحذف الجواب إذا كان في نفس القسم به دلالة على المقسم عليه، فإن المقصود يحصل بذكره، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز، كقوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (ص ١). فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذو الذكر.. ما يدل على المقسم، وهو كونه حقا من عند الله غير مفترى.. ولهذا قال كثيرون: إن تقدير الجواب، إن القرآن لحق. وهذا يطرد في كل ما شابه ذلك، كقوله: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (ق ١). وقوله: ﴿لَا أَسْمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (القيامة ١). فإنه يتضمن إثبات المعاد»^(١)، وقد تحدثنا كذلك عن لا وموقعها في القسم.

«ومن لطائف القسم في القرآن قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ (الضحى ١ - ٣). وتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل - المقسم عليه، وهو نور الوحي الذي واقاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمدا ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل، على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه»^(٢).

الفصل والوصل

عنى البلاغيون بالحديث عن الواو، التي تذكر فتصل الجملة بأختها، أو تترك فتدع الجملتين منفصلتين، وغالوا في تقدير معرفة الموضع الذي تصلح فيه الواو، والموضع الذي لا تصلح فيه، حتى قصر بعض العلماء البلاغة على معرفة الفصل والوصل، وقد قصروا حديثهم في ذلك الموضع على الجمل التي لا محل لها من الإعراب، وهذا لأن الجمل التي لها موقع من الإعراب، ويكون موضع الواو فيها من الواو بوضوح بمكان؛ لأنها تشرك الجملة الثانية في حكم الأولى، فتكون مثلها خبرا، أو صفة، أو حالا، أو مفعولا، أو غير ذلك، والأمر فيه سهل بيّن. أما الذي يشكل، فأن تعطف على الجملة التي لا موضع لها من الإعراب جملة أخرى، فهنا نقف لنرى لِمَ لم يستو الحال بين أن تعطف، وبين أن تدع العطف، وخصت الواو بالحديث؛ لأن غيرها من حروف العطف تفيد مع الإشراك معانى، كأن تدل الغاء على الترتيب من غير تراخ، وثم على الترتيب مع التراخي، وأو للتردد بين شيئين، فإذا عطف جملة على جملة بواحد منها، ظهرت فائدة هذا الحرف واضحة جلية. أما الواو فإنها لما كانت لمطلق الجمع، لا تصل جملة

(٢) المرجع السابق نفسه.

(١) الإتيان ج ٢ ص ١٣٥.

بأخرى، إلا إذا كان المعنى فى إحدى الجملتين متصلاً بمعنى الجملة الأخرى، ومرتبطة به، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَاتَّابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (٤٥) ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتِهِمْ فَضَبَطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦) ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُواكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَتَغَوَّنَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٧) ﴿لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذِنْ لِي وَلَا تَنْفِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩) ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٠) ﴿

(التوبة ٤٥ - ٥٠). فالواو فى هذه الآيات قد وصلت الجمل بعضها ببعض لِمكان الصلة بينها والتناسب، فعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر يناسبه ارتياب قلوبهم ارتياباً ينفمسون فيه، وخذ الآية الثانية تر التناسب واضحاً بين تقاعسهم عن الخروج، وعدم الإعداد له، وبين كره الله لانبعاثهم، وهكذا تجد الصلة جامعة بين الجملة وأختها جمعاً يهين للواو مكانها بينهما.

وتأمل جمال الوصل فى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧) ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨) ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩) ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٠) ﴿(الغاشية ١٧ - ٢٠). فالمطلوب فى الآية التأمل فيما خلق الله، ليصلوا بهذا التأمل إلى الإيمان بالبعث الذى يبنى عليه أساس الدين، والتناسب هنا بين الجمل واضح، فقد بدأ حديثه بالإبل التى هى عنصر أساسى فى حياة البدوى فى صحرائه، وانتقل من الإبل إلى ما يروونه أمامهم فى كل حين من سماء رفعت بلا عمد، وللسماء عند البدوى مكانة خاصة، يتجه إليها ببصره، يستنزل منها الغيث ويهتدى بنجومها فى سراه بالليل، فإذا هبط ببصره قليلاً رأى هذه الجبال الشامخة، منصوبة تناطح السماء بقممها، وترسو فى ثبات واطمئنان على أرض مهدت له، وسطحت أمامه، أو لا ترى أن تنقل البصر بين هذه المخلوقات تنقل هادئ طبيعى لا قفز فيه، وأن ارتباط بعضها ببعض فى طبيعة البدوى مهد للربط بينها، وعطف بعضها على بعض.

واتصلت الجمل فى قوله سبحانه: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَكَرَتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (٣) ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ (٤) ﴿(الانفطار ١ - ٤). لما كانت تلك المظاهر من أمارات القيامة، وما أقوى الصلة بين السماء تنشق، والكوكب تنتثر، لا نظام يجمعها، ولا جانبية تحفظها فى مكانها، وما أقوى الصلة أيضاً بين تفجر البحار

فتطغى مياهها، وبعثرة القبور تخرج ما دفن فيها من الموتى، فكأنها تتفجر كذلك. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥)﴾ (الانشقاق ١-٥).
 واقراء قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الأنفال ٢٦). إن فى هذه النعم لرابطاً يصل بعضها ببعض، ويسمح للواو أن تجمع بينها، فهو لاء قوم كانوا قليلين مستضعفين، يخشون أن يغير عليهم مغير، يسلبهم الحرية، فلا جرم كانت نعمة الأمن، لها المكان الأول بين نعم الله عليهم، ولم يقف الأمر عند حد الأمن، بل زاد عليه أن أيدهم بنصره، ولم تنته نعمه عند حد الطمأنينة والغلب، بل رزقهم خفض العيش، وطيبات الحياة.

وتأمل الواو الواصلة فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ (الحج ٣). فالمجادلة فى الله واتباع الشيطان ينشئان من عدم الاحتكام إلى العقل. وقوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمِ اصْبِرُوا وَارْبُوا بِمَا لَمْ رَجَا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان ١٧-١٩). فإنه إذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فالمقيم لها جدير أن يأخذ على عاتقه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإن من يعرض نفسه لذلك، جدير أن يلم به بعض الأذى، فوصى من ينهض بهذا العبء أن يحتمل ويصبر، وإذا كان قد أمره بالصلاة، وهى خضوع للرب، فجدير به ألا يمتلى بالتية ولا الخيلاء، وأن يسير على الأرض فى تودة، ويتحدث إن تحدث فى وداعة وهدوء، ومن ذلك ترى هذه الصلوات القوية التى تربط بين هذه الجمل ربطاً محكماً. وخذ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطره ١٥). لترى الرباط القوى بين فقر الناس وغنى الله.

وتأمل جمال الوصل فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ (الانفطار ١٣، ١٤). وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ (ال عمران ٥٤). وقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء ١٤٢). وقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ (يونس ٣١). وقوله: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء ١٤٢). وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الأعراف ٣١).

وقد يحتاج الأمر إلى فضل تدبر لمعرفة الصلة التى تربط بين جملتين، تلك

الصلة التي تسمح بمجىء الواو بينهما، كما فى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ
 قُلْ هِيَ مَوَاقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ (الحج ١٨٩). ففى النظرة
 العاجلة يبدو كأنه لا ارتباط بين أحكام الأهله وبين حكم إتيان البيوت من
 ظهورها، ولكن الربط نشأ من أن ناساً من العرب كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحدهم
 بيتاً ولا خيمة ولا خباء من باب، بل إن كان من أهل المدر نقب نقباً من ظاهر
 البيت ليدخل منه، وخرج من خلف الخيمة أو الخباء إن كان من أهل الوبر^(١). فلما
 تحدث القرآن عن الأهله وأنها مواقيت للحج، ناسب ذلك أن يتحدث عن عاداتهم
 هذه فى الحج، ذاكراً أنها ليس من البر فى شىء.

وتفصل الجملتان إذا كان بينهما امتزاج معنوى، كأن ترفع الجملة الثانية
 ما قد يتوهم فى الجملة الأولى من تجاوز أو سهو ونسيان، كما تجد ذلك فى قوله
 تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ٢). فتعريف جزأى الجملة الأولى،
 والمجىء باسم الإشارة للبعيد، مؤذن بوصف هذا الكتاب بأنه قد بلغ أسمى
 درجات الكمال، ولما كان ذلك قد يوهم أن ثمة مبالغة فى هذا الوصف، نفى هذا
 الوهم، وأتبع ذلك بقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى فى بلوغه تلك الغاية من الكمال، تأكيداً
 لما فهم من الجملة الأولى، وأتبعه كذلك بقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تأكيداً ثانياً؛ لأن
 معنى بلوغ القرآن للكمال إنما هو كماله فى الهداية والإرشاد.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي
 أُذُنِهِ وَقْرًا﴾ (لقمان ٧). لم يقل: ﴿وَكَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا﴾؛ لأن المقصود من
 التشبيه بمن فى أذنيه وقر، هو بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع، ولكن
 الثانى أبلغ وأكد فيما سيق له، فالمراد من التشبيهين جميعاً بيان أنه ليس لتلاوة
 الآيات عليه من فائدة، وأن يجعل حاله إذا تليت عليه كحال إذا لم تتل، ولا ريب
 فى أن تشبيهه بمن فى أذنيه وقر، أبلغ فى دلالة على هذا المعنى.

وعلى هذا النسق مما كانت الجملة الثانية فيه مؤكدة للجملة الأولى قوله
 تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى
 قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ (البقرة ٦، ٧). فقوله: ﴿لَا
 يُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ وقوله: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
 وَعَلَى سَمْعِهِمْ...﴾ تأكيد ثان أبلغ من الأول. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا
 بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ (البقرة ٨، ٩). فليست المخادعة شيئاً

(١) الطراز ج ٢ ص ٤٩.

سوى قولهم آمنة، من غير أن يكونوا مؤمنين وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة ١٤). وقوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف ٣١). وقوله سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ (يس ٦٩). وقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ (النجم ٣، ٤).

وقد يكون الامتزاج المعنوي بين الجملتين منشؤه أن الجملة الثانية شارحة وموضحة للجملة الأولى، كما ترى ذلك في قوله سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأُولَٰئِ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (المؤمنون ٨١، ٨٢). فالقول الثاني ورد شارحاً ومبيناً للقول الأول، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ (١٣٣) وَجَنَاتٍ وَغَنَوبٍ (١٣٤)﴾ (الشعراء ١٣٢-١٣٤). فجاء الإمداد الثاني موضعاً للأول. وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١)﴾ (يس ٢٠، ٢١). فلما كان المراد حث المخاطبين على اتباع الرسل، جاء الاتباع الثاني موضعاً لذلك، إذ معناه اتباعوا من لا تخشرون شيئاً من دنياكم في اتباعهم، وهم مهتدون، تنالون باتباعهم سلامة دينكم، وإذا أنت تأملت هذه الآيات وجدت الجملة الثانية في الآية الأولى تقع من جملتها السابقة كما يقع بدل الكل من الكل، ووجدتها في الآية الثانية واقعة موقع بدل البعض من الكل، وفي الآية الثالثة واقعة موقع بدل الاشتمال. وقد تقع موقع عطف البيان، كما تجد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (طه ١٢٠)﴾. فجاء قوله: ﴿قَالَ يَا آدَمُ﴾ بدون الواو؛ لأنه يوضح الوسوسة ويبين عنها، ولو أنه جاء بالواو لأوهم المخالفة والتغاير.

وقد يكون منشأ هذا الامتزاج أن الجملة الثانية واقعة في موضع جواب لسؤال صريح في الجملة الأولى، أو يفهم منها، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوَّلَهُ آلَاءُ تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (٢٦) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَنْ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَاتَّبِعْ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١)﴾ (الشعراء ٢٣-٣١). ومنه قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ (البقرة ١١، ١٢). وقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (البقرة ١٤، ١٥).

وتتجلى دقة القرآن كذلك فى وصل الجمل بباقي حروف العطف غير الواو، وتأمل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (الشعراء ٧٥-٨١). فهو قد عطف السقى على الإطعام بالواو إرادة للجمع بينهما بلا ترتيب، ثم عطف الإحياء على الإماتة بثم؛ لأنه إنما يكون بمهلة وتراخ، وترى هذه الدقة فى قوله تعالى: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢)﴾ (عبس ١٧-٢٢). فجاء قوله من نطفة خلقه بلا واو؛ لأنها مفسرة لقوله من أى شىء خلقه، «وعطف قوله: فقدره بالفاء، تنبيهاً على أن التقدير مرتب على الخلق وعلى عدم التراخى بينهما، وعطف السبيل بثم، لما بين الخلق والهداية من التراخى والمهلة الكثيرة، ثم عطف الإماتة بثم، إشارة إلى التراخى بينهما بأزمنة طويلة، ثم عطف الإقبار بالفاء، إذ لا مهلة هناك، ثم عطف الإنشاز بثم، لما يكون هناك من التراخى باللبث فى الأرض أزمنة متطاولة».

وقد يبدو فى بادئ الرأى أن الموضع لحرف غير ما ذكر، ولكن التأمل الدقيق يجعل الموضع للحرف المذكور، كما تجد ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمَنْ أَعْفُلًا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف ٢٨). فقد يبدو بادئ الرأى أن الموضع للفاء هنا، فيقال: ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه؛ لأن فعل المطاوعة لا يعطف إلا بالفاء، تقول أعطيته فأخذ، وكسرتة فانكسر، ولكن التأمل يدل على أن الآية تعدد صفات الشخص الذى نهى الرسول عن طاعته، ومن أغفل الله قلبه عن ذكره فقد غفل قلبه، فكأنه قال: ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا، واتبع هواه، ومن هنا كانت الواو فى مكانها.

ويجمع القرآن بالواو أيضاً بين المفردات المتناسبة، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام ١٦٢). وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف ٣٣).

وجرى الاستعمال القرآنى على ألا يعطف بعض الصفات على بعض إلا إذا كان بينها تضاد، تجد ذلك فى قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَائِمَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (التحریم ٥). فقد مضت الصفات بعضها بجوار بعض من غير عاطف، إلا بين ثيبات وأبكار،

للتنوع ورفع التناقض، وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٢٤)﴾ (الحشر ٢٣، ٢٤). فلما تضادت الصفات عطف كما في قوله سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (الحديد ٣). وجاءت الواو في قوله سبحانه: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ (٣)﴾ (غافر ٢، ٣). لأن الصفتين وهما غفران الذنوب وقبول التوبة تواردا على معنى واحد، هو التجاوز عن الذنب، فجاءت الواو بينهما مؤذنة بالتغاير، ومشيرة إليه، فالله يغفر الذنب حيناً من تلقاء نفسه بفضل، وحيناً يعفو عنه بسبب ندم التائب واعتذاره، فدللت الواو على هذا المعنى، وأشارت إليه.

بدائع القرآن

ليس البديع في يد الفنان حلية تقتسر، ولا زينة يستغنى الكلام عنها، ولا زخرفة يأتي دورها، بعد أن يكون المعنى قد استوفى تمامه. ولا يجيء مكانه في المرتبة الثالثة، بعد استيفاء علمي المعاني والبيان حقهما، فإن الإنتاج الأدبي يبرز إلى الوجود في نظمه الخاص، وبه الصور البيانية، والمحسنات البديعية، دفعة واحدة، فكأنما هذا المحسن البديعي جاء في مكانه ليقوم بنصيبه من أداء المعنى أولاً، أما ما فيه من جمال لفظي فقد جاء من أن تلك الكلمة بالذات يتطلبها المعنى، ويقتضى المجيء بها.

وليس كل ما ذكره علماء البديع بألوان جمال تستحق أن تذكر بين المحسنات، وذلك يتطلب معاودة النظر، في دراسة هذه الألوان، لاستبقاء الجميل، وحذف ما لا غناء فيه.

ولست أريد الحديث الآن عن جناية البديع على الأدب العربي عندما يراد لذاته، فيستغلق المعنى، ويضوّل. أما ما ورد في القرآن مما نعهده محسنات بديعية فقد وردت الألفاظ التي كان بها هذا المحسن البديعي في مكانها، يتطلبها المعنى، ولا يغني غيرها غناءها.

خذ ما ورد في القرآن الكريم من الجناس التام، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤)﴾ (النور ٤٣، ٤٤). تجد كلمة ﴿الْأَبْصَارِ﴾ الأولى مستقرة في مكانها فهي جمع بصر،

ويراد به نور العين الذى تميز بين الأشياء وكلمة ﴿الْأَبْصَارِ﴾ الثانية جمع بصير بمعنى العين، ولكن كلمة ﴿الْأَبْصَارِ﴾ هنا أدل على المعنى المراد من كلمة (العيون)، لما أنها تدل على ما منحته العين من وظيفة الإبصار، وهى التى بها العظة والاعتبار، فأنت ذا ترى أن أداء المعنى كاملا، تطلب إيراد هذه الكلمة، حتى إذا وردت رأينا هذا التناسق اللفظى.

واقراً قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ (الروم ٥٥). فكلمة ﴿السَّاعَةِ﴾ الأولى جىء بها دالة على يوم القيامة، واختير لذلك اليوم هذا الاسم هنا؛ للدلالة على معنى المفاجأة والسرعة، وكلمة ﴿سَاعَةٍ﴾ الثانية تعبر أدق تعبير عن شعور هؤلاء المجرمين، فهم لا يحسون أنهم قضوا فى حياتهم الدنيا برهة قصيرة الأمد جداً، حتى يعبروا عنها ببرهة أو دقيقة مثلا، ولا بفترة طويلة، يعبرون عنها بيوم مثلا، فكانت كلمة ﴿سَاعَةٍ﴾ خير معبر عن شعورهم بهذا الوقت الوجيز.

وما ورد فى القرآن من جناس ناقص، فسبيله سبيل الجناس التام، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَهْتَوُونَ عَنْهُ وَيَتَأَوْنَ عَلَيْهِ وَإِنْ يُهْلَكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأنعام ٢٦). ألا ترى أن موقف الكفار من القرآن، أنهم يبعدون الناس عنه، كما يبعدون أنفسهم عنه، فعبر القرآن عن ذلك بكلمتين متقاربتين ليشعر قريهما بقرب معنيهما.

ويطول بى القول إذا أنا مضيت فى بيان كيف حلت كل كلمة فى جمل الجناس محلها، بحيث لا تغنى كلمة أخرى فى هذا الوضع غناءها، وحسبى أن أشير إلى تلك الآيات، التى ورد فيها ما كون بعض ألوان من الجناس، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠)﴾ (الضحى ٩، ١٠). وقوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣)﴾ (القيامة ٢٢، ٢٣). وقوله: ﴿وَالنَّفَّاثَاتُ السَّاقِ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠)﴾ (القيامة ٢٩، ٣٠). وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ (٧٣)﴾ (الصافات ٧٢، ٧٣).

فأنت ترى النهى عن القهر جاء إلى جانب اليتيم، بمعنى الغلبة عليه والاستيلاء على ماله، وأما السائل فقد نهى عن نهره وإذلاله، فكلتا الكلمتين جاءت فى موضعها الدقيق، كما وردت كلمتا (ناظرة وناصرة) أى مشرقة، وإشراقها من نظرها إلى ربها، وقد توازنت الكلمتان فى جملتيهما لما بينهما من صلة السبب بالمسبب. واختيار كلمة ﴿السَّاقِ﴾ فى الآية الثانية لتصوير هذه الرحلة التى ينتقل فيها المرء من الدنيا إلى الآخرة، فكأنه سوق مسافر ينتهى به السفر إلى الله. وفى كلمة المنذرين ما يشير إلى الربط بينهم وبين المنذرين الذين أرسلوا إليهم.

وقل مثل ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (الهمزة ١). فإن شدة التشابه بين الكلمتين توحى بالقرابة بينهما، مما يجعل إحداهما مؤكدة للأخرى فالهمزة المغتاب، واللمزة العياب، فالصلة بينهما وثقى، كالصلة بين الفرح والمرح فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (غافر ٧٥). وإيثار كلمة النبأ فى قوله سبحانه: ﴿وَجِثَّتْ مِنْ سَبَابٍ بَنِيَّ يَقِينٍ﴾ (النمل ٢٢). لما فيها من معنى القوة؛ لأن هذه المادة تدل على الارتفاع والنتوء والبروز والظهور، فناسب مجيئها هنا، ووصف النبأ تأكيدا لقوته باليقين.

ويعدون من أنواع البديع المشاكلة، ويعنون بها ذكر الشئ بغير لفظه، لوقوعه فى صحبته، ويمثلون لذلك بقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (الشورى ٤٠). قالوا: فالجزاء عن السيئة فى الحقيقة غير سيئة، والأصل وجزاء سيئة عقوبة مثلها. ويقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوهًا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (ال عمران ٥٤). والأصل أخذهم بمكرهم. ويقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة ١٩٤). قالوا: والمراد فعاقبوه، فعدل عن هذا؛ لأجل المشاكلة اللفظية. ولكننى أرى القرآن أجل من أن يسمى الشئ بغير اسمه لمجرد وقوعه فى صحبته، بل أرى هذا التعبير يحمل معنى، وجىء به ليوحى إلى القارئ بما لا يستطيع أن يوحى به ولا أن يدل عليه ما قالوا إنه الأصل المعدول عنه، فتسمية جزاء السيئة سيئة؛ لأن العمل فى نفسه سوء، وهو يوحى بأن مقابلة الشر بالشر، وإن كانت مباحة، سيئة يجدر بالإنسان الكامل أن يترفع عنها، وكأنه بذلك يشير إلى أن العفو أفضل وأولى، وعلى هذا النسق تماما ورد قوله: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة ١٩٤). وأما مكر الله فأن يفعل بهم كما يفعل الماكر، يمدهم فى طغيانهم يعمهون، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وعدوا من ألوان البديع الاستثناء، ومثلوا له بقوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ (العنكبوت ١٤). وفى هذا التعبير، فضلا عن إيجازه، إيحاء بطول المدة، وتهويل للأمر على السامعين، وفى ذلك تمهيد العذر لنوح فى الدعاء على قومه، وذلك لأن أول ما يطرق السمع ذكر الألف، فتشعر بطول مدته، وتتصور جهاد نوح فى ذلك الزمن المديد، ولن يقلل الاستثناء من شأن هذا التصور، ولا يتحقق هذا الإحساس إذا بدأت بغير الألف.

ومنها اللف والنشر بذكر شيئين أو أكثر، ثم ذكر ما يقابلها، وفيه جمع للمتناسبات من غير فاصل بينها. خذ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ

وَالنَّهَارَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴿القصص ٧٣﴾. ألا ترى بين الليل والنهار مناسبة تجمع بينهما، ثم يثير هذا تطلعا إلى معرفة السبب فى أنهما من رحمته، وفى ذلك عنصر التشويق، وفى تقديم السكون على ابتغاء الفضل تقديم الاستعداد للجهاد فى الحياة على الجهاد. وتأمل كذلك ما يثيره الإجمال من التشويق فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾. وفى الإجمال الأول إعطاء صورة سريعة لهذا اليوم، ثم يعود بعدئذ إلى إكمال الصورة فى تفصيل وإيضاح، وربما يكون قد بدأ عندما فصل بذكر من اسودت وجوههم، ليكون الحديث منتهيا بذكر طريقة الخلاص من عذاب ذلك اليوم. ومن اللف والنشر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء ٢٩). والسر فى الجمع أولا ذكر النهى عنه جملة واحدة، ثم العود بعد ذلك لبيان سر هذا النهى.

وما ورد فى القرآن من طباق بالجمع بين المتضادين، كانت الكلمة فيه مستقرة فى مكانها تمام الاستقرار، سواء كان التضاد لفظا أو معنى، حقيقة أو مجازا، إيجابا أو سلبا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ (ناظر ١٩، ٢٠). فأنت تراه يعقد الموازنة بين هذين الضدين ولا مفر من الجمع بينهما فى الجملة لعقد هذه الموازنة التى تبين عدم استوائهما. وكقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ (النجم ٤٣، ٤٤). وقوله سبحانه: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ (الكهف ١٨).

ومن الطباق السلبى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر ٩). وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ﴾ (المائدة ٤٤). ومن الطباق المعنوى قوله تعالى: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَعْلَمَ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (يس ١٥، ١٦). أى إنا لصادقون فإن الرسول يجب أن يكون صادقا.

ومما يرتبط بالطباق المقابلة بأن يوتى بمعنيين أو أكثر ثم بما يقابل ذلك على الترتيب، فمن الجمع بين الاثنين قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ (التوبة ٨٢). وبين الثلاثة قوله سبحانه: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (الحديد ٢٣). وبين الأربعة قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنَسِرُهُ لِلْإِنْسَانِ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنَسِرُهُ لِلْإِنْسَانِ ﴿١٠﴾﴾ (الليل ٥ - ١٠). وهذه المقابلة بين المعانى تزيدها فى الفكر وضوحا، وفى النفس رسوخا.

ومن ذلك ترى أن ما ورد في القرآن من طباق ومقابلة لم يجئ اعتسافاً، وإنما جاء المعنى مصوراً في هذه الألفاظ، التي أدت المعنى خير أداء وأوفاه، وكان منها هذا الطباق والمقابلة.

ومن ألوان البديع العكس بأن يقدم في الكلام جزء، ويؤخر آخر، ثم يقدم المؤخر ويؤخر المقدم، وجمال العكس في أنه يربط بين أمرين، ويعقد بينهما أوثق الصلات أو أشد ألوان النفور، تجد ذلك في قوله سبحانه: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ (الحج ٦١). وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ (يونس ٣١). وقوله سبحانه: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة ١٨٧). وقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حُلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (المتنحة ١٠). وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام ٥٢).

ومن أجمل أنواعه ائتلاف المعنى مع المعنى بذكر الأمور المتناسبة بعضها إلى جانب بعض، كقوله سبحانه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَخِزْيِي إِلَى اللَّهِ﴾ (يوسف ٨٦). وقد يخفى في بعض الأحيان وجه الجمع بين المعنيين، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (١١٨) وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩) ﴿(طه ١١٨، ١١٩). فقد يبدو أن الوجه الجمع بين الجوع والظمأ، والعرى والضحاء، ولكن التأمل الهادئ يدل على أن الجوع والعرى يسببان الشعور بالبرد فجمعاً معاً، والظمأ والضحاء يسببان الشعور بالحر، إذ الأول يبعث التهاب الجوف، والثاني يلهب الجلد، فناسب ذلك الجمع بينهما.

هذا ولست أرمى هنا إلى حصر ما عثر عليه العلماء من ألوان البديع في القرآن، فقد تكفل بذلك غيري، وأفرد ابن أبي الإصبع لذلك كتاباً عدّد فيه هذه الألوان ومثّل لها، وذكر من ذلك أكثر من مائة نوع، وكل ما قصدت إليه هو بيان أن ما نشعر به من جمال لفظي حيناً ومعنوي حيناً آخر، لم يأت إلا من أن اللفظة القرآنية قد استدعاها المعنى، ولم يكن ثمة لفظة أخرى تغنى عنها، فلما استقرت في مكانها زاد بها الكلام إشراقاً، والمعنى وضوحاً وجلاءً.

التشبيه فى القرآن

- ١ -

أرى واجباً علىّ قبل الحديث عن التشبيه فى القرآن الكريم، أن أتحدث قليلاً عن بعض نظرات للأقدمين فى هذا الباب، لا أوافقهم عليها، ولا أرى لها قيمة فى التقدير الفنى السليم.

فمما اعتمد عليه القدماء فى عقد التشبيه العقل، يجعلونه رابطاً بين أمرين أو مفرقاً بينهما، وأغفلوا فى كثير من الأحيان وقع الشئ على النفس، وشعورها به سروراً أو ألماً، وليس التشبيه فى واقع الأمر سوى إدراك ما بين أمرين من صلة فى وقعهما على النفس، أما تبطن الأمور، وإدراك الصلة التى يربطها العقل وحده فليس ذلك من التشبيه الفنى البليغ، وعلى الأساس الذى أقاموه استجادوا قول ابن الرومى:

بذل الوعد للأخلاء سمحاً وأبى بعد ذاك بذل العطاء

فغدا كالخلاف، يورق للعيون، ويأبى الإثمار كل الإباء

وجعلوا الجامع بين الأمرين جمال المنظر وتفاهة المخبر، وهو جامع عقلى، كما نرى، لا يقوم عليه تشبيه فنى صحيح، ذلك أن من يقف أمام شجرة الخلاف أو غيرها من الأشجار، لا ينطبع فى نفسه عند رؤيتها سوى جمالها ونضرة ورقها وحسن أزهارها، ولا يخطر بباله أن يكون لتلك الشجرة الوارفة الظلال ثمر يجنيه أو لا يكون، ولا يقلل من قيمتها لدى رائئها، ولا يحط من جمالها وجلالها، ألا يكون لها بعد ذلك ثمر شهى، فإذا كانت تفاهة المخبر تقلل من شأن الرجل ذى المنظر الأنيق، وتعكس صورته منتقصة فى نفس رائئها، فإن الشجرة لا يقلل من جمالها لدى النفس عدم إثمارها، وبهذا اختلف الوقع لدى النفس بين المشبه والمشبه به، ولذلك لا يعد من التشبيه الفنى المقبول.

وقبل الأقدمون من التشبيه ما عقدت الحواس الصلة بينهما، وإن لم تعقدھا النفس، فاستجادوا مثل قول الشاعر يصف بنفسجاً:

ولا زوردية تزهو بزرقتهما بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت

فليس ثمة ما يجمع بين البنفسج وعود الكبريت، وقد بدأت النار تشتعل فيه، سوى لون الزرقة التي لا تكاد تبدأ حتى تختفى في حمرة اللهب، وفضلا عن التفاوت بين اللونين، فهو في البنفسج شديد الزرقة، وفي أوائل النار ضعيفها، فضلا عن هذا التفاوت نجد الوقع النفسى للطرفين شديد التباين، فزهرة البنفسج توحى إلى النفس بالهدوء والاستسلام وفقدان المقاومة، وربما اتخذت لذلك رمزاً للحب، بينما أوائل النار في أطراف الكبريت تحمل إلى النفس معنى القوة واليقظة والمهاجمة، ولا تكاد النفس تجد بينهما رابطاً. كما استجادوا كذلك قول ابن المعتز:

كأنما وضوء الصبح يستعجل الدجى نطير غراباً ذا قوادم جـون

قال صاحب الإيضاح: «شبه ظلام الليل حين يظهر فيه ضوء الصبح بأشخاص الغربان، ثم شرط قوادم ريشها بيضاء؛ لأن تلك الفرق من الظلمة تقع في حواشيتها، من حيث يلي معظم الصبح وعموده، لمع نور، يتخيل منها في العين كشكل قوادم بيض». وهكذا لم ير ابن المعتز من الدجى وضوء الصباح سوى لونيها، أما هذا الجلال الذى يُشعر به فى الدجى، وتلك الحياة التى يوحى بها ضوء الصبح، والتى عبر القرآن عنها بقوله: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (التكوير ١٨). - فمما لم يحس به شاعرنا، ولم يقدره نقادنا، وأين من جلال هذا الكون الكبير، ذرة تطير؟!!

وقبلوا من التشبيه ما كان فيه المشبه به خيالاً، توجد أجزاءه فى الخارج دون صورته المركبة، ولا أتردد فى وضع هذا التشبيه بعيداً عن دائرة الفن؛ لأنه لا يحقق الهدف الفنى للتشبيه، فكيف تلمح النفس صلة بين صورة ترى، وصورة يجمع العقل أجزاءها من هنا وهنا، وكيف يتخذ المتخيل مثالا لمحسوس مرئى، وقبل الأقدمون لذلك قول الشاعر:

وكان محمراً الشقيق إذا تصوّب أو تصعد

أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد

ألا ترى أن هذه الأعلام من الياقوت المنشورة على رماح الزبرجد، لم تزك عمق شعور بمحمر الشقيق، بل لم ترسم لك صورته إذا كنت جاهله، فما قيمة التشبيه إذا وما هدفه؟! وسوف أتحدث عن الآية الكريمة التى فيها هذا اللون من التشبيه لنذكر سره وقيمته.

هذا، ولن نقدّر التشبيه بنفاسة عناصره، بل بقدرته على التصوير والتأثير، فليس تشبيه ابن المعتز للهِلال حين يقول:

انظر إليه كزورق من فضاء قد أثقلتة حمولة من عنبر

وتلمس شبه له بهذا الزُورق الفضى المثقل بحمولة العنبر، مما يرفع من شأنه، أو ينهض بهذا التشبيه الذى لم يزدنا شعوراً بجمال الهلال، ولا أنساً برويته، ولم يزد على أن وضع لنا إلى جانب الهلال الجميل صورة شواء متخيلة، وأين الزورق الضخم من الهلال النحيل، وإن شئت فوازن بين هذه الصورة التى رسمها ابن المعتز للهلال، وتلك الصورة التى تعبر عن الإحساس البصرى والشعور النفسى معاً، حينما تحدّث القرآن عن هذا الهلال، فقال: ﴿وَالْقَمَرَ قَدْرًا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس ٣٩). فهذا العرجون القديم أقدر على تصوير القمر كما تراه العين وكما تحسُّ به النفس أكثر من تصوير الزورق الفضى له، كما سنرى.

- ٢ -

التشبيه لمح صِلَة بين أمرين من حيث وقعهما النفسى، وبه يوضح الفنان شعوره نحو شيء ما، حتى يصبح واضحاً وضوحاً وجدانياً، وحتى يحس السامع بما أحس المتكلم به، فهو ليس دلالة مجردة، ولكنه دلالة فنية، ذلك أنك تقول: ذاك رجل لا ينتفع بعلمه، وليس فيما تقول سوى خبر مجرد عن شعورك نحو قبح هذا الرجل، فإذا قلت إنه كالحمار يحمل أسفاراً، فقد وصفت لنا شعورك نحوه، ودللت على احتقارك له وسخريتك منه.

والغرض من التشبيه هو الوضوح والتأثير، ذلك أن المتفطن يدرك ما بين الأشياء من صلوات يمكن أن يستعين بها فى توضيح شعوره، فهو يلمح وضاعة ونوراً فى شيء ما، فيضعه بجانب آخر يلقى عليه ضوءاً منه، فهو مصباح يوضح هذا الإحساس الوجدانى، ويستطيع أن ينقله إلى السامع.

ليس من أغراض التشبيه إذاً ما ذكره الأقدمون من «بيان أن وجود المشبه ممكن وذلك فى كل أمر غريب يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناعه»^(١). وقد استشهدوا على هذا الغرض بقول المتنبى:

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وليس فى هذا البيت تشبيه فنى مقبول، فليس الأثر الذى يحدثه المسك فى النفس سوى الارتياح لرائحته الذكية، ولا يمر بالخاطر أنه بعض دم الغزال، بل إن هذا الخاطر إذا مرَّ بالنفس قلَّ من قيمة المسك ومن التلذذ به، وهذه الصورة التى جاء بها المتنبى ليوضح إحساسه نحو سمِّ فرد على الأنام، ليست قوية مضيئة، تلقى أشعتها

(١) الإيضاح ج ٢ ص ٣٤.

على شعوره، فتضيئه لنا، فإن تحول بعض دم الغزال إلى مسك ليس بظاهرة قريبة مألوفة، حتى تقرب إلى النفس ظاهرة تفوق الممدوح على الأنام، كما أن ظاهرة تحول الممدوح غير واضحة، ومن ذلك كله يبدو أن الرابط هنا عقلي لا نفسي وجداني. وليس من أغراضه ما ذكره الأقدمون أيضاً من الاستطراف، فليس تشبيهه فحم فيه جمر موقد ببحر من المسك موجه الذهب - تشبيهاً فنياً على هذا المقياس الذى وضعناه، فإن بحر المسك ذا الموج الذهبى، ليس بهذا المصباح الوهاج الذى ينير الصورة ويهبها نوراً ووضوحاً.

ولما كان هدف التشبيه الإيضاح والتأثير أرى الأقدمين قد أخطئوا حينما عدوا البليغ من التشبيه ما كان بعيداً غريباً نادراً، ولذلك عدوا قوله:

وكأن أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق
أفضل من قول ذى الرمة:

كحلاء فى برج، صفراء فى نعج^(١) كأنها فضة قد مسها ذهب

«لأن الأول مما يندر وجوده دون الثانى، فإن الناس أبداً يرون فى الصياغات فضة قد موهت بذهب ولا يكاد يتفق أن يوجد درر قد نثرن على بساط أزرق»^(٢). وذلك قلب للأوضاع، وبعد عن مجال التشبيه الفنى الذى توضع فيه صورة قوية تبعث الحياة والقوة فى صورة أخرى بجوارها، وبرغم أن التشبيهين السالفين حسيان أرى التشبيه الثانى أقوى وأرفع، ولست أرمى إلى أن يكون التشبيه مبتذلاً، فإن الابتذال لا يثير النفس، فيفقد التشبيه هدفه، ولكن أن يكون فى قرب التشبيه ما يجعل الصورة واضحة مؤثرة كما سنرى.

- ٣ -

ليس الحس وحده هو الذى يجمع بين المشبه والمشبه به فى القرآن، ولكنه الحس والنفس معاً، بل إن للنفس النصيب الأكبر والحظ الأوفى.

والقرآن حين يشبه محسوساً بمحسوس يرمى أحياناً إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس، تجد ذلك فى قوله سبحانه يصف سفينة نوح: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود ٤٢). ألا ترى الجبال تصور للعين هذه الأمواج الضخمة، وتصور فى الوقت نفسه، ما كان يحس به ركاب هذه السفينة وهم يشاهدون هذه الأمواج، من

(١) البرج بالتحريك أن يكون بياض العين محدقاً بالسواد، والنعج البياض الخالص.

(٢) الإيضاح ج ٢ ص ٦٠.

رهبة وجلال معاً، كما يحس بهما من يقف أمام شامخ الجبال. وقوله تعالى يصف الجبال يوم القيامة: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (المتفوش) (القارعة ٥). فالعهن المنفوش يصور أمامك منظر هذه الجبال، وقد صارت هشّة لا تتماسك أجزاءؤها، ويحمل إلى نفسك معنى خفتها ولينها. وقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدْرَ نَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس ٣٩). فهذا القمر بهجة السماء ومك الليل، لا يزال يتنقل في منازلها حتى يصبح بعد هذه الاستدارة المبهجة، وهذا الضوء الساطع الغامر، يبدد ظلمة الليل، ويحيل وحشته أنسا- يصبح بعد هذا كله دقيقاً نحيلاً محدودباً لا تكاد العين تنتبه إليه، وكأنما هو في السماء كوكب تائه، لا أهمية له، ولا عناية بأمره، أولاً ترى في كلمة العرجون ووصفهما بالقديم ما يصور لك هيئة الهلال في آخر الشهر، ويحمل إلى نفسك ضالة أمره معاً. وقوله تعالى يصف نيران يوم القيامة: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ﴾ (٣٢) كأنه جمالة صفر (٣٣) (المرسلات ٣٢، ٣٣). فالقصر وهو الشجر الضخم، والجمال الصفر توحى إلى النفس بالضخامة والرهبة معاً، وصور لنفسك شرراً في مثل هذا الحجم من الضخامة يطير.

ويرمى أحياناً إلى اشتراك الطرفين في صفة محسوسة، ولكن للنفس كذلك نصيبها في اختيار المشبه به الذي له تلك الصفة، وحسبى أن أورد هنا آيات ثلاث تتبين فيها هذا الذي أشرنا إليه. فالقرآن قد شبه نساء الجنة، فقال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنَسَ قَبْلَهُنَّ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨)﴾ (الرحمن ٥٦ - ٥٨). وقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكَنُونٌ﴾ (الصفات ٤٨). وقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣)﴾ (الواقعة ٢٢، ٢٣). فليس في الياقوت والمرجان واللؤلؤ المكنون لون فحسب، وإنما هو لون صاف حتى فيه نقاء وهدوء، وهي أحجار كريمة تصان ويحرص عليها، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص، وهن يتخذن من تلك الحجارة زينتهن، فقربت بذلك الصلة واشتد الارتباط، أما الصلة التي تريطهن بالبيض المكنون، فضلاً عن نقاء اللون، فهي هذا الرفق والحذر الذي يجب أن يعامل به كلاهما، أو لا ترى في هذا الكون أيضاً صلة تجمع بينهما، وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط والجامع، ولكن للنفس نصيب أى نصيب. وحينئذ يجمع بين الطرفين المحسوسين معنى من المعانى لا يدرك بإحدى الحواس، وقل ذلك في القرآن الكريم الذي يعتمد في التأثير أكثر اعتماد على حاسة البصر، ومن القليل قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف ١٧٩). وصفة ضلال الأنعام من أبرز الصفات وأوضحها لدى النفس.

(١) الصوف.

وكثير في القرآن إيضاح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة، تلقى عليها أشعة الضوء تغمرها فتصبح شديدة الأثر، وها هو ذا يمثل وهن ما اعتمد عليه المشركون من عبادتهم غير الله وهنا لن يفيدهم فائدة ما، فهم يعبدون ويبدلون جهداً يظنونهم مثمراً وهو لا يجدي، فوجد في العنكبوت ذلك الحيوان الذي يتعب نفسه في البناء، ويبذل جهده في التنظيم، وهو لا يبني سوى أو هن البيوت وأضعفها، فقرن تلك الصورة المحسوسة إلى الأمر المعنوي، فزادته وضوحاً وتأثيراً قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت ٤١).

وها هو ذا يريد أن يحدثنا عن أعمال الكفرة، وأنها لا غناء فيها، ولا ثمرة ترجى منها، فهي كعدمها فوجد في الرماد الدقيق، لا تبقى عليه الريح العاصفة، صورة تبين ذلك المعنى أتم بيان وأوفاه، فقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بَرِّئْتُمْ أَغْنَاهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاةُ الْبَعِيدَةُ﴾ (إبراهيم ١٨).

وليس في القرآن سوى هذين اللونين من التشبيه: تشبيه المحسوس بالمحسوس، وتشبيه المعقول بالمحسوس، أما قوله سبحانه: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٦٤) **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ** (٦٥) ﴿(الصفات ٦٤، ٦٥). فالذي سمح بأن يكون المشبه به خيالياً، هو ما تراكم على الخيال بمرور الزمن من أوهام رسمت في النفس صورة رءوس الشياطين في هيئة بشعة مرعبة، وأخذت هذه الصورة يشتد رسوخها بمرور الزمن، ويقوى فعلها في النفس، حتى كأنها محسوسة ترى بالعين وتلمس باليد، فلما كانت هذه الصورة من القوة إلى هذا الحد ساغ وضعها في موضع التصوير والإيضاح، ولا نستطيع أن ننكر ما لهذه الصورة من تأثير بالغ في النفس، ومما جرى على نسق هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَرُ كَأَنَّهُا جَانٌّ وَلِي مُذَبَّرًا وَّلَمْ يُعْقَبْ﴾ (النمل ١٠). ففي الخيال صورة قوية للجنان، تمثله شديد الحركة لا يكاد يهدأ ولا يستقر.

والتشبيه في القرآن تعود فائدته إلى المشبه تصويراً له وتوضيحاً، ولهذا كان المشبه به دائماً أقوى من المشبه وأشد وضوحاً، وهنا نقف عند قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور ٣٥). فقد يبدو للنظرة العجلى أن المشبه وهو نور الله أقوى من مصباح هذه المشكاة، ولكن نظرة

إلى الآية الكريمة ترى أن النور المراد هنا هو النور الذى يغمر القلب، ويشرق على الضمير، فيهدى إلى سواء السبيل، أو لا ترى أن القلب ليس فى حاجة إلى أكثر من هذا المصباح، يلقي عليه ضوءه، فيتهدى إلى الحق، وأقوم السبل، ثم ألا ترى فى اختيار هذا التشبيه إحياء بحالة القلب وقد لفه ظلام الشك، فهو متردد قلق خائف، ثم لا يلبث نور اليقين أن يشرق عليه، فيجد الراحة والأمن والاستقرار، فهو كسارى الليل يخبط فى الظلام على غير هدى، حتى إذا أوى إلى بيته فوجد هذا المصباح فى المشكاة، وجد الأمن سبيله إلى قلبه، واستقرت الطمأنينة فى نفسه، وشعر بالسور يغمر فؤاده. وإذا تأملت الآية الكريمة رأيتها قد مضت تصف ضوء هذا المصباح وتتأنق فى وصفه، بما يصورك قوته وصفاءه، فهذا المصباح له زجاجة تكسب ضوءه قوة، تجعله يتلألأ كأنه كوكب له بريق الدر ولمعانه، أما زيت هذا المصباح فمن شجرة مباركة قد أخذت من الشمس بأوفى نصيب، فصفاً لذلك زيتها حتى ليكاد يضىء ولو لم تمسه نار. ألا ترى أن هذا المصباح جدير أن يبده ظلمة الليل، ومثله جدير أن يبده ظلام الشك، ويمزق دجى الكفر والنفاق. وقد ظهر بما ذكرناه جمال هذا التشبيه ودقته وبراعته.

- ٤ -

أول ما يسترعى النظر من خصائص التشبيه فى القرآن أنه يستمد عناصره من الطبيعة، وذلك هو سر خلوده، فهو باق ما بقيت هذه الطبيعة، وسر عمومته للناس جميعاً، يؤثر فيهم لأنهم يدركون عناصره، ويرونها قريبة سنهم، وبين أيديهم، فلا تجد فى القرآن تشبيهاً مصنوعاً يدرك جماله فرد دون آخر، ويتأثر به إنسان دون إنسان، فليس فيه هذه التشبيهات المحلية الضيقة مثل تشبيه ابن المعتز:

كأن أذريونها والشمس فيه كاليلة

مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

مما لا يستطيع أن يفهمه على وجهه، ويعرف سر حسنه، إلا من كان يعيش فى مثل حياة ابن المعتز، وله من أدوات الترف مثل أدواته.

تشبيهات القرآن تستمد عناصرها من الطبيعة، انظر إليه يجد فى السراب وهو ظاهرة طبيعية يراها الناس جميعاً، فيغرم مرأها، ويمضون إلى السراب يظنون ماء، فيسعون إليه، يريدون أن يطفئوا حرارة ظمئهم، ولكنهم لا يلبثون أن تملأ الخيبة قلوبهم، حينما يصلون إليه بعد جهد جهيد، فلا يجدون شيئاً مما كانوا يؤملون، إنه يجد فى هذا السراب صورة قوية توضح أعمال الكفرة، تظن مجدية

نافعة، وما هي بشيء، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سِيقًا﴾ (النور ٣٩).

ويجد في الحجارة تنبو على الجس ولا تلين، ويشعر عندها المرء بالنبو والجسوة، يجد فيها المثال الملموس لقسوة القلوب، وبعدها عن أن تلين لجلال الحق، وقوة منطق الصدق، فيقول: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة ٧٤). أو لا ترى أن القسوة عندما تخطر بالذهن، يخطر إلى جوارها الحجارة الجاسية القاسية.

ويجد في هذا الذي يعالج سكرات الموت، فتدور عينه حول عواده في نظرات شاردة تائهة، صورة تخطر بالذهن لدى رؤية هؤلاء الخائفين الغزعين من المضى إلى القتال وأخذهم بنصيب من أعباء الجهاد، فيقول: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨) أَشَحَّةَ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (الأحزاب ١٨، ١٩).

ويجد في الزرع وقد نبت ضئيلا ضعيفا ثم لا يلبث ساقه أن يقوى، بما ينبت حوله من البراعم، فيشتد بها ساعده، ويغلظ، حتى يصبح بهجة الزارع وموضع إعجابه، يجد في ذلك صورة شديدة المجاورة لصورة أصحاب محمد، فقد بدءوا قلة ضعافا ثم أخذوا في الكثرة والنماء، حتى اشتد ساعدهم، وقوى عضدهم، وصاروا قوة تملأ قلب محمد بهجة، وقلب الكفار حقدًا وغيظًا فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لَيَظِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ (الفتح ٢٩).

ويجد في أعجاز النخل المنقعر المقتلع عن مغرسه، وفي الهشيم الضعيف الداوى صورة قريبة من صورة هؤلاء الصرعى، قد أرسلت عليهم ريح صرصر تنزعهم عن أماكنهم، فآلقوا على الأرض مصرعين هنا وهناك، فيقول: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠)﴾ (القمر ١٩، ٢٠). ويقول: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ﴾ (القمر ٢١).

فأنت في هذا تراه يتخذ الطبيعة ميدانا يقتبس منها صور تشبيهاته، من نباتها وحيوانها وجمادها، فمما اتخذ مشبهاً به من نبات الأرض العرجون، وأعجاز النخل والعصف المأكول، والشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة، والحبّة تنبت سبع سنابل، وهشيم المحتظر، والزرع الذي أخرج شطأه. ومما اتخذ مشبهاً

به من حيوانها الإنسان فى أحوال مختلفة والعنكبوت والحمار، والكلب، والفراس، والجراد، والجمال، والأنعام، ومما اتخذ مشبهاً به من جمادها العهن المنفوش، والصيب، والجبال، والحجارة، والرماد، والياقوت، والمرجان، والخشب، ومن ذلك ترى أن القرآن لا يعنى بنفاسة المشبه به، وإنما يعنى العناية كلها باقتراب الصورتين فى النفس، وشدة وضوحها وتأثيرها.

هذا ولا يعكر على ما ذكرناه من استمداد القرآن عناصر التشبيه من الطبيعة، ما جاء فيه من تشبيه نور الله بمصباح وصفه بأنه فى زجاجة كأنها كوكب درى؛ لأن هذا المصباح قد تغير وتحول، فإن المراد تشبيه نور الله بالمصباح القوى، والمصباح باق ما بقى الإنسان فى حاجة إلى نور يبده به ظلام الليل. ومن خصائص التشبيه القرآنى، أنه ليس عنصراً إضافياً فى الجملة، ولكنه جزء أساسى لا يتم المعنى بدونه، وإذا سقط من الجملة انهار المعنى من أساسه، فعمله فى الجملة أنه يعطى الفكرة فى صورة واضحة مؤثرة، فهو لا يمضى إلى التشبيه كأنما هو عمل مقصود لذاته، ولكن التشبيه يأتى ضرورة فى الجملة، يتطلب المعنى ليصبح واضحاً قوياً، وتأمل قوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٍ غَمِيٍّ فَهَمٌّ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة ١٨). تجد فكرة عدم سماعهم الحق وأنهم لا ينطقون به، ولا ينظرون إلى الأدلة التى تهدى إليه، إنما نقلها إليك التشبيه فى صورة قوية مؤثرة، كما تدرك شدة الفزع والرهبنة التى ألمت بهؤلاء الذين دعوا إلى الجهاد، فلم يدفعهم إيمانهم إليه فى رضاء وتسليم، بل ملاً الخوف نفوسهم من أن يكون الموت مصيرهم، وتدرك ذلك من قوله سبحانه: ﴿يَجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (الأنفال ٦). وتفهم اضطراب المرأة وقلقها، وعدم استقرارها على حال، حتى لتصبح حياتها مليئة بالتعب والعناء - من قوله سبحانه: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَعْكَلَةِ﴾ (النساء ١٢٩). وتفهم مدى حب المشركين لآلهتهم من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (البقرة ١٦٥). وهكذا تجد للتشبيه مكانه فى نقل الفكرة وتصويرها، وقل أن يأتى التشبيه فى القرآن بعد أن تتضح الفكرة نوع وضوح كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَخْنَا الْجِبَلَ فَرَفَعْنَا فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ﴾ (الأعراف ١٧١). وإذا أنت تأملت أسلوب الآية الكريمة وجدت هذا التعبير أقوى من أن يقال: وإذا صار الجبل كأنه ظلة، لما فى كلمة «نتق» من تصوير انتزاع الجبل من الأرض تصويراً يوحى إلى النفس بالرهبنة والفزع، ولما فى كلمة «فوقهم» من زيادة هذا التصوير المفزع وتأكيده

فى النفس، وذلك كله يمهّد للتشبيه خير تمهيد، حتى إذا جاء ممكن للصورة فى النفس، ووطد من أركانها. ومع ذلك ليس التشبيه فى الآية عملاً إضافياً، بل فيه إتمام المعنى وإكماله، فهو يوحى بالإحاطة بهم، وشمولهم، والقرب منهم قرب الظلة من المستظل بها، وفى ذلك ما يوحى بخوف سقوطه عليهم.

ومن خصائص التشبيه القرآنى دقته، فهو يصف ويقيد حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة، وخذ مثلاً لذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة ٥). فقد يتراءى أنه يكفى فى التشبيه أن يقال: مثلهم كمثل الحمار الذى لا يعقل، ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقاً والتحاماً، حين يقرب بين هؤلاء وقد حملوا التوراة، فلم ينتفعوا بما فيها، وبين الحمار يحمل أسفار العلم ولا يدري مما ضمته شيئاً، فتمام الصورتين يأتى من هذا القيد الذى جعل الصلة بينهما قوية وثيقة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩)، كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠). قَرَأَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١)﴾ (المدثر ٤٩ - ٥١). فربما بدا أنه يكفى فى تصوير إعراضهم وصفهم بأنهم كالحمير، ولكنه فى دقته لا يكتفى بذلك، فهو يريد أن يصور نفرتهم من الدعوة، وإسراعهم فى إبعاد أنفسهم عنها، إسراعاً يمشون فيه على غير هدى، فوصف الحمر بأنها مستنفرة تحمل نفسها على الهرب، وتحثها عليه، يزيد فى هربها وفرارها أسد هصور يجرى خلفها، فهى تتفرق فى كل مكان، وتجرى غير مهتدية فى جريها، أو لا ترى فى صورة هذه الحمر وهى تجد فى هربها لا تلوى على شىء، تبغى الفرار من أسد يجرى وراءها، ما ينقل إليك صورة هؤلاء القوم معرضين عن التذكرة، فارين أمام الدعوة لا يلوون على شىء، سائرين على غير هدى، ثم ألا تبعت فيك هذه الصورة الهزء بهم والسخرية.

ومن ذلك وصفه الخشب بأنها ﴿مُسْنَدَةٌ﴾ فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ (المنافقون ٤). فهى ليست خشباً قائمة فى أشجارها لما قد يكون لها من جمال فى ذلك الوضع، وليست موضوعة فى جدار؛ لأنها حينئذ تؤدى عملاً، وتشعر بمدى فائدتها، وليست متخذة منها أبواب ونوافذ، لما فيها من الحسن والزخرف والجمال، ولكنها خشب مسندة قد خلت من الجمال، وتوحى بالغفلة والاستسلام والبلاهة.

ولم يكتف فى تشبيه الجبال يوم القيامة بالعهن، بل وصفها بالمنفوش، إذ قال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ المنْفُوشِ﴾ (القارعة ٥). للدقة فى تصوير هشاشة الجبال،

كما لم يكتف في تشبيه الناس يخرجون يوم القيامة بأنهم كالجراد بل وصفه بالمنتشر، فقال: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ (القمر ٧). حتى يكون دقيقاً في تصوير هذه الجموع الحاشدة، خارجة من أجداتها منتشرة في كل مكان تملأ الأفق، ولا يتم هذا التصوير إلا بهذا الوصف الكاشف.

ومن خصائص التشبيه القرآني المقدرة الفائقة في اختيار ألفاظه الدقيقة المصورة الموحية، تجد ذلك في تشبيه قرآني، وحسبى أن أشير هنا إلى بعض أمثلة لهذا الاختيار. نجد القرآن قد شبه بالجبال في موضعين، فقال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود ٤٢). وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (الشورى ٣٢). ولكنك تراه قد أثار كلمة الجبال عند الموج، لما أنها توحى بالضخامة والجلال معاً، أما عند وصف السفن فقد أثار كلمة الأعلام، جمع علم بمعنى جبل، وسر إيثارها هو أن الكلمة المشتركة بين عدة معانٍ تتداعى هذه المعانى عند ذكر هذه الكلمة، ولما كان من معانى العلم الراية التي تستخدم للزينة والتجميل، كان ذكر الأعلام محضراً إلى النفس هذا المعنى، إلى جانب إحضارها صورة الجبال، وكان إثارة هذا الخاطر ملحوظاً عند ذكر السفن الجارية فوق البحر، تزين سطحه، فكأنما أريد الإشارة إلى جلالها وجمالها معاً، وفي كلمة الأعلام وفاء بتأدية هذا المعنى أدق وفاء.

وشبه القرآن الموج في موضعين، فقال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود ٤٢). وقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلْمِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (لقمان ٣٢). وسر هذا التنويع أن الهدف في الآية الأولى يرمى إلى تصوير الموج عالياً ضخماً، مما تستطيع كلمة الجبال أن توحى به إلى النفس، أما الآية الثانية فتصف قوماً يذكرهم الله عند الشدة، وينسونه لدى الرخاء، ويصف موقفاً من مواقفهم كانوا فيه خائفين مرتاعين، يركبون سفينة تتقاذفها الأمواج، ألا ترى أن الموج يكون أشد إرهاباً وأقوى تخويفاً إذا هو ارتفع حتى ظلل الرءوس، هنالك يملأ الخوف القلوب، وتذهل الرهبة النفوس، وتبلغ القلوب الحناجر، وفي تلك اللحظة يدعون الله مخلصين له الدين، فلما كان المقام مقام رهبة وخوف، كان وصف الموج بأنه كالظلم أدق في تصوير هذا المقام وأصدق.

وعلى طريقة إيثار كلمة الأعلام على الجبال التي تحدثنا عنها، أثار كلمة القصر على الشجر الضخم؛ لأن الاشتراك في هذه الكلمة بين هذا المعنى، ومعنى البيت الضخم يثير المعنيين في النفس معاً فتزيد الفكرة عن ضخامة الشرر رسوخاً في النفس.

وأثر القرآن كلمة ﴿بَنِيَّانَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ

صَفَا كَأَنَّهُمْ بَيَّانٌ مَّرْضُوعٌ» (الصف ٤). لما تثيره فى النفس من معنى الالتحام والاتصال والاجتماع القوى، وغير ذلك من معان ترتبط بما ذكرناه، مما لا يثار فى النفس عند كلمة حائط أو جدار مثلا.

واختار القرآن كلمة «لباس»، فى قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة ١٨٧). لما توحى به تلك الكلمة من شدة الاحتياج، كاحتياج المرء للباس، يكون مصدر راحة، وعنوان زينة معًا. ومن مميزات التشبيه القرآنى أيضًا أن المشبه قد يكون واحدًا ويشبهه بأمرين أو أكثر، لمحا لصلة تربط بين هذا الأمر وما يشبهه، تثبيتًا للفكرة فى النفس. أو لمحا لها من عدة زوايا، ومن ذلك مثلا تصوير حيرة المنافقين واضطراب أمرهم، فإن هذه الحيرة يشتد تصورها لدى النفس، إذا هى استحضرت صورة هذا السارى قد أوقد نارًا تضىء طريقه، فعرف أين يمشى ثم لم يلبث أن ذهب الضوء، وشمل المكان ظلام دامس، لا يدرى السائر فيه أين يضع قدمه، ولا كيف يأخذ سبيله، فهو يتخبط ولا يمشى خطوة حتى يرتد خطوات. أو إذا استحضرت صورة هذا السائر تحت صيب من المطر قد صحبه ظلمات ورعد وبرق، أما الرعد فمتناه فى الشدة إلى درجة أنه يود اتقائه بوضع أصابعه إذا استطاع فى أذنه، وأما البرق فيكاد يخطف البصر، وأما الظلمات المتراكمة فتحول بين السائر وبين الاهتداء إلى سواء السبيل. وتجد تعدد هذا التشبيه فى قوله سبحانه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا ... أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ...﴾ (البقرة ١٧-١٩).

ومن النظر إلى الفكرة من عدة زوايا، أنه حينًا ينظر إلى أعمال الكافرين من ناحية أنها لا أثر لها ولا نتيجة، فيرد إلى الذهن حينئذ هذا الرماد الدقيق لا يقوى على البقاء أمام ريح شديدة لا تهدأ حتى تبدأ؛ لأنها فى يوم عاصف، ألا ترى هذه الريح كفيلة بتبديد ذرات هذا الغبار شذر مذر، وأنها لا تبقى عليه ولا تذر، وكذلك أعمال الكافرين، لا تلبث أن تهب عليها ريح الكفر، حتى تبددها ولا تبقى عليها، وللتعبير عن ذلك جاء قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاةُ الْبَعِيدَةُ﴾ (ابراهيم ١٨). وحينًا ينظر إليها من ناحية أنها تغر أصحابها فيظنونها نافعة لهم، مجدبة عليهم، حتى إذا جاءوا يوم القيامة لم يجدوا شيئًا، ألا ترى فى السراب هذا الأمل المطمع، ذا النهاية المؤيسة، ولأداء هذا المعنى قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعٍ يَخْسِبُهُ الظَّنَانُ مَاءٌ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ (النور ٣٩).

وحيثما ينظر إليها من ناحية ما يلم بصاحبها من اضطراب وفزع، عندما يجد أماله في أعماله قد انهارت، ألا تظلم الدنيا أمام عينيه ويتزلزل كيانه كهذا الذي اكتنفه الظلام في بحر قد تلاطمت أمواجه، وأطبقت ظلمة السحاب على ظلمة الأمواج، ألا يشعر هذا الرجل بمصيره اليائس، وهلاكه المحتوم، ألا يصور لك ذلك صورة هؤلاء الكفار عندما يجيئون إلى أعمالهم، فلا يجدون لها ثواباً ولا نفعاً، ولتصوير ذلك جاء قوله سبحانه: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور: ٤٠).

-٥-

ويهدف التشبيه في القرآن إلى ما يهدف إليه كل فن بلاغي فيه، من التأثير في العاطفة، فترغب أو ترهب، ومن أجل هذا كان للمنافقين والكافرين والمشركين نصيب وافر من التشبيه، الذي يزيد نفسيتهم وضوحاً، ويصور وقع الدعوة على قلوبهم، وما كانوا يقابلون به تلك الدعوة من النفور والإعراض.

يصور لنا حالهم وقد استمعوا إلى دعوة الداعي، فلم تثر فيهم تلك الدعوة رغبة في التفكير فيها، لمعرفة ما قد تنطوي عليه من صدق، وما قد يكون فيها من صواب، بل يحول بينهم وبين ذلك الكبر والأنفة، وما أشبههم حينئذ بالرجل لم يسمع عن الدعوة شيئاً، ولم يطرق أذنه عنها نبأ، بل ما أشبههم بمن في أذنه صمم، فهو لا يسمع شيئاً مما يدور حوله، وبمن أصيب بالكم، فهو لا ينطق بصواب اهتدى إليه، وبمن أصيب بالعمى، فهو لا يرى الحق الواضح، وبذلك شبههم القرآن، فقال: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ نَغَابٌ لِّمِيمٍ (٨)﴾ (الجناب: ٨، ٧)، وقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَتِدَاءَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (البقرة: ١٧١).

أما ما يشعرون به عندما يسمعون دعوة الحق فضيق يملأ صدورهم، ويؤددهم حملة، كهذا الضيق الذي يشعر به المصعد في جبل، فهو يجر نفسه ويلهث من التعب والعناء، وهكذا صور الله ضيق صدورهم بقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

وما دام هؤلاء القوم لا يستخدمون عقولهم فيما خلقت له، ولم تصغ آذانهم

إصغاء من يسمع ليتدبر، فقد وجد القرآن في الأنعام شبيهاً لهم يقرنهم بها، ويعقد بينهم وبينها وثيق الصلات، فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف ١٧٩). وأنت ترى في هذا التشبيه كيف مهد له التمهيد الصالح، فجعل لهم قلوباً لا يفقهون بها، وأعيناً لا يبصرون بها، وآذاناً لا يسمعون بها، ألا ترى نفسك بعدئذ مسوقاً إلى إنزالهم منزلة البهائم، فإذا ورد هذا التشبيه عليك، وجد في قلبك مكاناً، ولم تجد فيه بعداً ولا غرابة، بل ينزل بهم حيناً عن درجة الأنعام، فيراهم حُشْباً مسندة.

وحيثما يريد أن يصورهم، وقد جدوا في الهرب والنفرة من تلك الدعوة الجديدة، فيقول: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُغْرَضِينَ﴾ (٤٩) ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ (٥٠) ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (٥١) ﴿(المدثر ٤٩ - ٥١). وقد تحدثنا عن هذا التشبيه فيما مضى.

أما هذا الذي آمن ثم كفر، وانسلخ عن الإيمان واتبع هواه، فقد عاش مثال الذلة والهوان، وقد وجد القرآن في الكلب شبيهاً يبين عن خسته وحقارته، ومما يزيد في الصلة بين الاثنين أن هذا المنسلخ يظل غير مطمئن القلب، مززعزع العقيدة، مضطرب الفؤاد، سواء أَدْعَوْتَهُ إِلَى الْإِيمَانِ، أم أهملت أمره، كالكلب يظل لا هتافاً، طردته وزجرته، أم تركته وأهملته، قال: ﴿وَإِنَّمَا عَلَّمَهُم نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ﴾ (١٧٥) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦) ﴿(الأعراف ١٧٥، ١٧٦).

ولم ينس القرآن تصوير حيرتهم، واضطراب نفسيتهم، ولمح في اضطرابهم صلة بينهم وبين من استوقد ناراً، ثم ذهب الله بنوره وبين السائر تحت صيْبٍ منهم، فيه ظلمات ورعد وبرق.

وصور وهن ما يعتمد عليه من يتخذ من دون الله أولياء بوهن بيت العنكبوت، وحين أراد أن يتحدث عن أن هؤلاء الأولياء لن يستفيد منهم عابدهم بشيء، رأى في هذا الذي يبسط كفه إلى الماء، يريد وهو على تلك الحال أن ينقل الماء إلى فيه، وما هو ببالغه، شبيهاً لهم فقال: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (الرعد ١٤).

وتعرض لأعمال الكفرة كما سبق أن ذكرنا، ولصدقاتهم التي كان جديراً بها

أن تثمر وتزهر، ويفيدوا منها لولا أن هبت عليها ريح الشرك فأبادتها، كما تهب الريح الشديدة الباردة بزرع كان ينتظر إثماره فأهلكته: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (ال عمران ١١٧).

وهناك طائفة من التشبيهات ترتبط بيوم القيامة، لجأ إليها القرآن للتصوير والتأثير معاً، فإذا أراد القرآن أن يبين قدرة الله على أن يأتي بذلك اليوم، بأسرع مما يتصور المتصورون لجأ إلى أسرع ما يراه الرائي، فاتخذة مثلاً يؤدى إلى الهدف المراد، فيقول: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النحل ٧٧).

ويقرب أمر البعث إلى الأذهان بتوجيه النظر إلى بدء الإنسان، وأن هذا البعث صورة من هذا البدء، فيقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف ٢٩). ويتوجيه النظر إلى هذا السحاب الثقيل يسوقه الله لبلد ميت، حتى إذا نزل ماؤه دببت الحياة في أوصال الأرض، فخرج الثمر منها يانعاً، وهكذا يخلق الله الحياة فى الموتى، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيَلْدَ بِمِثِّ فَانزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف ٥٧).

وإذا جاء يوم القيامة استيقظ الناس لا يشعرون بأنه قد مضى عليهم حين من الدهر طويل منذ فارقوا حياتهم، ويورد القرآن من التشبيه ما يصور هذه الحالة النفسية، فيقول: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (يونس ٤٥). وإذا نظرت إلى قوة التشبيه مقترنة بقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أدركت مدى ما يستطيع أن يحدثه فى النفس من أثر. وقد كرر هذا المعنى فى موضع آخر يريد أن يثبت فى النفس ويؤكد فقل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عِشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ (النازعات ٤٢-٤٦).

هاهم أولاء قد بعثوا، خارجين من أحداثهم فى كثرة لا تدرك العين مداها، وماذا يستطيع أن يرسم لك تلك الصورة، تدل على الغزارة والحركة والانبعاث، أفضل من هذا التشبيه الذى أورده القرآن حين قال: ﴿خَشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَاْفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)﴾ (القمر ٨٠٧). وحيناً يصورهم ضعافاً يتهافتون مسرعين إلى الداعى كى يحاسبهم، فيجد فى الفراس صورتهم، فيقول: ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ

النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) ﴿القارعة ١ - ٤﴾. ولا أخال أحدًا لم ير الفراش يسرع إلى الضوء، ويتهافت عليه في ضعف وإلحاف معًا، ولقد تناول القرآن إسراعهم مرة أخرى، فشبهم بهؤلاء الذين كانوا يسرعون في خطوهم، ليعبدوا أنصابا مقامة، وتماتيل منحوتة، كانوا متحمسين في عبادتها، يقبلون عليها في رغبة واشتياق، فيقول: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ (المعارج ٤٣).

ويتناول المجرمين، فيصور ما سوف يجدونه يومئذ من ذلة وخزى، ويرسم وجوههم، وقد علتها الكآبة: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (يونس ٢٧). أما طعامهم فمن شجرة الزقوم، يتناولونها فيحسون بنيران تحرق أمعاءهم فكأنما طعموا نحاسًا ذائبًا أو زيتًا ملتهبًا، وإذا ما اشتد بهم الظمأ واستغاثوا قدمت إليهم مياه كهذا النحاس والزيت تشوى وجوههم، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ (٤٦)﴾ (الدخان ٤٣-٤٦). وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْجِلُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ (الكهف ٢٩). ألا ترى التشبيه يثير في النفس خوفًا وانزعاجًا. ويصور أكل الربا يوم القيامة صورة منفرة منه، مزرية به، فهل رأيت ذلك الذى أصابه مس من الشيطان، فهو لا ينهض واقفًا حتى يسقط، ولا يقوم إلا ليقع، ذلك مثل أكل الربا: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ (البقرة ٢٧٥).

ولعب التشبيه دورًا فى تصوير يوم القيامة، وما فيه من الجنة والنار، ففى ذلك الحين، تفقد الجبال تماسكها، وتكون ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (القارعة ٥). وتفقد السماء نظام جاذبيتها، فتنشق، ويصبح الجو ذا لون أحمر كالورد: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (الرحمن ٣٧). وأما جهنم فضخامتها وقوة لهبها مما لا يستطيع العقل تصوره، ومما لا يمكن أن تقاس إليها تلك النيران التى نشاهدها فى حياتنا، وحسبك أن تعلم أن شررها ليس كهذا الشر الذى يشبه الهباءة اليسيرة، وإنما هو شرر ضخمة ضخامة غير معهودة، وهنا يسعف التشبيه، فيمد الخيال بالصورة، حين يجعل لك هذا الشرر كأنه أشجار ضخمة تتهاوى، أو جمال صفر تتساقط: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ (٣٣)﴾ (المرسلات ٣٢، ٣٣). وأما الجنة ففى سعة لا يدرك العقل مداها، ولا يستطيع التعبير أن يحدها، أو يعرف منتهاها، ويأتى التشبيه ممدًا فى الخيال، كى يسبح ما يشاء أن يسبح، فيقول: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الحديد ٢١). وهكذا ترى التشبيه يعمل على تمثيل الغائب حتى يصبح حاضرًا، وتقريب البعيد النائي حتى يصير قريبًا دانيًا.

ولجأ القرآن إلى التشبيه بصور به فناء هذا العالم الذي نراه مزدهراً أمامنا، عامراً بألوان الجمال، فيخيل إلينا استمراره وخلوده، فيجد القرآن في الزرع يرتوى من الماء فيصبح بهيجاً نضراً، يعجب رائيه، ولكنه لا يلبث أن يذبل ويصفر، ويصبح هشياً تذروه الرياح - يجد القرآن في ذلك شبهاً لهذه الحياة الدنيا، ولقد أوجز القرآن مرة في هذا التشبيه وأطنب، ليستقر معناه في النفس، ويحدث أثره في القلب، فقال مرة: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (الكهف ٤٥). وقال مرة أخرى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ (الحديد ٢٠). وقال مرة ثالثة: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس ٢٤).

ولما كان للمال أثره في الحياة الاجتماعية، لعب التشبيه دوره في التأثير في النفس، كى تسمح ببذله في سبيل تخفيف أعباء المجتمع، فقرر مضاعفة الثواب على ما يبذل في هذه الناحية، فقال في موضع: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَشْبَهًُا مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة ٢٦٥). فلهذا التشبيه أثره في دفع النفس إلى بذل المال راضية مغتبطة، كما يغتبط من له جنة قد استقرت على مرتفع من الأرض، ترتوى بما هي في حاجة إليه من ماء المطر، وتترك ما زاد عن حاجتها، فلا يظل بها حتى يتلفها، كما يستقر في المنخفضات، فجاءت الجنة بثمرها مضاعفاً، وفي مرة أخرى رأى مضاعفة جزاء الحسنة كمضاعفة الثمرة، لهذا الذي يبذر حبة قمح، فتخرج عوداً يحمل سبع سنابل، في كل سنبله مائة حبة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٦٦).

وحاط القرآن هذه المضاعفة بشرط ألا يكون الإنفاق عن رياء، وهنا نقف أمام هذا التشبيه القرآني الذي سيق تصويراً لمن يتصدق لا عن باعث نفسى، نتبين إحياءاته، ونتلمس وجه اختياره، إذ يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَمْرَكَةٌ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٢٦٤). أرايت هذا الحجر الصلد قد غطته قشرة رقيقة من التراب فخاله

الرأى صالحاً للزرع والإنبات، ولكن وابل المطر لم يلبث أن أزال هذه القشرة فبدا الحجر على حقيقته، صليداً لا يستطيع أحد أن يجد فيه موضع خصب، ولا تربة صالحة للزراعة، ألا ترى في اختيار كلمة الصفوان هنا ما يمثل لك هذا القلب الخالى من الشعور الإنسانى النبيل، والعطف على أبناء جنسه عطفاً ينبع من شعور حى صادق، ولكن الصدقة تغطيه بثوب رقيق حتى يخاله الرأى، قلباً ينبض بحب الإنسانية، ويبنى عليه كبار الآمال فيما سوف يقدمه للمجتمع من خير، ولكن الرياء والمن والأذى لا تلبث أن تزيل هذا الغشاء الرقيق، فيظهر القلب على حقيقته قاسياً صليباً لا يلين.

-٦-

وتأتى الكاف فى القرآن أحياناً لا لهذا التشبيه الفنى الخالص، بل لإيقاع التساوى بين أمرين، ومن أمثلة هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)﴾ (التوبة ٦٨، ٦٩). وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (١٦)﴾ (المزمل ١٥، ١٦). فهو يعقد موازنة بينهم وبين من سبقهم، ويبين لهم الوجوه التى يتفوقون فيها معهم، ولا ينسى أن يذكر ما أصاب سابقهم، وإلى هنا يقف، تاركاً لهم أن يصلوا بأنفسهم إلى ما ينتظرهم من العواقب، وإنها لطريقة مؤثرة فى النفس حقاً، أن تضع لها شبيهاً، وتتركها تصل بنفسها إلى النتيجة فى سكونة وهدوء، لا أن تقذف بها فى وجهها، فربما تتمرد وتثور.

ومن كاف التساوى أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (النساء ١٦٣). وقد يلمح فى ذلك الرغبة فى إزالة الغرابة عن نفوس السامعين، واستبعادهم نزول الوحي على الرسول، فالقرآن يقرنه بمن لا يشكون فى رسالته، ليأنسوا بدعوة النبى، وقد يكون فى هذا التساوى مثار للتهمك، كما فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ (الأنعام ٩٤). أو مثار للاستنكار، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ (المنكبر ١٠). فسر الاستنكار كما ترى هو تسوية عذاب الناس بعذاب الله.

وقد تأتي الكاف وسيلة للإيضاح، وتقوم هي وما بعدها مقام المثال للقاعدة، وغير خاف ما للمثل يضرب من التأثير والإقناع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠). كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)﴾ (آل عمران ١٠، ١١)، فجاء بآل فرعون مثالا لأولئك الذين لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، ومن كاف الإيضاح قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْنِي﴾.

«كذلك»

في القرآن الكريم

وردت «كذلك» في القرآن الكريم، في أكثر من مائة موضع، ولوجود الكاف، وهي للتشبيه فيها، ظن كثير من العلماء أنها لا تكون إلا للتشبيه، ومضى في كل آية ورد فيها هذا التعبير، يبين التشبيه في الجملة، وفي كثير من الأحيان لا يبدو معنى التشبيه واضحا، فيتلمس مقوماته، ويتكلف تفسيره تكلفا يوحى بضالة هذا التشبيه، وأنه لم يزد المعنى جلاء، وهو الغرض الأول من التشبيه. وقد تتبعت هذه العبارة فيما وردت فيه من الآيات فوجدتها أكثر ما تأتي لمعان ثلاثة:

أولها التشبيه، وذلك عندما يراد عقد الصلة بين أمرين، ولمح ما بينهما من ارتباط، وهنا يؤدي التشبيه رسالته في إيضاح المعنى وتوطيده في النفس، تجد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُفِّتْهُ لِبَدٍ مِيتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف ٥٧). فالصلة وثيقة بين بعث الحياة في الموتى وبين بعث الحياة في الأرض الميتة، فتنبت من كل الثمرات، وإن فيما نراه بأعيننا من هذه الظاهرة الطبيعية التي نشاهدها في كل حين، إذ نرى أرضا ميتة لا حياة فيها، ثم لا يلبث السحاب الثقيل أن يفرغ عليها مطره، فلا تلبث أن تزدهر وتخرج من كل زوج بهيج، إن في ذلك لما يبعث في النفس الاطمئنان إلى فكرة البعث، والإيمان بها، فلا جرم، انعقد التشبيه بين البعثين، وزاد التشبيه الفكرة جلاء.

واقراً قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَنْوُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)﴾

فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ اغْدُوا عَلَيَّ حَرْثَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَغَدُوا عَلَيَّ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَيَّ بَعْضٌ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبَّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ (القلم ١٧ - ٣٣). رأيت أصحاب هذه الجنة، وقد أقسموا أن يستأثروا بثمر جنتهم، وأن يجنوا ثمارها مبكرين في الصباح، ولم يدر بخلدهم الاستعانة بالله في عملهم، وبينما هم يستعجلون قدوم الصباح، ويحلمون بالثروة التي سترها عليهم حديقتهم، طاف على تلك الجنة طائف أباد ثمرها وهم نائمون، وفي بكرة الصباح أسرع بعضهم ينادى بعضاً أن الخير في البكور، فانطلقوا لا تكاد تسمع لأقدامهم وقعاً، يتهامسون وهم يتحدثون، كي لا يسمع مسكين صوتهم، فيتبعهم، ولقد وصلوا إلى حديقتهم، واطمأنوا إلى أنهم سيقدرن على إحراز غلتها، ومنع المساكين منها فما راعهم إلا أن وجدوا أشجارهم بلا ثمار، وجنتهم جرداء مقفرة، هنالك ملأ الندم قلوبهم، وأخذ بعضهم يلوم بعضاً، يتحسرون على أمل قد ضاع، وعلى ما اقترفوه من ظلم وطغيان، رأيت هذا العذاب الذي صار إليه هؤلاء القوم، عذاب من فقد أمه وقد كان قريباً من يده، وعذاب من يؤنبه ضميره على جرم اقترفه، وقد رأى جزاءه أمام عينيه، ألا ترى أن هذا العذاب النفسى الأليم جدير بأن يكون مثالا ينذر به الله كل من يتصرف تصرف أصحاب هذه الجنة.

وهي أيضاً للتشبيه في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَيَّبُوا﴾ (النساء ٩٤). وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء ٧٤). وما على نسق هذه الآيات مما تعقد فيه الكاف صلة بين أمرين.

وتأتى كاف كذلك فى كثير من الآيات بمعنى مثل فى قولك: مثلك لا يكذب، تريد أنت لا تكذب، وفائدة مجيء مثل، الإشارة إلى أن من له صفاتك لا يليق به أن يكذب، تجد ذلك فى مثل قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرِيَّةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيُّذْ أَحَدَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ

كَذَلِكَ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ (البقرة ٢٦٥، ٢٦٦). فالمعنى على أن الله يبين الآيات ذلك البيان الجلى الواضح المؤثر، لعله يثمر ثمرته فيدعو سامعيه إلى التفكير والتدبر. ذلك هو ما أفهمه من هذا التعبير، ولا أفهم أنه يريد أن يبين آيات غير هذه الآيات بياناً يشبه بيان الآيات السالفة، وإذا أنت حاولت عقد التشبيه على حقيقته رأيت فيه تفاهة وقلة غناء؛ وخذ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف ٤٠). فليس المراد - على ما يظهر لى - أن المجرمين يجزون جزاء يشبه الجزاء الموصوف في الآية الكريمة، وإنما يجزون هذا الجزاء نفسه، من غلق أبواب السماء في وجوههم وأنهم لا يدخلون الجنة أبداً. وقرأ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (الأعراف ١٠١). تر المراد أن الله يطبع على قلوب الكافرين ذلك الطبع الذى يحول بينهم وبين الإيمان بما كذبوا من قبل، وإذا أنت حاولت عقد تشبيه لم تجد فيه كبير غناء، إذ يصير المعنى: يطبع الله على قلوب الكافرين طبعاً يشبه طبعه على قلوب الكافرين، وفى ذلك ما فيه من ضياع قيمة التشبيه.

فمن هذا يبدو أن التشبيه فى هذه الآيات وأمثالها غير ملحوظ، وإنما يراد توجيه النظر إلى ما سبق هذه الأداة فحسب، وتأتى الكاف حينئذ إشارة إلى أن ما ذكر فى الآيات وأشير إليه، قد بلغ من الكمال مبلغاً عظيماً، لدرجة أنه صار نموذجاً كاملاً، يمكن أن يتخذ مثلاً، يشبه به سواه، فقد أفادت الكاف بلوغ المعنى تمامه.

وتأتى ﴿كَذَلِكَ﴾ أيضاً لتحقيق المعنى وتثبيته، ولا يبدو فيها التشبيه، كما تجد ذلك فى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرَ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (ال عمران ٤٠). وفى قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشْرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (٢٠). قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ (٢١). (مريم ٢٠، ٢١). ومحاولة خلق تشبيه من هذه العبارة لا يودى إلا إلى التكلف والتفاهة معاً، ويقدر بعض العلماء فى مثل هذا التركيب أن كذلك خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر كذلك، ونحن نوافق على هذا التقدير، وليس فى كذلك تشبيه هنا، وإنما المراد الأمر هو ما أخبرت به، لا ريب فيه، ومن ﴿كَذَلِكَ﴾ هذه التى للتحقيق والتوكيد، تولدت كلمة (كده) فى اللغة العامية للدلالة على التحقيق أيضاً، ونحن نستخدمها فى ذلك المعنى عندما نقول: الحق كذلك والصواب كذلك، نريد الحق

والصواب هو ذلك، ولعل السرفى المجيء بكاف التشبيه هنا هو بيان تمام المطابقة بين الحقيقة الخارجية والحقيقة الكلامية، أى إن ما يكون فى الواقع يطابق ما دل عليه الكلام.

تفيد ﴿كَذَلِكَ﴾ التحقيق إذا كَوْنَتْ هِى وَمَبْتَدُوْهَا جُمْلَةٌ مُسْتَقْلَةٌ، كَمَا فِى الْآيَتَيْنِ السَّالِفَتَيْنِ وَمَا عَلَى شَاكِلَتَهُمَا، وَتَفِيدُ التَّحْقِيقَ وَتَأْكِيدَ الْجُمْلَةِ فِى غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَيْضًا، وَيَكْثُرُ ذَلِكَ عِنْدَمَا يَلِيهَا فِعْلٌ مَاضٍ، كَمَا فِى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مُّجْرِمِينَ لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)﴾ (الأنعام ١٢٢، ١٢٣). فَلَا تَجِدُ لِلتَّشْبِيهِ مَوْضِعًا فِى هَذِهِ الْآيَةِ، وَإِذَا أَنْتِ حَاوَلْتِهِ وَجَدْتِهِ لَا يَغْنَى فِى التَّصْوِيرِ شَيْئًا، وَ﴿كَذَلِكَ﴾ هُنَا تَوَدَّى مَعْنَى قَدٍ، وَلَهَا أَمْثَلَةٌ كَثِيرَةٌ فِى الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَدَلِّكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢)﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾ (يونس ٣٢، ٣٣). وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ١٠٣). وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا بَدَأَ (٢٩)﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبَّتُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (الرعد ٢٩، ٣٠). وَرَبَّمَا جَاءَتْ إِفَادَتُهَا لِلتَّحْقِيقِ، مِنْ كَثْرَةِ مَجِيئِهَا لِبَيَانِ التَّطَابُقِ، وَاسْتَعْمَلْتَ فِى لَازِمِ مَعْنَاهَا الْأَصْلَى الَّذِى تَنَوَّسَى.

وَاسْتَعْمَالَ كَذَلِكَ لِلتَّحْقِيقِ وَالتَّوَكِيدِ لَا يَقِلُّ عَنِ اسْتِعْمَالِهَا فِى التَّشْبِيهِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ يَتَكَلَّفُ جَعْلَهَا فِى تِلْكَ الْمَوَاضِعِ أَيْضًا لِلتَّشْبِيهِ، فَيَتِمَّحَلُّ، وَيَمْضَى فِى تَأْوِيلَاتٍ لَا نَصِيبَ لَهَا مِنَ الْبَلَاغَةِ وَقُوَّةِ الْفَنِّ.

وَمِمَّا ذَكَرْنَاهُ يَبْدُو أَنَّ تِلْكَ الْعِبَارَةَ لَا تَقْفُ عِنْدَ حُدُودِ التَّشْبِيهِ، بَلْ لَهَا هَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةُ الَّتِى شَرَحْنَاهَا.

التصوير بالاستعارة

اقتصر الأقدمون عندما تحدثوا عن الاستعارة فى القرآن على ذكر أنواعها، من استعارة محسوس لمحسوس بجامع محسوس أو بجامع عقلى، ومن استعارة محسوس لمعقول، ومن استعارة معقول لمعقول أو لمحسوس، ومن استعارة تصريحية أو مكنية، ومن مرشحة أو مجردة، إلى غير ذلك من ألوان الاستعارة، وهم يذكرون هذه الألوان، ويحصون ما ورد فى القرآن منها، ويقفون عند ذلك فحسب، وبعضهم يزيد فيجربى

الاستعارة، طائفاً أنه بذلك قد أدى ما عليه، من بيان الجمال الفنى فى هذا اللون من التصوير، ولم أر إلا ما ندر من وقوف بعضهم يتأمل بعض هذه اللوحات الفنية المؤثرة، وليس مثل هذه الدراسة بمجد فى تذوق الجمال وإدراك أسرارها، ومن الخير أن نتبين الأسرار التى دعت إلى إيثار الاستعارة على الكلمة الحقيقية.

وإذا أنت مضيت إلى الألفاظ المستعارة رأيتها من هذا النوع الموحى؛ لأنها أصدق أداة تجعل القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، وتصور المنظر للعين، وتنقل الصوت للأذن، وتجعل الأمر المعنوى ملموساً محسّساً، وحسبى أن أقف عند بعض هذه الألفاظ المستعارة الموحية، نتبين سر اختيارها:

قال سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ (الكهف ٩٩). فكلمة ﴿يَمُوجُ﴾ لا تقف عند حد استعارتها لمعنى «الاضطراب» بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس، احتشاداً ألا تدرك العين مداها، حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر، ترى العين منه ما تراه فى البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب، ولا تأتى كلمة ﴿يَمُوجُ﴾ إلا موحية بهذا المعنى، ودالة عليه. وقال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (مريم ٤). وهنا لا تقف كلمة ﴿اشْتَعَلَ﴾ عند معنى انتشر فحسب، ولكنها تحمل معنى دبب الشيب فى الرأس فى ببطء وثبات، كما تدب النار فى الفحم مبطنّة، ولكن فى دأب واستمرار، حتى إذا تمكنت من الوقود اشتعلت فى قوة لا تبقى ولا تذر، كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب، حتى لا يذر شيئاً إلا التهمه، وأتى عليه، وفى إسناد الاشتعال إلى الرأس ما يوحى بهذا الشمول الذى التهم كل شىء فى الرأس. وقد تحدثنا فيما مضى عما توحى به كلمة تنفس، من إثارة معنى الحياة التى تغمر الكون عند مطلع الفجر. وقال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلَمُونَ﴾ (يس ٣٧). فكلمة ﴿نَسْلَخُ﴾ تصور للعين انحسار الضوء عن الكون قليلاً قليلاً، ودبيب الظلام إلى هذا الكون فى ببطء، حتى إذا تراجع الضوء ظهر ما كان مختفياً من ظلمة الليل. وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلْنَاهُ كَالرِّمِيمِ (٤٢)﴾ (الذاريات ٤١، ٤٢). ففى العقم ما يحمل إلى النفس معنى الإجداب الذى تحمله الريح معها.

وكثير فى القرآن أخذ الكلمات الموضوعية للأمور المحسوسة، يدل بها على معقول معنوى، يصير به كأنه ملموس مرئى، فضلاً عن إحياءات الكلمة إلى النفس، خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُ فِتْنًا وَهُوَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (ال عمران ١٨٧). ألا ترى أن كلمة

﴿نَبَذَ﴾، فضلا عن أنها تدل على الترك، توحى إلى نفس القارئ معنى الإهمال والاحتقار، لأن الذى (ينبذ) وراء الظهر إنما هو الحقير المهمل. وقوله تعالى: ﴿يَلْزَمُ النَّقْدُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَذَمُّهُ^(١) فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء ١٨). فكلمة القذف توحى بهذه القوة التى يهبط بها الحق على الباطل، وكلمة ﴿يَذَمُّهُ﴾ توحى بتلك المعركة التى تنشب بين الحق والباطل، حتى يصيب رأسه ويحطمه، فلا يلبث أن يموت وتأمل قوة التعبير بالظلمات والنور يراد بهما الكفر والإيمان، فى قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم ١). وجمع الظلمات يصور لك إلى أى مدى يذهب الطريق أمام الضال، فلا يهتدى إلى الحق، وسط هذا الظلام المترام. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَغْفُورَ أَوْ يَغْفُورَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النَّكَاحِ﴾ (البقرة ٢٣٧). فإنك تشعر فى كلمة العقدة بهذا الربط القلبي، الذى يربط بين قلبى الزوجين. ويطول بى القول إذا أنا وقفت عند كل استعارة، من هذا اللون وحسبى أن أشير إلى بعض نماذج كقوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر ٩٤). فكلمة الصدع بمعنى الجهر توحى بما سيكون من أثر هذه الدعوة الجديدة، من أنها ستشق طريقها إلى القلوب وتحدث فى النفوس أثرا قويا، وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران ١٠٣). فأى صلة متينة ذلك الدين الذى يربطك بالله، يثير هذا المعنى فى نفسك هذا التعبير القوى المصور: حبل الله.

وقوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (الشعراء ٢٢٤، ٢٢٥). وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبَغُّونَهَا عِوَجًا﴾ (آل عمران ٩٩). وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (الأنعام ٦٨). وتأمل جمال ﴿أَفْرَغَ﴾ فى قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ (الأعراف ١٢٦). وما يثيره فى نفسك من الطمأنينة التى يحس بها من هدا جسمه بماء يلقى عليه، وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية، ينالها من منح هبة الصبر الجميل، ومن الدقة القرآنية فى استخدام الألفاظ المستعارة أنه استخدم ﴿أَفْرَغَ﴾ وهى توحى باللين والرفق وعند حديثه عن الصبر، وهو من رحمته، فإذا جاء إلى العذاب استخدم كلمة ﴿صَبَّ﴾ فقال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (الفرج ١٣). وهى مؤذنة بالشدة والقوة معا.

وتأمل كذلك قوة كلمة ﴿زَلَّزَلُوا﴾ فى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ البَّاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزَلَّزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

(١) يصيب دماغه بالضرب.

مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ الْأَى أَنْ نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴿البقرة ٢١٤﴾. ولو أنك جهدت فى أن تضع كلمة مكانها ما استطاعت أن تؤدى معنى هذا الاضطراب النفسى العنيف.

وقد تحدثنا فيما مضى عن جمال التعبير فى قوله تعالى: ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ (البقرة ٢٧). وقوله سبحانه: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ (البقرة ٧). وقد يستمر القرآن فى رسم الصورة المحسوسة بما يزيدها قوة تمكن لها فى النفس، كما ترى ذلك فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (البقرة ١٦). فقد أكمل صورة الشراء بالحديث عن ربح التجارة والاهتداء فى تصريف شئونها.

وقد يحتاج المرء إلى تريث يدرك به روعة التعبير، كما تجد ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل ١١٢). فقد يبدو أن المناسبة تقضى أن يقال: فألبسها الله لباس الجوع، ولكن إيثار الذوق هنا؛ لأن الجوع يشعر به ويذاق، وصح أن يكون للجوع لباس؛ لأن الجوع يكسو صاحبه بثياب الهزال والضعف والشحوب.

وقد يشتد وضوح الأمر المعنوى فى النفس، ويقوى لديها قوة تسمح بأن يكون أصلا يقاس عليه، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَا كُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (الحاقة ١١). فهنا كان الطغيان المؤذن بالثورة والغوران أصلا يشبه به خروج الماء عن حده، لما فيه من فورة واضطراب، وعلى هذا النسق جاء قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا غَاذُ فَاهِلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ غَاتِيَةٍ﴾ (الحاقة ٦). فهذه الريح المدمرة يشبه خروجها عن حدها العتو والجبروت.

وقد يجسم القرآن المعنى، ويهب للجماد العقل والحياة، زيادة فى تصوير المعنى وتمثيله للنفس، وذلك بعض ما يعبر عنه البلاغيون بالاستعارة المكنية، ومن أروع هذا التجسيم قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبَ أَخَذَ الْأَلْوَابِ﴾ (الأعراف ١٥٤). ألا تحس بالغضب هنا وكأنه إنسان يدفع موسى ويحثه على الانفعال والثورة، ثم سكت وكف عن دفع موسى وتحريضه، ومن تعقيل الجماد قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِ أَبُوعَا أَوْ كَرِهَا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت ١١). وفى ذلك التعبير ما يدل على خضوعهما واستسلامهما، وقوله سبحانه: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَبَرَوْنَا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَقَامَهُ﴾ (الكهف ٧٧). وكأنما الجدار لشدة وهنه

وضعفه يؤثر الراحة لطول ما مر به من زمن. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَنُ الْمَصِيرِ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨)﴾ (الملك ٦ - ٨). فهذا التمييز من الغيظ يشعر بشدة ما جناه أولئك الكفرة، حتى لقد شعر به واعتاظ منه هذا الذي لا يحس. وعلى هذا النسق قوله سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧)﴾ (المعارج ١٥ - ١٧). ألا تحس في هذا التعبير كأن النار تعرف أصحابها بسيماهم، فتدعوهم إلى دخولها ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ﴾ (يونس ٢٤). وفي ذلك ما يشعرك بالحياة التي تدب في الأرض، حين تأخذ زخرفها وتترزين.

هذا وقد كثر الحديث عن قوله سبحانه: ﴿وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلَّةِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء ٢٤). ورووا ما يفهم منه أن أبا تمام قلد هذا التعبير فقال:

لا تسقني ماء الملام، فإننسى صباً قد استعذبت ماء بكائي

حتى إنه يروى أن أحدهم أرسل إليه زجاجة يطلب منه فيها شيئاً من ماء الملام، فقال أبو تمام: حتى تعطيني ريشة من جناح الذل. قيل: فاستحسنوا منه ذلك. وعندى أن ليس الأمر على ما ذكروه، وأن هذا التعبير كناية عن الرفق في معاملة الوالدين، وأخذهما باللين والرفقة، كما تقول: «واخفض لهما الجناح ذلاً» ولكن لما كان ثمة صلة بين الجناح بمعنى جانب الإنسان وبين الذل، إذ إن هذا الجانب هو مظهر الغطرسة حين يشمخ المرء بأنفه، ومظهر التواضع حين يتطامن - أجازت هذه الصلة إضافة الجناح للذل لا على معنى الملكية، فلسنا بحاجة إلى تشبيه الذل بطائر نستعير جناحه، ولكننا بحاجة إلى استعارة الجناح للجانب، وجمال ذلك هنا في أن اختيار كلمة الجناح في هذا الموضع يوحى بما ينبغى أن يُظَلَّ به الابن أباه من رعاية وحب، كما يظل الطائر صغار فراخه.

وبما ذكرناه يبدو أن بيت أبي تمام لم يجر على نسق الآية الكريمة، فليس هناك صلة ما بين الماء واللام تجيز هذه الإضافة، ولا سيما أن إحياء الكلمات في الجملة لا تساعد أبا تمام على إيصال تجربته إلى قارئه، فليس في سقى الماء ما يثير ألمًا، ولو أنه قال: لا تجر عنى غصص الملام، لاستطاع بذلك أن يصور لنا شعوره تصويراً أدقّ وأوفى، لما تثيره هاتان اللفظتان في النفس من المشقة والألم.

مجازات القرآن

- ١ -

قسم البلاغيون المجاز قسامين، مجازاً عقلياً ومجازاً لغوياً، وجعلوا الأول فى إسناد الفعل أو ما يشبهه إلى غير فاعله الأصيل لملاسته له، وحكمة هذا الإسناد حينما قيام ما أسند إليه الفعل بدور رئيسى فى الجملة، وقد يكون هو الركن الذى لا يتم العمل بدونه، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القمر ٤). فإسناد الذبح إلى فرعون؛ لأنه هو الأمر به، ولولاه ما حدث، وما الجند المنفذون سوى آلات مسخرة تفعل ما تؤمر به، وعلى هذا المنوال قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ (القمر ٣٨). فمن هامان الوزير يصدر الأمر لاتباعه بإعداد مواد البناء، ورفع الصرح، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (إبراهيم ٢٨). أو لا تجد أن هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفراً، هم العنصر الفعال فيما آل إليه حال قومهم من عقبى السوء؛ لأنهم هم الذين كانوا سبب إضلالهم وكفرهم. ولما كان يوم القيامة تملؤه أحداث مرعبة، تملأ النفوس هولاً يتسبب عنها لشدتها الشيب، وكان هذا اليوم ظرفاً لتلك الأحداث، صح أن يسند الشيب إليه فى قوله سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (المزمل ٣٧). وقد أجاز ذلك شدة الارتباط بين الأحداث وظرفها. كما أن شدة الارتباط بين العيشة وصاحبها جعلت من الجميل نسبة الرضا إليها فى قوله ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧)﴾ (القارعة ٦، ٧).

- ٢ -

أما المجاز اللغوى وهو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له أولاً، لصلة بين المعنيين غير صلة التشابه، فقد وجدت كثيراً ممن تعرضوا لدراسته فى القرآن الكريم قد مضوا يلتمسون أمثله، ويبيوونه، ويذكرون أقساماً كثيرة له، حتى بلغوا من ذلك حد التفاهة، ومخالفة الذوق اللغوى، فوجدوا مثلاً فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ﴾ (الحجر ٥٢).

مجازاً لغوياً من وصف الكل بصفة البعض، إذ الوجل محله القلب، وقياساً على ذلك جعلوا مثل محمد عالم وجاهل وراغب وخائف وما على شاكلتها، مجازاً لغوياً. ووجدوا كذلك فى قوله سبحانه ﴿كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (فصلت ٤، ٣). مجازاً؛ لأن البشارة والإنذار بعض ما فى القرآن، وفى قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وجدوا مجازاً، لأن الشهر اسم لثلاثين ليلة، وقد أريد جزء منه. إلى غير ذلك من أمثلة يطول بى وجه إحصائها، وبيان ما فيها من تكلف وتفاهة، ولو سرنا على منهجهم لوجدنا فى كل ما نلتق به مجازاً، وليس فى ذلك كبير نفع، مادامت الكلمة لا تسترعى انتباه القارئ، ولا تستوقفه لتبين السر فى استخدامها.

لا أريد أن أمضى فى بيان ما تكلفوه وجروا وراءه من تلمس الأسباب لعد الآيات من باب المجاز اللغوى، وكل ما أريد قوله هنا هو أن أكثر هذه الكلمات أصبحت توحى بالفكرة من غير أن يثار فى النفس المعنى المجازى.

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ (المنافقون ٤). فإنهم قالوا إن فيه إطلاق الكل على البعض، والمراد تعجبك وجوههم؛ لأن الأجسام لا ترى كلها، وإنما يرى الوجه فحسب، ولا أرى تأويلاً أبعد من هذا التأويل عن روح الآية، فالجسم وإن كان لا يرى كله، من المستطاع أن يدرك الإنسان بنظره ما عليه الجسم من جمال يبعث على الإعجاب، ولا تريد الآية: تعجبك وجوههم، ولكنها تريد يعجبك ما عليه أجسامهم من ضخامة، وما يبدو فيها من مظاهر النماء والقوة، وما عليه وجوههم من جمال ونضرة. وخذ قوله تعالى: ﴿وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣)﴾ ﴿وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩)﴾ (الغاشية ٢، ٣، ٨، ٩). قالوا إنه من إطلاق الجزء وإرادة الكل، فقد عبر بالوجوه عن جميع الأجساد؛ لأن النصب والتنعم حاصل لكلها، ولا أرى الذهن فى حاجة إلى أن يفهم هنا من الوجه معنى الجسم؛ لأن النصب والنعمة يظهران أتم ظهور على الوجه.

وخذ قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ (المائدة ١١٢). قالوا إنه من إطلاق الملزوم على اللازم، إذ المراد هل يفعل، فأطلق الاستطاعة على الفعل؛ لأنها لازمة له، ولا أرى فى ذلك كبير غناء. ولكنك لا تعدم فى بعض الأحيان روعة فى بعض ما عدوه من ألوان هذا المجاز، كما فى قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ (البقرة ١٩). وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت يَدَاكَ﴾ (الحج ١٠). وقد لا تكون اليد هى الفاعلة، ولكن لما كان أكثر الأعمال بها، جمل هذا التعبير وراق.

الكناية والتعريض

تقوم الكناية القرآنية بنصيبها كاملاً في أداء المعانى وتصويرها خير أداء وتصوير، وهى حيناً راسمة مصورة موحية، وحيناً مؤدبة مهذبة، تتجنب ما ينبو على الأذن سماعه، وحيناً موجزة تنقل المعنى وافياً فى لفظ قليل. ولا تستطيع الحقيقة أن تؤدى المعنى كما أدته الكناية فى المواضع التى وردت فيها الكناية القرآنية.

فمن الكناية المصورة الموحية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء ٢٩). ألا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق، فيه تصوير محسوس لهذه الخلة المذمومة فى صورة قوية بغیضة منفرة، فهذه اليد التى غلت إلى العنق لا تستطيع أن تمتد، وهو بذلك يرسم صورة البخيل الذى لا يستطيع يده أن تمتد بإنفاق ولا عطية، والتعبير ببسطها كل البسط يصور لك صورة هذا المبذر الذى لا يبقى من ماله على شىء، كهذا الذى يبسط يده، فلا يبقى بها شىء، وهكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى قوياً مؤثراً. ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَغْضُكُمُ بَغْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (المحرات ١٢). وتأمل كيف: «مثل الاغتياى بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك، حتى جعله لحم الأخ، ولم يقتصر على لحم الأخ... فأما تمثيل الاغتياى بأكل لحم إنسان آخر مثله، فشديد المناسبة جداً، وذلك لأن الاغتياى إنما هو ذكر مثالب الناس، وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه؛ لأن أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر مثله، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه، وهذا القول مبالغة فى الاستكراه، لا أمد فوقها، وأما قوله ﴿مَيْتًا﴾ فلأجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته، ولا يحس بها»^(١).

ومنها قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطُّرُفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنسَ قِبَلَهُنَّ وَلَا جَانٌّ﴾ (الرحمن ٥٦). فأنت ترى فى قصر الطرف تصويراً للمظهر المحسوس لخلة العفة، ولو أنه

(١) كتاب الفوائد ص ١٢٧.

استخدم عفيفات ما كان في الآية هذا التصوير المؤثر، ولا رسم أولئك السيدات في تلك الهيئة الراضية القانعة، التي لا يطمحن فيها إلى غير أرواجهن، ولا يفكرن في غيرهم.

ومن الكناية المهذبة قوله سبحانه: ﴿مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ (المائدة ٧٥). ألا ترى في التعبير بأكل الطعام أدباً ورقة تغنيك عن أن تسمع أذنك: كانا يتبرزان ويتبولان.

ومنها قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ (البقرة ٢٢٢). وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (النساء ٤٣). وهكذا كنى الله بالملامسة، والمباشرة، والإفضاء، والرفث، والدخول، والسرى كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتُمْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (البقرة ٢٣٥).

ومما يصح أن يوجه النظر إليه هنا، أن القرآن كان يلجأ إلى الصراحة، عندما يتطلبها المقام، فلا يحاور، ولا يداور، بل يعتمد إلى الفكرة فيلقى بها في وضوح، ويقول: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ (النور ٣٠). ولا عجب في صراحة كتاب ديني يجد في التصريح، ما لا تستطيع الكناية الوفاء به في موضعه.

ومن الكناية الموجزة قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ (البقرة ٢٤). أي فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله، ومثل هذا التعبير كثير في القرآن.

أما التعريض فهو أن يذكر شيء يدل به على شيء لم يذكر، وأهم أغراضه الذم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَانِ يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (٦٣) ﴿الأنبياء ٦٢، ٦٣﴾. ففي نسبة الفعل إلى كبير الأصنام، تعريض بأن الصغار لا تصلح أن تكون آلهة؛ لأنها لم تستطع أن تدفع عن نفسها، وبأن الكبير لا يصلح أن يكون إلهاً؛ لعجزه أن ينهض بمثل هذا العمل.

ومن باب التعريض أيضاً تلك الآيات التي على مثال قوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد ٤). وتلك طريقة مؤثرة تدفع السامعين إلى التفكير العميق، حتى لا يكونوا ممن لا يعقلون.

هذا، وقد سبق أن تحدثنا عن جمال استخدام (إنما) عندما يراد بها التعريض.

الفصل الثالث

السورة

- ١ -

قسم القرآن الكريم سورًا، سميت كل منها باسم خاص، أخذ من بعض ما عالجتة السورة من المعانى، أو مما تحدث عنه من إنسان وحيوان أو غيرهما، أو من بعض كلماتها.

والسورة القرآنية قد تكون ذات موضوع واحد تتحدث عنه، ولا تتجاوزه إلى سواه، مثل كثير من قصار السور، كسورة النبأ والنازعات والانشقاق، وكلها تتحدث عن اليوم الآخر، والهمزة والفيل وقريش، وهى تتحدث عن عقاب من يعيب الناس، وما حدث لأصحاب الفيل، وما أنعم الله به على قريش من نعمة الألفة. وقد تتناول السورة أغراضًا شتى، مثل معظم سور القرآن، وهنا نقف لنتبين أى الخطتين أقوم وأهدى: أن يرتب القرآن موضوعاته ويجعل كل سورة تتناول موضوعًا واحدًا معينًا، فتكون سورة للأحكام وأخرى للتاريخ وثالثة للقصص ورابعة للابتهال، حتى إذا فرغت منه تناولت سورة أخرى غرضًا آخر وهكذا، أو أن تتناثر أحكامه وقصصه ووعده ووعيده على النحو الذى انتهجه، والذى يبدو بادئ ذى بدء أن السلك الذى يربط بين آياته ضعيف الربط أو واهى التماسك؟

وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن نعرف الهدف الذى إليه يرمى القرآن الكريم؛ لنرى أقوم الخطتين لتحقيق هذا الهدف والوصول به إلى جانب التوفيق والنجاح. أما هدف القرآن الكريم فغرس عقيدة التوحيد فى النفس، وانتزاع ما يخالف هذه العقيدة من الضمير، والدعوة إلى العمل الصالح المكوّن للإنسان المهذب الكامل، بسن القوانين المهذبة للفرد، الناهضة بالجماعة.

وإذا كان ذلك هو هدف القرآن، فإن المنهج القرآنى هو الذى يحقق هذا الهدف فى أكمل صورته، وأقوى مظاهره، ذلك أنه لكى يحمل على اتباع ما يدعو إليه يمزج دعوته بالحث على اتباعها، ويضرب المثل بمن اتبع فنجح، أو ضل فخاب، ويتبع

الحديث عن المؤمنين بذكر بعض الأحكام التي يجب أن يتبعها هؤلاء المؤمنون، ويعقب ذلك بالترغيب والترهيب، ثم يولى ذلك بوصف اليوم الآخر وما فيه من جنة أو نار، وهو في كل ذلك يتكئ على الغريزة الإنسانية التي تجعل المرء خاضعاً بالترغيب حيناً، والترهيب حيناً آخر، والقرآن حين يستمد شواهد من حوادث التاريخ لا يستدعيه ذلك أن ينهج منهج المؤرخين، فيتتبع الحادث من مبدئه إلى منتهاه، وينعم النظر في الأسباب والنتائج، ويقف عند كل خطوة من خطواته، ولكنه يقف من هذا الحادث عند الفكرة التي تؤيد غرض الآية، والجزء الذي يؤيد الهدف الذي ورد في الآيات، وقل مثل ذلك في القصة عندما يوردها، فإنها تساق للهدف الذي تحدثنا عنه، وهو من أجل ذلك ينظر إليها من زاوية بعينها، ولا يرمى غالباً إلى قص القصة برمتها، وسوف نشبع الحديث في ذلك فيما يلي:

ينتقل القرآن إذاً بين الأغراض المختلفة، لا اعتباطاً وبلا هدف، ولكن لصلوات وثيقة تربط بين هذه الأغراض، بحيث تتصافر جميعها في الوصول إلى الغاية القصوى وتحققها.

ولنبداً في تفصيل ما أجملناه مبينين الصلات الوثيقة التي تربط آية بآية، ثم موضحين وجوه الترابط القوي بين الأغراض المختلفة في السورة الواحدة.

فقد تقع الآية الثانية صفة لكلمة في الآية الأولى كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَغُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)﴾ (البقرة ٢٦، ٢٧). وقد تكون الآية الثانية توكيداً لفكرة الآية الأولى، كما تجد ذلك في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَتَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهْمُ أُخْرَصَ النَّاسَ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِيهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ (البقرة ٩٤ - ٩٦). وقد تكون الآية الثانية رداً على ما في الآية الأولى كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾ (البقرة ٨٠، ٨١). وقد تحمل الآية الثانية فكرة مضادة لفكرة سابقتها، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ﴿البقرة ٢٤، ٢٥﴾. ولا ريب أن الجمع بين حكم المتضادين في الذهن يزيد به جلاءً ووضوحاً.

وتأمل الصلة القوية بين هاتين الآيتين، وهي صلة الربط بين الحكم وحكمته في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عَفَى لَهٗ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِغَدِّ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)﴾ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون (١٧٩) ﴿البقرة ١٧٨، ١٧٩﴾. ويصف الكتاب ثم يحبب في اتباعه مبيغضاً إلى النفوس صورة منكريه، فيقول: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ ﴿البقرة ٢ - ٧﴾. ويعقب توحيد الله بدلائل هذا التوحيد في قوله: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾، إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون (١٦٤) ﴿البقرة ١٦٣، ١٦٤﴾.

ويطول بي القول إذا أنا مضيت في الاستشهاد على بيان الصلات التي تربط آية بآية، ولكني أشير هنا إلى أن إدراك هذه الصلة يتطلب في بعض الأحيان تريثاً وتدبراً يسلمك إلى معرفة هذه الصلة وتبينها، ولكنك تصل - ولا ريب - إلى وثاقة هذا الارتباط ومتانته، وخذ لذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥)﴾ ﴿الأنفال ٤، ٥﴾. فقد لا يظهر موضع الكاف ولا مكان الصلة بين الآية الثانية وما قبلها من الآيات، ولكن التأمل يهدي إلى أن القرآن يربط بين أمرين: أولهما ما بدا من بعض المسلمين من عدم الرضا بما فعله الرسول في قسمة الغنائم، وثانيهما ما كان قد ظهر من بعض المؤمنين من كراهية أن يخرج الرسول من منزله إلى الغزو، وقد تم في هذا الغزو النصر والغنيمة، فكأنه يقول إن الخير فيما فعله الرسول في قسمة الغنائم، كما كان الخير فيما قام به الرسول من خروجه إلى الغزو، وبذلك تبدو الصلة قوية واضحة بين الخبرين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ قَالَ اللَّهُ إِنَّكُمْ بِسِتْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَتَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَوَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾ (البقرة ١١٤، ١١٥). فقد تبدو الصلة منقصمة بين هذه الآيات، ولكنك إذا تأملت الآية الأولى وجدت فيها حديثاً عن الذين لا يعلمون ولا يتلون الكتاب، وهؤلاء لا يعترفون بشيء مما أنزل الله، فهم يسعون في تقويض أسس الأديان جميعاً، لا فرق عندهم بين دين ودين، وهم لذلك يعملون على أن يحولوا بين المسلمين وعبادة الله، ويسعون في تخريب بيوت عبادته، ومن هنا صحَّ هذا الاستفهام الذي يدل على أنه لا أظلم من هؤلاء الذين لا يعلمون، وارتباط الآية الثالثة بما قبلها لدلالاتها على أن عبادة الله ليست في حاجة إلى مسجد يقام، بل لله المشرق والمغرب، فحيثما كنتم ففي استطاعتكم عبادة الله؛ لأن ثمة وجه الله.

«قال بعض المتأخرين: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سبقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة»^(١).

ولكل سورة في القرآن هدف ترمى إليه، فتجد سورة الأنعام مثلاً تتجه إلى إثبات توحيد الله ونبوة رسوله، وإبطال مذاهب المبطلين وما ابتدعوه من تحليل حرام أو تحريم حلال؛ وتجد سورة الأعراف تتجه إلى الإنذار والاتعاظ بقصص الأولين وأخبارهم، وتجد سورة التوبة تحدد علاقة المسلمين بأعدائهم من مشركين وأهل كتاب ومنافقين، وتجد سورة الحجر ترمى إلى إثبات تنزيل القرآن وترهيب المكذبين به، بقصص أخبار المكذبين قبلهم، وهكذا تجد هدفاً عاماً تدور حوله السورة، وتتبعه معانٍ أخرى تؤكد ويستتبعها، ويخلص الإنسان في السورة من معنى إلى آخر خلوصاً طبيعياً لا عسر فيه ولا اقتسار.

(١) الإتيان ٢ ج ص ١١٠.

ولنحلل سورة من القرآن، نتبين فيها منهجه، وندرك مدى تأثير هذا المنهج في النفس الإنسانية.

ففي سورة المزمل، والهدف منها تهيئة الرسول للدعوة، وإعداده لما سيلقاه في سبيلها من متاعب ومشاق، بدئت السورة ببناء الرسول، وتكليفه بما يعده لحمل أعباء الرسالة، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ (١) فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَإِذْ كَرَأْسُكُمْ رَبُّكَ وَتَبَثَّ وَإِنَّ رَبَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) ﴾ (المزمل ١ - ٩). ألا تراه يُعِدُّه بهذه الرياضة النفسية الشاقة لتحمل أعباء الرسالة المضنية فليمض الليل أو جزءاً منه في التهجّد وقراءة القرآن، استعداداً لما سيلقى عليه من تكاليف شاقة ثقيلة، وإنما أمر الرسول بالتهجّد في الليل؛ لأن السهر فيه أشق على النفس، ولكنها تخلص فيه لله، وتفرغ من مشاغل النهار وصورافه، وأمر بذكر الله، والإخلاص له تمام الإخلاص، فهو رب المشرق والمغرب، لا إله إلا هو.

بعد هذا الإعداد بالرياضة أراد أن يوطنه على تحمل الأذى في سبيل هذه الدعوة والصبر عليه، وينذر هؤلاء المكذبين بما سيجدونه يوم القيامة من عذاب شديد، وهنا يجد المجال فسيحاً لوصف هذا اليوم وصفاً يبعث الرهبة في النفس، والخوف في القلب، عساها تكف عن العناد، وتنصاع إلى الصواب والحق، ولا ينسى أن يضرب المثل من التاريخ لمن كذب وعصى، كي يكون عظة وذكرى، فقال: ﴿ وَأَضِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مَنفُطَرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) ﴾ (المزمل ١٠ - ١٨).

فأنت ترى الانتقال طبيعياً من توطين الرسول على الأذى، ثم بعث الطمأنينة إلى نفسه بأن الله سيتكفل عنه بتأديب المكذبين، بما أعدّه الله لهم من عذاب أليم يوم القيامة، وتأمل ما يبعثه في النفس تصور هذا اليوم الذي ترتجف فيه الأرض، وتنهار الجبال فيه منهالة، وينتقل إلى الحديث عن عاقبة من كذب بالرسول من أسلافهم، ثم يتجه إليهم، موجهاً لهم الخطاب يسألهم متعجباً، عما أعدوه من وقاية لأنفسهم يصونونها بها من هول يوم يشيب الطفل فيه من شدته، وحسبك أن ترفع

الطرف إلى أعلى، فترى السماء التي أحكم بناؤها، قد فقدت توازنها وتصدع بناؤها. ويختم هذا الإنذار بجملة تدفع النفس إلى التفكير العميق، وتفتح أمامها باب الأمل والنجاة لمن أراد أن يظفر وينجو، إذ قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (المزمل ١٩). ألا تحس في هذه الجملة معنى إلقاء المغيبة على عاتق هؤلاء المنذرين، وأنهم المسئولون عما سوف يحيق بهم من ألم وشقاء، أو ليس في ذلك ما يحفزهم إلى التفكير الهادئ المتزن، عساهم يتخذون إلى ربهم سبيلاً؟

وينتقل القرآن من إنذاره لهؤلاء المكذبين إلى خطابه للمطيعين، وهم الرسول وطائفة ممن معه، فيشكر لهم طاعتهم، ولا يرهقهم من أمرهم عسراً، ويطلب إليهم القيام ببعض الفروض، ويحببها إليهم، فهم عندما يؤتون الزكاة يقرضون الله، ومن أوفى بأداء الحقوق منه سبحانه، ويختم خطابه لهم بوصفه بالغفران والرحمة، فيقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْضَوْهُ قَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَسَرَّ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِيمٌ أَنْ سَيَكُونَ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَسَرَّ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المزمل ٢٠). فأنت ترى في هذه الآية الكريمة مدى الرفق في خطاب المطيعين، وما أعد لهم من رحمة وغفران، في مقابل ما لدى الله من أنكال وجحيم لهؤلاء المكذبين.

أنت بذلك التحليل ترى مدى الترابط بين الأغراض المختلفة، واتساق كل غرض مع صاحبه، وحسن التخلص وطبيعة الانتقال من غرض إلى آخر وتستطيع أن تمضي في تحليل سور القرآن على هذا النسق، وسوف ترى الربط بين الأغراض، قوياً وثيقاً.

فيذا رأيت في بعض السور بعض آيات يشكل عليك معرفة وجه اتساقها في غرض السورة فترث قليلاً تر وجه المجيء بها قوياً، ولعل من أبعد الآيات تعلقاً بسورتها في الظاهر قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿لَا تُحْرَكُ بِهِ لِسَانُكَ لِتَفْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٩) ﴿القيامة ١٦ - ١٩﴾، فإن السورة كلها حديث عن يوم القيامة وأحواله. وأفضل ما رأيت في توجيه هذه الآيات ما حكاه الفخر الرازي من «أنها نزلت في الإنسان المذكور قبل في قوله: ﴿يَبَأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (القيامة ١٣). قال: «يعرض عليه كتابه، فإذا أخذ في القراءة تلجج خوفاً، فأسرع في القراءة، فيقال له:

لا تحرك به لسانك، لتعجل به، إن علينا أن نجتمع عمك، وأن نقرأ عليك، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت، ثم إن علينا بيان أمر الإنسان، وما يتعلق بعقوبته»^(١) وإذا كنت أوافق في أصل الفكرة فإنني أخالفه في تفصيلاتها، فالمعنى، على ما أرى، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر، وذلك كما أخبر القرآن، في كتاب مسطور، وفي تلك الآيات يصف القرآن موقف المرء من هذا الكتاب فهو يتلوه في عجل كي يعرف نتيجته، فيقال له: لا تحرك بالقراءة لسانك لتتعجل النتيجة، إن علينا أن نجتمع ما فيه من أعمال في قلبك، وأن نجعلك تقرؤه في تدبر وإمعان، فإذا قرأته فاتجه الاتجاه الذي يهديك إليه، وإن علينا بيان هذا الاتجاه وإرشادك إليه إما إلى الجنة، وإما إلى السعير. وبذلك يتضح أن لا خروج في الآيات على نظم السورة وهدفها.

ذلك هو ما أراه في ترتيب آيات القرآن الكريم وشدة ما بينها من ارتباط، وكان بعض العلماء يشعر بشدة صلة أى القرآن بعضها ببعض، حتى يكون كالكلمة الواحدة، ومن هؤلاء ابن العربي^(٢). وممن عنى بدراسة التناسب بين الآيات أبو بكر النيسابورى «وكان غزير العلم فى الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه: لم جعلت هذه الآية إلى جانب هذه، وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وممن أكثر منه فخر الدين، قال فى تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط»^(٣).

لا أوافق إذا عز الدين بن عبد السلام عندما قال: «المناسبة علم حسن، ولكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصابن عن مثله حسن الحديث، فضلا عن أحسنه، فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض»^(٤). ولا أوافق أبا العلاء بن غانم فى قوله: «إن القرآن إنما ورد على الاقتضاب الذى هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم وأن ليس فى القرآن شىء من حسن التخلص»^(٥).

لا أوافقهما وحجتى فى ذلك أمران: أما أولهما فما نراه من حسن التناسب وقوة الارتباط حقاً بين الآى بعضها وبعض، محققة بذلك هدف القرآن كما تحدثنا، ولعل عز الدين ومن لف لفه كان يرى التناسب يتم إذا جمعت آيات الأحكام مثلاً

(٣) المرجع نفسه.

(٢) الإتيان ج ٢ ص ١٠٨.

(١) الإتيان ج ٢ ص ١٠٨.

(٥) المرجع السابق ص ١٠٩.

(٤) المرجع السابق نفسه.

كلها فى سورة واحدة أو عدة سور، وجمعت القصص كلها كذلك فى سورة واحدة أو عدة سور، وجمعت حوادث التاريخ كلها فى سورة واحدة أو عدة سور، وهكذا، وقد سبق أن بيّنا أن هذا النهج لا يحقق الهدف الذى يرمى إليه القرآن من الإرشاد والهداية، فليس القرآن كتاب قصص أو تاريخ، ولكنه كتاب دين، يرمى إلى التأثير فى النفس، فهو يلقى العظة، مبيّناً ما فى اتباعها من خير، وضارياً المثل من التاريخ على صدق ما ادعى، ومستشهداً بقصص الأولين وآثارهم، ومقنناً من الأحكام ما فيه خير الإنسانية وكمالها، وكل ذلك فى تسلسل واطراد وحسن اتساق، ترتبط المعانى بعضها ببعض، ويؤدى بعضها إلى بعض.

أولاً نرى فى هذا النهج القرآنى وسيلة لتكرير العظات والإنذار والتبشير فى صور متعددة مرات عدة، وللتكرير كما قلنا أثره فى تثبيت المعنى فى النفس، وبلوغ العظة الهدف الذى ترمى إليه، ولن يكون للتكرير جماله إذا عمد القرآن إلى كل غرض على حدة فوضع آية بعضها إلى جانب بعض.

وأما ثانيهما فتاريخى يعود إلى ترتيب الرسول للقرآن بأمر ربه، فقد كانت تنزل عليه الآيات فىأمر كتابة الوحي أن يضعوها فى موضعها بين ما نزل من القرآن، فى هذه السورة أو تلك، ويضع بعض ما نزل فى مكة بين آيات السور المدنية، فلولا أن رابطاً يجمع بين هذه الآيات بعضها وبعض، ما كان ثمة سبب يدفع إلى هذا الوضع ولا يقتضيه بل لرتبت الآى كما نزلت وما كان هناك داع إلى ترتيب ولا تبويب، أما والقرآن قد نزل للناس كافة، وللأجيال جميعها فقد اختار الله لكتابه خير ترتيب يحقق الهدف الذى له نزل الكتاب الحكيم.

- ٢ -

وتبدأ سور القرآن مثيرة فى النفس الإجلال، وباعثة فيها الشوق، والرغبة فى تتبع القراءة، والاستزادة منها، فهى حينئذ تعالى بتعداد ما له من صفات العظمة والجلال كما فى قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخْفِي وَيُكْشِفُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾ (الحديد ١ - ٣). وحينئذ تعظيم من شأن الكتاب وتقدير له، تقديرًا يبعث على الإصغاء إليه وتدبر آياته كما فى قوله سبحانه: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا.﴾ (فصلت ٢-٤) أولاً ترى الشوق يملأ نفسك وأنت تصغى إلى مثل تلك الفاتحة:

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (يوسف ١). وكأنما هي تنبيهه للسامع كي يستجمع كل ما يملك من قوة، ليستمع إلى ما سيلقى إليه، وكذلك يثور الشوق لدى سماع كل فاتحة فيها ثناء على الكتاب وتعظيم لأمره، شوق يدعو إلى معرفة ما يحويه هذا الكتاب، الذي يصفه حيناً بأنه يخرج من الظلمات إلى النور، في قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (ابراهيم ١). وبأنه لا ريب فيه في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ٢). وكثر في القرآن البدء بالقسم، وهو بطبيعته يدفع إلى التطلع لمعرفة المقسم عليه، لأنه لا يلجأ إلى القسم إلا في الأمور المهمة التي تحتاج إلى تأكيد وإثبات، وقد يطول القسم فيطول الشوق، وتأمل جمال البدء بالقسم في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ (الليل ١ - ٤).

وكما يثير القسم الشوق والتطلع، كذلك يثيرهما في النفس الاستفهام والشرط، ففي الاستفهام تتجمع النفس لمعرفة الجواب، وفي الشرط تتطلع لمعرفة الجزاء، وقد افتتحت عدة سور من القرآن بهما كما في قوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (المنكوت ٢). وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَرتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمْتِ وَأَخَّرْتِ (٥)﴾ (الانفطار ١ - ٥).

وقد تبدأ السورة بثناء الرسول أو المؤمنين، للأمر بشيء ذي بال، أو النهي عن أمر شديد النكر، أو تبدأ بخبر يثير الشوق، أو تدخل السورة مباشرة في الحديث عن الغرض الذي نزلت لأجله، كما في قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة ١). وكأن في ضخامة الغرض وقوته ما يشغل عن التمهيد له، بل كأن في التمهيد إضاعة لوقت يحرص القرآن على ألا يضيع.

وقد يكون مفتتح السورة موحياً بفكرتها، ومتصلاً بها شديد الاتصال، ومتناسباً معها شديد التناسب، فمن ذلك سورة آل عمران التي افتتحت بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (آل عمران ٢). وقد عالجت السورة أمر عيسى ونزعت الله عن الولد، أو لا ترى البدء مناسباً لهذا التنزيه؟ ومن ذلك سورة النساء، فقد تحدثت عن كثير من أحكامهن في الزواج والميراث، فكان من أجمل براعات الاستهلال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

(النساء ١). ألا ترى في خلق المرأة من زوجها ما يوحى بالرفق والحنان الذي يجب أن تعامل به المرأة فلا يبخس حقها زوجة أو أما أو بنتاً، وفي الحديث عن تقوى الأرحام هنا إشارة كذلك إلى أن السورة ستعالج بعض أمورهم أيضاً ورثة يتامى. وقل مثل ذلك في أول الأنعام التي ترمى إلى إثبات توحيد الله إذ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقْدِرُونَ﴾ (الأنعام ١)، فليس غير السموات والأرض شيء يبقى خلقه لغير الله.

- ٣ -

ولخاتمة السورة أثرها الباقي في النفس، لأنه آخر ما يبقى في الذهن، وربما حفظ دون باقى الكلام، ومن أجل هذا كانت خواتم سور القرآن مع تنوعها تحمل أسمى المعانى وأنبهها، فهي حيناً دعاء وابتهاال يحمل النفس الإنسانية إلى عالم روحى سام، يعترف فيه الإنسان بعجزه أمام قدرة الله، ويطلب من هذه القوة القاهرة أن تعينه وأن تنصره، أو لا يشعر المرء حين يلتجئ إلى هذه القوة بأنه ألقى ثقله، وتخفف من عبئه، كما تجد ذلك فى ختام سورة البقرة إذ يقول سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لِطَآئِفَةٍ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٢٨٦). أو لا يؤذن هذا الدعاء بعد سورة اشتملت على كثير من الجدل والنقاش، وجملة كبيرة من الأحكام بأن السعادة الحقة إنما هي فى هذا الالتجاء إلى الله، واستمداد القوة من قدرته، وبذا كان هذا الدعاء مؤذناً بالانتهاء، باعثاً برد الراحة فى الفؤاد، بعد معركة طال فيها بيان الحق، ومناقشة الباطل وهدمه. وحيناً حديث عن الله بإجلاله وتقديسه، أو بتعداد صفاته الباعثة على حبه وإجلاله معاً، فتراه فى ختام سورة المائدة يقول: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة ١٢٠). وفى ختام سورة الإسراء يقول: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذُّلَّةِ وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ (الإسراء ١١١). إلى غير ذلك من سور كثيرة، وكأن فى هذا الختام خلاصة الدعوة التى تهدف السورة إليها، فكان ذكره مؤذناً بانتهائها، كما تذكر خلاصة الكتاب فى نهايته.

وفى أحيان كثيرة تختتم السورة بما يشعر بأن القرآن قد أدى رسالته، فعلى السامع أن يتدبر الأمر، ليرى أى الطريقتين يختار، والختم بذلك يبعث فى نفس

القارئ التفكير أيوثر الهدى أم يختار الضلال، فتراه مثلا فى نهاية سورة التوبة يقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾ (التوبة ١٢٨-١٢٩). أو تختتم بإنذار أو وعد أو أمر بركن من أركان الحياة الرفيعة الصالحة، فيختتم آل عمران بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران ٢٠٠).

وقل أن تختتم السورة بحكم تشريعى جديد، كما فى سورة النساء. وفى كل ختام تشعر النفس بأن المعانى التى تناولتها السورة قد استوفت تمامها، ووجدت النفس عند الخاتمة سكونها وطمأنينتها، حتى إن السورة التى ختمت باستفهام لم يشعر المرء عنده بنقص يحتاج إلى إتمام، بل كان جوابه مغروسا فى القلب، مستقرا فى الضمير، فتم بالاستفهام معنى السورة، وأثار فى النفس ما أثار من إقرار لا تستطيع تحولا عنه ولا إخفاء له.

الفصل الرابع

أسلوب القرآن

أول ما يتسم به أسلوب القرآن هو الفخامة والقوة والجلال، يكتسبها من انتقاء اللفاظ، لا امتهان فيها ولا ابتذال، ومن استخدام ألوان التوكيد والتكرير. تشعر بهذه الفخامة في كل ما تناوله القرآن من الأغراض، واستمع إليه يصف جنة الخلد قائلا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَیْبًا قَمَطًا مَرِئًا (١٠) قَوَّاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَكِينِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَطْوَافُهَا تَدْلِيلًا (١٤) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُجُجًا مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا (٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خَضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوفٌ أُسَاطِيرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَّاهُمْ مِنْهُم شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا (٢٢)﴾ (الإنسان ١٠ - ٢٢). وهكذا يكتسب الأسلوب القرآني قوته من اختيار ألفاظه وموسيقاه.

وثانى ما يتصف به التصوير، وقد أوضحنا بعض ذلك فيما مضى، عندما تحدثنا عن تخيير اللفظ في الجملة، وعن التصوير بالتشبيه والاستعارة، ونضيف إلى ذلك أنه كثيرا ما ينقل الحوار، ويحكى نص القول بعنا للحياة في الأسلوب، واستمع إلى ألوان الحوار في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَتَالَهَمُ نَصِيحُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْعِجْنِ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَ كُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ ضَلُّوا عَنَّا فَبَدَّلْنَا غَضَابَنَا بِغَضَابِكُمْ وَأَخْرَاهُمْ إِلَى الْعِجْنِ أَلَمْ نَجْعَلِ لَكَ آيَاتٍ كَثِيرًا مِمَّا نُنزِّلُ بِالْقُرْآنِ أَفَرَأَيْتَ إِذْ أَنْزَلْنَا الْحُرُوفَ أَنْ نَبْدَأُهَا حَرًا وَإِسْهَابًا وَأَنْزَلْنَا الْحُرُوفَ أَنْ تَبْلُغَ أَهْتَاجًا وَتُنزِلَ نَزْلًا مَعْرُوفًا أَفَرَأَيْتَ إِذْ أَنْزَلْنَا الْحُرُوفَ أَنْ نَبْدَأُهَا حَرًا وَإِسْهَابًا وَأَنْزَلْنَا الْحُرُوفَ أَنْ تَبْلُغَ أَهْتَاجًا وَتُنزِلَ نَزْلًا مَعْرُوفًا أَفَرَأَيْتَ إِذْ أَنْزَلْنَا الْحُرُوفَ أَنْ نَبْدَأُهَا حَرًا وَإِسْهَابًا وَأَنْزَلْنَا الْحُرُوفَ أَنْ تَبْلُغَ أَهْتَاجًا وَتُنزِلَ نَزْلًا مَعْرُوفًا﴾ (الأنعام ١٠٨ - ١١٠).

لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) ﴿(الأعراف ٣٧-٣٩). والحوار كما ترى ينقل
الحقيقة أمامك مصورة.

وثالث ما يختص به هذا الانسجام الموسيقي، الذي فيه تؤلف العبارة من
كلمات متسقة، ذات حركات وسكنات، يشعر المرء عند تلاوتها بما يكمن وراء هذا
النظام من موسيقى واتساق، وإن هذه الموسيقى التي تكمن وراء هذا النظم هي
التي مكنت المرتلين من تلاوته بهذه الأنغام الموسيقية، وإن شدة هذا الانسجام
يصل في بعض الأحيان إلى أن تتفق الآية مع وزن بحر من بحور الشعر، كما نرى
ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ (سبا ١٣). فهي تتفق مع بحر
الرمل، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَرَكَّى فَاِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ (فاطر ١٨). مما يترن على بحر
الخفيف، وقوله تعالى: ﴿هِيَآتَ هِيَآتَ لِمَا تُوَعَدُونَ﴾ (المؤمنون ٣٦). مما هو شطر بيت
من بحر السريع، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا
يَحْتَسِبُ (٣)﴾ (الطلاق ٢، ٣). مما يوزن على بحر المتقارب، وقوله سبحانه: ﴿وَدَانِيَةً
عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَطْوْفُهَا تَذِيلًا﴾ (الإنسان ١٤). وبإشباع حركة الميم يوزن على بحر
الرجز، وقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ (التوبة ١٤)
وزنوه على بحر الوافر، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ
قَدْحًا (٢)﴾ (العواديات ١، ٢). وما على شاكلته، مما يوزن على بحر البسيط. وليس ذلك
بمدخل القرآن في الشعر؛ لأنه «إنما يطلق متى قصد القاصد إليه، على الطريق
الذي يعمد ويسلك، ولا يصح أن يتفق مثله إلا من الشعراء، دون ما يستوى فيه
العامي والجاهل، والعالم بالشعر واللسان وتصرفه، وما يتفق من كل واحد،
فليس يكتسب اسم الشعر، ولا صاحبه اسم شاعر، لأنه لو صح أن يسمى شاعرًا كل
من اعترض في كلامه ألفاظ تترن بوزن الشعر، أو أن تنتظم انتظام بعض
الأعاريض، كان الناس كلهم شعراء، لأن كل متكلم لا ينفك من أن يعرض في
جملة كلام كثير يقوله ما قد يترن بوزن الشعر، وينتظم انتظامه، ألا ترى أن
العامي قد يقول لصاحبه: «أغلق الباب، وانتني بالطعام»... ومتى تتبع الإنسان
هذا عرف أنه يكثر في تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه»^(١).

ويتسم الأسلوب القرآني بالهدوء عندما يتطلب الأمر هدوءًا وتأملاً وفضل
تدبر، كما في الآيات التي تدعو إلى أعمال الفكر، وفي القصص والأخبار

(١) إعجاز القرآن ص ٥٧.

والأحكام، كما فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ
العَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ
رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا
زُوجِينَ إِنثَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ
مَّتَّجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صَبْوَانٌ وَغَيْرُ صَبْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ
بِغَضِّهَا عَلَىٰ غُبُصٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَنَذَا
كُنَّا تُرَابًا أُنْزِلْنَا لَقَدْ خَلَقْنَا أَكْبَادَهُمُ الْأُولَىٰ وَلَهُمْ فِيهَا مَعْيِرَةٌ فَأَمَّا جَدِيدُهُمْ فَقَدْ حَسَبُوا أَنَّهَا
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ
الْمَثَلَاتُ وَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ عَيْنًا تُبْتِغِي الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ فَكُلِّمِي الْغَنِيَّةَ أَنَّهَا مُؤْتَىٰ رَءِيسٍ
عَلِيمٍ (٦) وَإِذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ رَأَىٰ أَنَّهُ اتَّخَذَ آلِهَةً مِمَّا كَفَرَ بِهِ إِذْ قَالَ يَا أبايَ
مَاذَا تَعْبُدُونَ قَالَ تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي فَأُصَبِّحَ بِهَا كَاكِبًا
مُتَّخِذًا لِلدُّنْيَا مَتَّعًا وَالْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّيَ وَإِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُ بِآيَاتِ رَبِّي
وَكَذَلِكَ نَبِيٌّ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ
اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا
رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ
هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي
فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ
هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)
وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَسْرَكْتُمْ وَلَا تُخَافُونَ أَنُكُمُ اسْرِكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ
الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ
الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ (الأنعام ٧٤ - ٨٢).

وحيثما يتدفق الأسلوب ويندفع، فى جمل قصيرة، مثيرا بذلك الانفعال السريع
العنيف، وذلك حيث يتطلب هجوم الحق على الباطل هذا العنف المثير، كما تجد
ذلك فى قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ
لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمْ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
الْحَقَّ فَمَنْ مَعْرُضُونَ (٢٤)﴾ (الأنبياء ٢١ - ٢٤). وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيٌّ وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيدًا (١١)
وَجَعَلْتَ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَيْنَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتَ لَهُ تَمَهِّدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ
(١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَبِيدًا (١٦) سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ
(١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ
هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصَلِّبُهُ سِقْرًا (٢٦) وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا

تُبْقِي وَلَا تَدْرُ (٢٨) ﴿ (المدرثر ١١ - ٢٨). أو عندما يتطلب الأمر إسراعاً كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجِرْ (٥) وَلَا تُنْمِنْ تَنْتَكِبْ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾ (المدرثر ١ - ٧).

وأسلوب القرآن منه المسجوع ومنه المرسل، وهو في كليهما يخالف غالباً ما ألف الناس في السجع والإرسال، فالقرآن يلتزم حرف السجع في أكثر من آيتين، بل قد تكون السورة كلها على حرف واحد، كسورة القمر، التي التزم فيها حرف الراء، ومن أمثلة ما تعدى فيه السجع جملتين، قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَا مِنْ اسْتَعْجَلِي (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي (٧) وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) ﴾ (عبس ١ - ١٠).

وقد يأتي بين الجمل المسجوعة بجملة لا تتفق فاصلتها مع ما سبقها ولحقها، وكأنما تلك الكلمة تتطلب عناية خاصة، تستدعي قدراً كبيراً من الرعاية، تثيره هذه المخالفة لنسق الآيات كقوله تعالى: ﴿مِنْ نُطْقِهِ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانَ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غَلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أُمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ (عبس ١٩ - ٣٧). فأنت ترى كلمتي: طعامه والصاخة، بخروجهما على النسق، قد أثارا انتباه السامع، ودفعاه إلى التريث وإنعام النظر. كما أنك ترى في الآيات السالفة أن الكلمة قد تحافظ على وزن زميلتها في السجع لا في الحرف الأخير، كما نجد ذلك في قضباً ونخلاً، وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك في فصل الفاصلة.

وقد تكون الجملتان المسجوعتان متوازنتين في القصر، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) ﴾ (التكوير ١ - ٥)، وحينئذ تتوازنان في الطول، ولا يكون باقياً من مظاهر السجع سوى هذه الفاصلة التي تتفق في آخر الآيات، أما الآيات نفسها فمرسلة، وإن كانت لا تتفق مع مرسل كلام الناس، لوجود الفاصلة المتحدة أو المتماثلة في آخرها، كما ترى ذلك في قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

العالمين (٦٥) قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شَيْوِخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ (غافر ٦٤ - ٦٧). وفي هذه الآيات فضلا عن ذلك، مظهر من مخالفة السجع القرآني لسجعنا العادي، فبينما يطلب تكرير الكلمة، لغير تورية أو جناس، ضعفا في التأليف، إذا به في نظم الآي يزيدا جمالا ورونقا، وكأنما هذه الكلمة لازمة النشيد، تكرر فتزيده حسنا وحلاوة.

وقد تتوازن الآي القرآنية من غير سجع، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْفَعِيهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا (٦) وَكُنُثُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩)﴾ (الواقعة ١ - ٩).

وفي القرآن إرسال، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة ٢٢). وهو يخالف إرسالنا العادي بهذه الفواصل في آخره كما ذكرنا.

* * *

الكتاب الثاني

الفصل الأول

المعاني القرآنية

سنتناول في هذا الفصل بعض ما أورده القرآن من المعاني، مبينين النواحي التي تناولها القرآن منها، فلاختيار عناصر الموضوع قيمته في التأثير في النفس الإنسانية، فليس رونق اللفظ وحده هو الذي له السلطان على النفوس، ولكن لجوانب المعاني التي عولجت وعلاقتها بالعواطف الإنسانية والغرائز البشرية أثر في السيطرة على الأفئدة، وامتلاك جوانب القلب، بل إن السحر كل السحر إنما هو في المقدرة على انتقاء هذه المعاني، والمقدرة على حسن التعبير عنها، وهالك بعض ما تحدث عنه القرآن.

الله

صور القرآن الله المثل الأعلى في جميع صفات الكمال، فهو السميع الخبير، على كل شيء قدير، غفور رحيم، عزيز حكيم، حي قيوم، واسع عليم، بصير بالعباد، يحب المحسنين والصابرين، ولا يحب الظالمين، ويمحق الكافرين، غني حميد، واحد قهار، نور السموات والأرض، قوي، شديد العقاب، خالق كل شيء، لا إله إلا هو، على كل شيء شهيد، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور، له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، الأول والآخر، والظاهر والباطن، الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، سريع الحساب، غني عن العالمين، عليم بذات الصدور، بكل شيء محيط، على كبير، عفو غفور، شاکر حلیم، ليس بظلام للعبيد، يجزي المتصدقين، ولا يهدى كيد الخائنين، لا يخلف الميعاد، عزيز ذو انتقام، خير الرازقين، لطيف خبير، ذو القوة المتين. أوليس من يتصف بهذه الصفات المثالية جديراً بالعبادة والتقديس، وألا يتخذ له شريك، ولا من دونه إله.

ومن بين ما عنى القرآن به أكبر عناية إبراز صفة الإنعام التي يتصف بها الله سبحانه؛ فيوجه أنظارهم إلى النعمة الكبرى التي أودعها قلوبهم وهي نعمة

الهدوء والسكينة يحسون بها، عندما يعودون إلى بيوتهم، مكودين منهوكي القوى، وإلى هدايتهم إلى بناء بيوت من جلود الأنعام، يجدونها خفيفة المحمل في الظن والإقامة، وإلى اتخاذ أثاثهم وأمتعتهم من أصوافها وأوبارها، وإلى نعمة الظل يجدون عنده الأمن والاستقرار، وإن للشمس وحرارتها لوقعا مؤلما في النفوس وعلى الأجسام، ومن أجمل وسائل الاستتار هذه الثياب تقي صاحبها الحر، وبها تتم نعمة الله، فيقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْقَالًا إِلَى حِينٍ (٨٠)﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾ (النحل ٧٩ - ٨١).

ويوجه أنظارهم إلى ما في خلق الزوج من نعمة تسكن إليها النفس، وتجد في ظلها الرحمة والمودة، فيقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم ٢١). وهو الذي يرزقهم، ويرزق ما على الأرض من دواب، لا تستطيع أن تتكفل برزق نفسها، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت ٦٠). وينبهم إلى ما في اختلاف الليل والنهار من تجديد النشاط للجسم، وبعث القوة في الأحياء وما في الفلك المسخرة تنقل المتاجر فوق سطح البحر، فتنتفع الناس، وفي الماء ينزل من السماء فيحيى الأرض بعد موتها، وفي الرياح تحمل السحاب المسخر بين السماء والأرض، ينبهم إلى نفع ذلك كله فيقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِبُ الرِّيحُ وَالسَّحَابُ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ١٦٤). ويسأل عنم يلجئون إليه، حين يملأ قلبهم الرعب من ظلمة البر البحر، أليس الله هو الذي ينجيهم منه ومن كل كرب، فيقول: ﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣)﴾ قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ (٦٤)﴾ (الأنعام ٦٣ - ٦٤).

ويحدثهم عن نعمة تبادل الليل والنهار، وعما خلق له الليل من نعمة الهدوء والسكون، وعن الشمس والقمر يجريان في دقة ونظام، فيحسب الناس بهما حياتهم، وينظمون أعمالهم، وعن النجوم في السماء تزينها كمصابيح، ويهتدى بها السائر في ظلمات البر والبحر، وعن المطر ينزل من السماء، فتحيها به الأرض وتنتب به الجنات اليانعة، ذات الثمار المشتبهة وغير المشتبهة، وكان للمطر في

الحياة العربية قدره وأثره، فعليه حياتهم، فلا جرم أكثر القرآن من الحديث عنه
نعمة من أجل نعمه عليهم، فيقول: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرًّا
وَمُسْتَوْدَعًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ
كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِوَانٌ ذَابِيَةٌ وَجَنَاتٍ مِنْ
أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَتَّعِبُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾ (الأنعام ٩٦-٩٩). وتحدث عن هذه النعم نفسها مرارًا أخرى كقوله:
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ
وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
ذَاتَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا
إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ (إبراهيم ٣٢-٣٤). وتحدث إليهم عما أنعم به عليهم من
أنعام، فيها دفاء ومنافع، وجمال، وعاد فذكرهم بنعمة المطر وإنباته الزرع،
وخص البحر بالحديث عن تسخيره، وما نستخرجه منه من اللحم والحلى، وما
يجرى فوقه من فلك تمخر عبابه، فقال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا
بِالْعَبِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً
وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قُضْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي
أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ
وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ
وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ
لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا
مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ (١٤) وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥)
وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعَدُّوا
نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾ (الأنعام ٥-١٨). وللأنعام فى حياة العرب
بالبادية ما يستحق أن يذكرها به، وأن يسجل فضله عليهم بها. ويوجه القرآن
نظرهم إلى خلقهم وما منحهم الله من نعمة السمع والبصر والعقل، فيقول: ﴿قُلْ
هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الملك ٢٣). وكثيرًا

ما امتنَّ عليهم بنعمة الرزق، فيقررّها مرة، ويقررهم بها أخرى، فيقول حينئذٍ: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر ٦٤). ويقول حينئذٍ: ﴿فَأَمَّا مَنْ يَبْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (يونس ٣١). ويسترعى انتباههم إلى طعامهم الذي هو من فيض فضله، فيقول: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبْنَا وَقَضَبًا (٢٨) وَزَيَّنَّوْنَا وَنَخَلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غَلْبًا (٣٠) وَقَاكِبَةً وَأَبَّأ (٣١) مَتَاعًا لَّكُمُ وَلَا نِعَامًا كُمْ﴾ (عبس ٢٤-٣٢).

وإن في إكثار القرآن من الحديث عن هذه النعم، وتوجيه أنظارهم إليها، وتقريرهم بها، ما يدفعهم إلى التفكير في مصدرها، وأنه جدير بالعبادة، وما يثير في أنفسهم شكرها وتقديس بارئها، ولاسيما أن تلك النعم ليست في طاقة بشر، وأنها باعترافهم أنفسهم من خلق العليّ القدير. وهكذا يتكئ القرآن على عاطفة إنسانية يثيرها، لتدفع صاحبها عن طريق الإعجاب حينئذٍ، والاعتراف بالجميل حينئذٍ، إلى الإيمان بالله وإجلاله وتقديسه. كما أن ذلك الوصف يبعث في النفس حب الله المنعم، فتكون عبادته منبثّة عن حبه وشكر أياديه.

ومما عنى القرآن بإبرازه من صفات الله وحدانيته، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وقد أبرز القرآن في صورة قاطعة أنه لا يقبل الشرك ولا يغفره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء ٤٨). ويعد الإشراف رجساً فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ (التوبة ٢٨).

أوليس في هذا التصوير ما يبعث في النفس النفور منه والاشمئزاز؟!

والقرآن يعرض لجميع ألوان الإشراف، فيدحضها ويهدمها من أساسها، فعرض لفكرة اتخاذ ولد، فحدثنا في صراحة عن أنه ليس في حاجة إلى هذا الولد، يعينه أو يساعده، فكل من في الوجود خاضع لأمره، لا يلبث أن ينقاد إذا دعى، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانُونَ (١١٦) بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)﴾ (البقرة ١١٦، ١١٧). وحينئذٍ يدفع ذلك دفعا طبيعيا بأن الولد لا يكون إلا إذا كان ثمة له زوجة تلد، أما وقد خلق كل شيء، فليس ما يزعمونه ولدا سوى خلق ممن خلق: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلَيْكُمْ (١٠١) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
وَكَيلٌ (١٠٢) ﴿(الأنعام ١٠١-١٠٢)﴾

ويعرض مرة أخرى لهذه الدعوى، فيقرر غناه عن هذا الولد، ولم يحتاج إليه،
وله ما في السموات وما في الأرض، فيقول: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا
فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ
إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْفِئُهُمْ
الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾ (يونس ٦٨ - ٧٠). ويعجب القرآن كيف يخيل
للمشركين عقولهم أن يخصصوا أنفسهم بالبنين ويجعلوا البنات لله، فيقول:
﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠)﴾ (الإسراء ٤٠).
ويصور القرآن - في أقوى صور التعبير - موقف الطبيعة الساخطة المستعظمة
نسبة الولد إلى الله، فتكاد - لشدة غضبها - أن تنفجر غيظًا، وتنشق ثورة، وتخر
الراسيات لهول هذا الافتراء، وضخامة هذا الكذب، وأصغ إلى تصوير هذا الغضب
في قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ
وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١)﴾ (مريم ٨٨ - ٩١). أما هؤلاء
الذين دعواهم أبناء الله، فليسوا سوى عباد مكرمين، خاضعين لأمره، ولن يجروا
واحد منهم على ادعاء الألوهية، أما من تجرأ منهم على تلك الدعوى فجزاؤه جهنم،
لأنه ظالم مبين، وهل هناك أقوى في هدم الدعوى من اعتراف هؤلاء العباد أنفسهم
الذين يدعونهم أبناء، بأنهم ليسوا سوى عبيد خاضعين، ومن جروا منهم على دعوى
الألوهية كان جزاؤه عذاب جهنم خالدًا فيها، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا
سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
خَلْفَهُمْ وَلَا يُشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أِزْتَصَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ
ذُوْنِهِ فَذَلِكْ نَجْرِيْهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ (الأنبياء ٢٦ - ٢٩).

وعلى هذا النسق نفسه جرى في الرد على من زعم ألوهية المسيح، فقد جعل
المسيح نفسه يتبرأ من ذلك وينفيه، إذ قال: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ بَنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ
لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْ إِلَهَيْنِ مِنْ ذُوْنِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُوْنُ لِي أَنْ أَقُوْلَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ
كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوْبِ (١١٦) مَا
قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا
تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾ (المائدة ١١٦، ١١٧).

وتعرض القرآن مرارًا لدعوى ألوهية عيسى، وقوض هذه الدعوى من أساسها

بأن هذا المسيح الذى يزعمونه إلهًا، ليس لديه قدرة يدفع بها عن نفسه إن أراد الله أن يهلكه، وأنه لا امتياز له على سائر المخلوقات، بل هو خاضع لأمره، مقر بأنه ليس سوى عبد الله، وليس المسيح وأمه سوى بشرين يتبولان ويتبرزان، أو تقبل الفطرة الإنسانية السليمة أن تتخذ لها إلهًا هذا شأنه، لا يتميز عن الناس فى شيء، ولا يملك لهم شيئًا من الضر ولا النفع، ولنصت إلى القرآن مهاجمًا دعوى ألوهية عيسى قائلًا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة ١٧). ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٢) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَكُمُ الْعَذَابُ الَّذِي كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣) ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٤) ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ (٧٥) قُلْ اتَّعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَكُمْ ضِرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) ﴿ (المائدة ٧٢ - ٧٦).

وإن الغريزة لتناى عن عبادة من لا يملك الضرر ولا النفع. وتأمل جمال الكناية فى قوله: ﴿يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾. والمسيح مقر - كما رأيت - بعبوديته ولا يستنكف أن يكون لله عبدًا، ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (النساء ١٧٢).

وهاجم القرآن بكل قوة الإشراك بالله، وهو يهاجم ببلاغته العقل والوجدان معًا فيأخذ فى نقاش المشركين، ليصلوا إلى الحق بأنفسهم، ويلزمهم الحجة، ويقودهم إلى الصواب، فيسألهم عن يرزقهم، ومن يملك سمعهم وأبصارهم، ومن يخرج الحى من الميت، ويخرج الميت من الحى، ومن يدبر أمر العالم، ومن يبدأ الخلق ثم يعيده، ومن يهدى إلى الحق، وإذا كان المشركون أنفسهم يعترفون بأن ذلك إنما هو من أفعال الله، فما قيمة هؤلاء الشركاء إذا، وما معنى إشراكهم لله فى العبادة، أو ليس من يهدى إلى الحق جديرًا بأن يعبد ويتبع، أما من لا يهتدى إلا إذا اقتيد فمن الظلم عبادته، ومن الجهل اتباعه، وليست عبادة هؤلاء الشركاء سوى جرى وراءه وهم لا يغنى من الحق شيئًا، وتأمل جمال هذا النقاش الذى يثير التفكير والوجدان معًا: يثير التفكير بقضاياها، ويثير الوجدان بهذا التساؤل عن الجدير

بالاتباع، وتصويره المشرك، مصروفًا عن الحق، مافوكا، ظالمًا، يتبع الظن الذي لا يغنى عن الحق شيئًا، وذلك حين يقول: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَقَمَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يُتَّبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ (يونس ٢١ - ٢٦). وفي التحدث إليهم عن الرزق، وهدايتهم إلى الحق، ما يثير في أنفسهم عبادة هذا الذي يمددهم بالرزق، ويهديهم إلى الحق، واستمع إلى هذا النقاش الذي يحدثهم فيه عن نعمه عليهم، متسائلًا: أئله شريك في هذه النعم التي أسداها، وإذا لم يكن له شريك فيما أسدى، فكيف يشرك به غيره في العبادة؟ فقال مرة: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ (٥٩) أَمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَئِنَّ اللَّهَ بَلٌّ لَكُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ (٦٠) أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِنَّ اللَّهَ بَلٌّ لَكُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خَلْفَهُ الْأَرْضَ أئِنَّ اللَّهَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِنَّ اللَّهَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلْ إِذْ أَرَكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌّ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلٌّ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَئِذَا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١)﴾ (النمل ٥٩ - ٧١). أو ليس في إنبات الحدائق ذات البهجة، وتسيير الأنهار خلال الأرض، وإجابة المضطر إذا دعا، وكشف السوء، وجعلهم خلفاء الأرض، ما يبعث الابتهاج في النفس، والحب لله، ويدفع إلى عبادته وتوحيده مادام هو الملجأ في الشدائد، والهادي في ظلمات البر والبحر، ومرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته؟ ومرة يسألهم قائلاً:

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ
 إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ
 فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴿(القصص ٧٠ - ٧٣). أوليس فى الليل السرمد والنهار السرمد ما يبعث
 الخوف فى النفس، والحب لمن جعل الليل والنهار خلفه!﴾

وكثيراً ما تعجب القرآن من عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع. والقرآن يبعث
 الخوف من سوء مصير هؤلاء المشركين يوم القيامة، فمرة يصورهم محاولين
 ستر جريمتهم بإنكارهم، حين لا يجدون لها سنداً من الحق والواقع، فيقول:
 ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢)﴾ ثُمَّ لَمْ
 تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) ﴿(يونس ٢٢ - ٢٤).

وحيثما يصورهم، وقد تبرأ شركاؤهم من عبادتهم، فحبطت أعمالهم، وضل
 سعيهم، وذلك حين يقول: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ
 وَشُرَكَائِكُمْ فَرَزْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَقْبَضُونَ (٢٨)﴾ فَكَلَّمَنِي بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا
 وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ
 الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴿(يونس ٢٨ - ٣٠).

وحيثما يصورهم هلكى فى أشد صور الهلاك وأفتكها، إذ يقول: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ
 فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخِطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج ٢١). أما المصير
 المنتظر لمن يشرك بالله فإن يلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً.

ومن أبرز صفات الله فى القرآن قدرته، يوجّه النظر إلى مظاهرها، ويأخذ
 بيدهم ليدركوا آثار هذه القدرة، ماثلة فى أرجاء الكون وفى أنفسهم، فهذه
 الأرض هو الذى بسطها فراشاً، وتلك السماء رفعها بناء، وهذه الجبال بثها فى
 الأرض أوتاداً، وهذه الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ووجه النظر إلى
 هذه الحبوب فلحقها بقدرته، كما فلق النوى ليخرج منه النخل باسقات، ويوجه
 أنظارهم إلى ألوان المخلوقات وأنواعها ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي
 عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور ٤٥). ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠)﴾ وَمِنْ
 آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْضِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) ﴿(الروم ٢٠ - ٢٥). ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَاللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (لقمان ١٠). وَيُوجِبُهُ النَّظَرَ إِلَى تَوَالِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَسْخِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، فَيَقُولُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ فِي جُزْيٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠)﴾ ﴿(لقمان ٢٩، ٣٠): وَكَرَّرَ ذَلِكَ مَرَارًا عَدَّةً، كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَیْعٍ (٧) تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّثِيبٍ (٨) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبَاتٍ وَحَبَّ الْحَبِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ ﴿(ق ٦ - ١١). وَيُوجِبُهُ أَنْظَارُهُمْ إِلَى قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِهِمْ، إِذْ يَقُولُ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (ال عمران ٦). وَيَقُولُ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِمٌ تُصِرُّونَ﴾ (الزمر ٦).

صَوَّرَ الْقُرْآنُ قُدْرَةَ اللَّهِ الْبَاهِرَةَ الَّتِي لَا يَعْجِزُهَا شَيْءٌ، وَالَّتِي يَسْتَجِيبُ لِأَمْرِهَا كُلَّ شَيْءٍ، بِهَذَا التَّصْوِيرِ الْبَارِعِ إِذْ قَالَ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس ٨٢).

ولما وَجَّهَ النَّظَرَ إِلَى مَظَاهِرِ قُدْرَتِهِ، اتَّخَذَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً إِلَى إِقْنَاعِهِمْ بِأَمْرِ الْبَعْثِ، فَحِينًا يَتَسَاءَلُ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَمْ يَجِدْ مَشَقَّةً فِي خَلْقِهَا يَعْجِزُ عَنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، فَيَقُولُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُمُ جِبَالٌ مِنْ قَبْلِهَا لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لِيُخْبِتِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأحقاف ٢٣). وَيَقْرُرُ أَنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر ٥٧). وَلِذَا صَحَّ هَذَا التَّسَاوُلُ لِيَقْرُوا: ﴿أَلَنْتُمْ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾ (النازعات ٢٧ - ٣٣).

وسوف نكمل الحديث عن ذلك في فصل اليوم الآخر.

ومن أظهر صفات الله في القرآن علمه، وإحاطة علمه بكل شيء في الأرض وفي السماء ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس ٦١). ويقول على لسان لقمان لابنه: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان ١٦). رأيت هذا التصوير المؤثر لإحاطة علم الله بكل شيء، فلا يغيب عنه موضع ذرة بين طيات صخرة، أو في طبقات السموات، أو في أعماق الأرض، ويعلم الله الغيب، ومن ذلك ما يروونه بأعينهم في كل يوم من أمور غيبية، يدركون أنها مستورة عليهم، مع قرب بعضها منهم، إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان ٣٤). ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (طه ٧). واقرأ هذا التصوير الشامل لعلمه في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام ٥٩). وهكذا يصور القرآن شمول علم الله تصويراً ملموساً محسناً. ومن أظهر صفاته كذلك شدة قربيه إلى الناس، ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة ٧). وأمر الرسول بأن يخبر الناس بقربه، يسمعهم ويصغى إليهم إذا دعوا، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة ١٨٦). ولا يستطيع فرد أن يعيش بعيداً عن عينه، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد ٤). بل هو أقرب شيء إلى الإنسان، يعلم خلجات نفسه، ويدرك أسرارها وخواطرها لا يغيب عنه منها شيء، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق ١٦).

والعدل، وقد أطال القرآن في تأكيد هذه الصفة، وأكثر من تكريرها، فكل إنسان مجزى بعمله ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (غافر ٣١). ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْقَبِيلِ﴾ (فصلت ١٤٦). ويقرر في صراحة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس ٤٤). و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء ٤٠).

وإن في تقرير هذه الصفات وتأكيدها لدفعاً للمرء إلى التفكير قبل العمل، كي لا يغضب الله العالم بكل صغيرة وكبيرة تصدر منه، والقريب إليه قريباً لا قرب

أشد منه، وفي تأكيد صفتي العلم والقرب ما يبعث الخجل في الإنسان من أن يعمل ما يغضب الله وما حرمه، وفي تأكيد صفة العدل ما يبعث على محاسبة النفس لأن الخير سيعود إليها ثوابه، والشر سيرجع عليها عقابه.

وكان وصف القرآن لله بالرحمة والرأفة والحلم والغفران والشكر، أكثر من وصفه بالانتقام وشدة العذاب، بل هو عندما يوصف بهما، تذكر إلى جانبهما أحياناً صفات الرحمة؛ فكثيراً ما يكرر القرآن معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة ١٤٢). وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء ١١٠). وأكد هذا الوصف حتى قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام ٥٤). ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (المؤمنون ١١٨). ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف ١٥٥). ويفتح باب رحمته وغفرانه، حتى لمن أسرف ولج في العصيان، إذ يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر ٥٣). وبذلك كانت الصورة التي رسمها القرآن مليئة بالأمل والرجاء، تحيي في النفس التفاؤل، كما أن كثرة وصفه بالرحمة وأخواتها، تجعل عبادة الله منبعثة عن الحب، أكثر منها منبعثة عن الرهبة والخوف، ولكن لما كان كثير من النفوس يخضع بالرهبة دون الرغبة وصف القرآن الله بالعزة والانتقام وشدة العذاب، يقرن ذلك بوصفه بالرحمة حيناً، ولا يقرنها بها حيناً آخر، فيقول مرة: ﴿اغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة ٩٨). ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ (غافر ٣). ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (نصلى ٤٣). ويقول أخرى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر ٧). ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (المائدة ٩٥). ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (آل عمران ٤). ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ (الزمر ٣٧). ويرغم وصفه بالعزة والانتقام والجبروت كانت الصفة الغالبة في القرآن هي الإنعام والرحمة والتفضل وأنه الملجأ والوزر، يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، وينجى في ظلمات البر والبحر، فهي صورة محببة إلى النفوس، تدفع إلى العبادة، عبادة من هو جدير بها، لكثرة فضله وخيره وإنعامه.

وأفحم القرآن من ادعى الألوهية من البشر إفحاماً لا مخلص له منه، وذلك في

الحديث الذى دار بين إبراهيم وهذا الملك الذى ادعى أنه إله، إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ٢٥٨).

وأرشد القرآن إلى أن العقل السليم والفطرة المستقيمة يرشدان إلى وجود الله ويدلان على وحدانيته، فهذا إبراهيم قد وجد قومه يتخذون أصناماً آلهة، فلم ترقه عبادتهم، فمضى إلى الكون يلتمس إلهه، فلما رأى نوراً يشع ليلاً من كوكب فى الأفق ظنه إلهاً، ولكنه لم يلبث أن رآه قد أفل، فأنكر على نفسه اتخاذ كوكب يأفل إلهاً، إذ الإله يجب أن يكون ذا عين لا تغفل ولا تنام، وهكذا أعجب بالقمر، واستعظم الشمس، ولكنهما قد مضيا أفلين، فأدرك إبراهيم أن ليس فى كل هؤلاء من يستحق عبادة ولا تقديساً، وأن الله الحق هو الذى فطر السموات والأرض، واستمع إلى القرآن يصور تأمل إبراهيم فى قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَ إِذْ أُرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُحِبُّ الْأَفْلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلذَّبِّ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام ٧٤ - ٧٩).

كان الإيمان بالله ووجدانيته، أساس الدين الإسلامى، وقد رأينا كيف عنى القرآن بإبراز صفاته التى تتصل بالإنسان خالقاً له، ومنعماً عليه، وعالمماً بكل صغيرة وكبيرة تصدق منه، وقريباً منه أقرب إليه من حبل الوريد، ورحيماً به، عادلاً لا يظلمه، ولا يغبنه، يهبه الرزق، ويمنحه الخير، ويجيبه إذا دعاه. أو ليس من له هذه الصفات الكاملة جديراً من الناس بالعبادة والتقديس والتنزيه عن النقص والإشراك؟

محمد

رسم القرآن لمحمد صورة محببة إلى النفوس، فيها لين ورقة، وفيها الخلق المثالى، والقلب الرؤوف الرحيم، والنفس الوادعة المطمئنة، نزل عليه روح من أمر الله، يهدى إلى الصراط المستقيم، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور، يقول الله تعالى يخاطبه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ (١) مَا أَنْتَ بِمُخَوَّنٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا

غَيْرِ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴿الْقلم ١-٤﴾. ويقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة ١٢٨). ويقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران ١٥٩). ويقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنَ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (الشورى ٥٢، ٥٣). ويقول: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (الطلاق ١٠، ١١). ويدعوه سراجًا منيرًا، فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسِرَاجًا مُبِيرًا (٤٦)﴾ (الأحزاب ٤٥، ٤٦). ورحمة فى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧). ويأمره باستشارتهم وخفض الجناح لهم إذ يقول: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران ١٥٩). ويقول: ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩)﴾ (الحجر ٨٨-٨٩).

ولكن هذه الصفات فى سموها المثالى لم ترفع محمداً عن البشرية، وهذه صفة من الصفات التى أكدها القرآن وأطال فى الحديث عنها، فهو حينما يثبت هذه الصفة على لسانه، وحينما ينفى عن نفسه القدرة على ما لا يقدر عليه البشر، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (الكهف ١١٠). وهو لهذا لا يملك لنفسه أمراً، ولا يدرى من الغيب شيئاً، ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ١٨٨). ولنصت إليه يتبرأ من قدرته على فعل ما ليس فى طاقته، عند ما سأله ما ليس فى طوقه، ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تُفَجِّرُهَا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِلِهِ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)﴾ (الإسراء ٩٠-٩٣)، ومما يلحظ أنهم طالبوه بأمر يستحيل وجودها فى الصحراء، من تفجير الأرض ينبوع وأنهاراً، وانظر إليه كيف يعجب من أمرهم، وكيف يقرر فى صراحة أنه ليس سوى بشر رسول. ولأنه بشر، يجوز أن يموت كما يموت سائر البشر، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم وَمَن يَنقلب على عقبه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشَّاكرين﴾ (آل عمران ١٤٤). ولم يتميز محمد من البشر إلا بأنه كالرسل بشير ونذير، ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ

إِنْ أَتَيْتَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ (الأحقاف ٩). ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (البقرة ١١٩). وهو ليس إلا مذكراً، لا سيطرة له على القلوب، ولا مقدرة عنده على تحويل الأفتدة، ﴿فَدَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ (الغاشية ٢١، ٢٢).

ومما أكده القرآن من صفات محمد الأمية، يصفه بها في قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا نُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الَّذِي يَأْمُرُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف ١٥٨). ويبين حكمة اختياره أمياً في قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُءُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت ٤٨). وإذا كانت الأمية مما يعاب فهي المعجزة التي تحول بين رسالة النبي والشك فيها، ولو أنه كان يقرأ ويكتب، لكان للمبطلين مجال للريب في صدق رسالته.

والقرآن يعظم أمر الرسول، فيحدثنا عن صلاة الله عليه والملائكة، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب ٥٦). ويعظم من أمر مبايعته، حتى لكان من يبايعه إنما يبايع الله، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (الفتح ١٠). ويشهد له القرآن بالخلق القويم كما سبق أن نقلنا، وبأنه لا ينطق عن هوى النفس، ولا يميل إلى ضلالة ولا غواية، ويقسم على ذلك: ﴿وَالْتَجَمَّ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ (النجم ١-٤)، كما يقسم على رسالته فيقول: ﴿وَ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْغَزِيرِ الرَّجِيمِ (٥)﴾ (س ٢-٥). ويعدد القرآن نعم الله عليه فيقول: ﴿الْمُ نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾ (الشرح ١-٤). ﴿الْمُ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨)﴾ (الضحى ٦-٨). ويقسم له القرآن أن الله ما تخلى عنه وما قلاه، ويؤكد أن الذين يناصبونه العداة سيكبتون ويخذلون مذلولين، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ (المجادلة ٢٠). ويحذر المؤمنين من معصيته، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَّخِذُوا بِالْإِثْمِ وَالْغُدُوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ (المجادلة ٩). ويأمرهم بأن يقفوا عند الحدود التي رسمها الرسول، ولا يبطلوا أعمالهم بعصيانه، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد ٣٣). ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر ٧). ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب ٣٦). ويؤكد لهم أنهم لن يكونوا

مؤمنين حقًا حتى يجدوا العدالة المطلقة فى أحكامه، ولا يجدوا فيها غضاضة ولا حرجًا فى نفوسهم، ويقسم على ذلك قائلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء ٦٥). ذلك أنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

وإذا كان محمد رسولاً، فله حرمة ومنزلته الاجتماعية، ومن الواجب احترامه، فلا يليق أن ينادى باسمه، كما ينادى الناس بعضهم بعضاً، ولا أن ترتفع أصواتهم فوق صوته، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)﴾. إن الذين يعفون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم (٣) إن الذين يتأذونك من وراء الحضرات أكثرهم لا يعقلون (٤) ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم (٥) (الحجرات ٢ - ٥). و﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ (النور ٦٣). وفى تربية الشعب على احترام الرسول ما يدفعهم إلى طاعته، فإن الطاعة أساسها الاحترام كما وضع القرآن أساسها الثانى وهو الحب، بما وصف القرآن به محمدًا من حبّ لهداية قومه، وحبّ عليهم، ورحمة بهم ورأفة، وشوق ملح إلى هدايتهم، حتى صح للقرآن أن يقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف ٦). وهكذا بنى القرآن الطاعة على أساسين من الحب والاحترام معاً.

ويؤيد القرآن رسالة محمد بشهادة الله الذى لا يشهد بغير الحق، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ (المنافقون ١). ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (الرعد ٤٣). ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء ١٦٦). وبأن عيسى قد بشر به قومه، وأخبرهم برسالته، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّورِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الصف ٦). وبأنه فيما أتى ليس بدعاً، فقد أوحى الله إلى كثير من الرسل قبله، ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنُّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ (النساء ١٦٣). وبأنه أمى ما كان يتلو قبله كتاباً، ولا يخطه بيمينه. كما سبق أن ذكرنا، وأوليس من يشهد الله له بالرسالة، ويبشر به رسول ذو كتاب، ويجرى على سنن من سبقه من الأنبياء - جديراً بأن يصدق إذا ادعى، وأن يطاع إذا أمر؟

ويناقش من أنكر رسالته، ويدفع دعاويهم في هدوء وقوة معاً، فأخبرنا القرآن مرة أنهم كانوا ينسبون ما يعرفه محمد من قصص وأخبار وأحكام إلى عالم فارسي يعلمه، وما كان أسهل دحض تلك الدعوى بأن لسان من يدعون أنه يعلم محمداً - أعجمي، أما هذا الكتاب فعرى مبين، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل ١٠٣). وحينما نسبوه إلى أنه سحر أو شعر أو كهانة، ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ (الأنبياء ٥)، ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَرَاكَ لَشَاعِرٍ لِّهَيَاتَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (الصافات ٣٦). فوجه القرآن أنظارهم إلى أن النظرة الصائبة تنفى عن القرآن السحر والشعر والكهانة، فللحق آياته البيّنات التي لا تشبهه بالسحر، ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أِفْكٌ مُّفْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (سبا ٤٣). ونفى القرآن عن النبي قول الشعر والكهانة، ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ (يس ٦٩). ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) ولا يقول كاهن قليلًا ما تدّكّرون﴾ (٤٢)﴾ (الحاقة ٤١، ٤٢).

ومن أكبر ما أنكروه على الرسول أنهم وجدوه لا يمتاز على البشر في شيء فهو يأكل الطعام كما يأكلون، ويمشي في الأسواق يبيع ويشترى كما يمشون، وظنوا أنه لا يكون نبياً إلا إذا امتاز بملك ينذر الناس معه، أو أصبح غنياً غنى مطلقاً عن الناس، فألقى إليه كنز، أو كانت له جنة يأكل منها، وقد حكى القرآن عنهم ذلك الحديث، ورد عليهم رداً رقيقاً في قوله: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (٧) أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تشبهون رجالاً مسحوراً (٨) انظر كيف ضرّبوا لك الأمثال فصّلوا فلا يستطيعون سبيلاً (٩) تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنّات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً (١٠)﴾ (الفرقان ٧ - ١٠). فهو يشير في رفق إلى أن الحكمة إنما هي في أن يساوى الرسول الشعب في الاحتياج، حتى لا يكون امتيازه على الناس في أمور لا تتصل بالرسالة، ولا دخل لها في النبوة، وحتى يبقى تقويم الرسول بعيداً عن زخارف الحياة وما ليس من صميم الرسالة، فقد يتهياً الغنى الفاحش لفرد من الناس، من غير أن يجلب له ذلك رسالة ولا نبوة ولو أراد الله لفعل للرسول ما اقترحوه وزاد عليه، ولكن الخير والحكمة فيما كان، أما ما اقترحوه من نزول الملك مع الرسول فقد رد عليه في قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَاً لَّفُصِّيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾ (٨) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (٩)﴾ (الأنعام ٨، ٩).

ألا ترى أن نزول الملك كما اقترحوا لا يدع لهم فرصة التفكير بعد نزوله، ومن الخير أن يترك لهم مجال التدبُّر وتقليب الأمر على وجوهه، وإنزال الملك لن يحل المشكل، لأنه سيكون في هيئة رجل، ويلتبس الأمر كما لو كان الرسول رجلاً والقرآن برغم ذلك، يوحي بأن الرسول كانت عنده رغبة ملحّة في أن يحقق لهم بعض ما اقترحوه ليؤمنوا، ولتجتمع كلمتهم على الدين، حتى صحّ للقرآن أن يقول للرسول: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام ٣٥). ويقول في أخرى: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَصَاحِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ كِتَابًا مَعَهُ مَلَائِكَةٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود ١٢).

وكانت صفة البشرية حائلة دون الايمان به، ومدعاة للهزء بالرسول والسخرية به، ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثْلًا وَاحِدًا نَبِيُّهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (القمر ٢٤). ﴿وَلَمَّا أُطْعِمْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِذْ أَخَاسِرُونَ﴾ (المؤمنون ٣٤). وقد رد الله تلك الدعوى بأن الحكمة تقضى بأن الرسول يكون من جنس المرسل إليهم، ليكون أدنى إلى نفوسهم، يألّفونه ويسهل اتصالهم به، ولو أن في الأرض ملائكة يسكنونها، ما أرسل الله إليهم رسولا، سوى ملك من جنسهم، قال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤)، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْنُونُ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَاتًا رَسُولًا﴾ (الإسراء ٩٤ - ٩٥).

وعندما تعرّض القرآن للاستهزاء بالرسول، كان لا يعنيه كثيرا الردُّ على ما يتعلق بشخص الرسول، بل ينتقل مباشرة إلى صميم الدعوى يناقشهم فيها، ويحدثهم عن مغبة كفرهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَهْذًا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٦) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٣٧) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ (٣٩) ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَعْطِفُونَ رُدَّهَا وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٤٠) ﴿(الأنبياء ٣٦-٤٠). ألا تراه قد مرَّ مرَّ الكرام باستهزائهم بالرسول، وكأنه لغو لا يؤبه له، ولا يستحق الالتفات إليه، ولا التنبيه لشأنه، وانتقل من ذلك إلى الحديث عما يعنى القرآن بشأنه، من الحديث عن الله واليوم الآخر، وما ينتظرهم من عذاب كان جديرا به أن يصرفهم عن التماذى فى الباطل، لو أنهم فكروا فى الأمر وتدبّروا العاقبة، ويقول فى موضع آخر: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَهْذًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٤١)، ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا

عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢)، أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا (٤٣)، أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) ﴿الفرقان ٤١ - ٤٤﴾. وهو هنا أيضًا ينتقل إلى صميم الدعوى، فيتحدث عن اتخاذهم الهوى إلها، وأنهم لا يستخدمون آذانهم وعقولهم فيما خلقت لأجله، فصاروا بذلك أضل سبيلا من الأنعام.

ويهون القرآن على الرسول أمر الاستهزاء به وتكذيبه، فحينًا يخبره بأن ذلك دأب الرُّسل، يكذبون برغم ما يجيئون به من البينات والهدى، ويؤكد له مرة بأن هؤلاء الساحرين سينالهم ما نبئوا بنزوله بهم، وكانوا يسخرون ولا يطيعون، فيقول للرسول: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (ال عمران ١٨٤). ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الأنعام ١٠).

ويذمر القرآن المكذبين والمستهزئين بأن عاقبتهم كعاقبة من كذب الرسل من قبل: أخذ شديد وعقاب أليم، وهنا يلجأ القرآن إلى غريزة المحافظة على النفس، فيصور رفض الدعوة والتكذيب لها معرضًا أنفسهم للتهلكة، وجالبًا الويال عليها، فماذا تكون النتيجة إذا هم أصروا على كفرهم؟ أضمنوا أعمارًا طويلة، يصلحون فيها ما كانوا قد أفسدوه؟ ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ١٨٥). أأمنا مكر الله؟ أم اطمأنوا إلى أن القيامة لن تأتيهم فجأة؟ ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف ١٠٧). إنهم بنهيم عنه، ونأيهم عنه لا يضرهم إلا أنفسهم ولا يهلكون غيرها، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأنعام ٢٦). ولن يضر الرسول بكفرهم، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل ٨٢). ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشورى ٤٨). أوليس فى قصر أمر الرسول على البلاغ، ما يدفعهم إلى التفكير فى أمر هذه الدعوة التى لن يحمل عبء أضرار رفضها غيرهم، والتى يتحمل الرسول المشاق فى سبيل إذاعتها، لا يبعثى من وراء ذلك أجرًا، ولا يريد إلا أن تصل الهداية إلى قلوبهم، ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سبا ٤٧). وإن فى تنزه الرسول عن الغرض المادى، وإخلاصه فى دعوتهم وإرشادهم، لبعثًا لهم على تدبير أمر هذه الدعوة المبرأة من الهوى والغرض، والنفس بطبيعتها تنقاد لمثل هذه الدعوة وتؤمن بها. وقد دعاهم القرآن إلى التفكير فى شأن الرسول،

فرادى وجماعات، ليقبلوا أمره على وجوهه، ويتفكروا أبه جنة أو شذوذ؟ وسوف يصلون إذا فكروا إلى أنه نذير لهم بين يدي عذاب شديد.

ويمضى القرآن محبباً لهم إجابة دعوة محمد، مبيناً طبيعتها، وأنها توافق الإنسانية السليمة، فهو لا يأمر إلا بما تعترف به النفوس الصحيحة ولا ينهى إلا عما تنكره، ولا يحل سوى الطيب، ولا يحرم سوى الخبيث، وأنه يعمل على تخليصهم من عادات ثقيلة على النفوس، وقيود كانت تغل حياتهم، وقد خفف الإسلام كثيراً من القيود التي كانت على أهل الكتاب، يقول الله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف ١٥٧). أما الأميون، وقد كانوا فى ضلال مبين فإنه يعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة ٢). ويجعل طريق حب الله ونيل رضوانه اتباع منهجه والاقتراء به، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (ال عمران ٣١). ومن أطاعه فسيكون مع من أنعم الله عليهم من أكرم الرفقاء، ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء ٦٩). ومن آمن وعمل صالحاً فسوف يورثه الله الأرض، ويمكن له دينه، ويبدله بالخوف أمناً وطمأنينة، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (النور ٥٥).

ولا يكتفى القرآن بالوعد المحبوب حين طلب إليهم طاعة الرسول، بل أنذرهم وأوعدهم، وأكد لهم أن النهاية ستكون نصراً مؤزراً للرسول ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُخَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ (التوبة ٦٣). ويقول: ﴿فَلْيَخْذِرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور ٦٣). ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (الأحزاب ٥٧). ويخاطب الرسول قائلاً: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبِرْوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام ٣٤). وينزل القرآن إلى أعماق نفوسهم، فيحدثنا عن شكوكهم التي تنتابهم، فهم يقولون فى أغوار قلوبهم: إذا كان محمد

على صواب، ونحن على خطأ، فلم يدعنا الله أحراراً في هذه الحياة ولا يعذبنا بسبب هذه التصرفات، والله ينبئهم بأن جهنم مصيرهم المنتظر، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعْوَدُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْآثِمِ وَالْعِدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْوَةٌ بِمَا لَمْ يَحْكِكْ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (المجادلة ٨).

ويعلم القرآن ما لحوادث التاريخ من الأثر في النفوس، ولذا أكثر، في معرض الأمر بطاعة الرسول، من توجيه أنظارهم إلى من كذب من الماضين كيف كانت عاقبتهم، فلعلهم يتعظون بها، فيسأل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)﴾ (غافر ٢١، ٢٢). ويقصص عليهم قصص الماضين كقوله: ﴿فَإِن أَعْرَضُوا قُلْنَا أُنذَرْتُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَتُمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَتَّبِعُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَن أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَحْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)﴾ (فصلت ١٣-١٨).

ولم يأل القرآن جهداً في تصوير من لا يستجيب إلى دعوة محمد في صورة ينفر منها العاقل، ويأنف من أن تكون صورته، فحيناً يرسمهم أمواتاً لا يعون، صما لا يسمعون، عمياً لا يبصرون، فيقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣)﴾ (فاطر ٢٢، ٢٣). ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ (٤٣)﴾ (يونس ٤٢، ٤٣).

وأكثر القرآن من أمر الرسول بالصبر، وهو خليقة أولى العزم من الرسل فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (الأحقاف ٣٥). وقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور ٤٨). وقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ (النحل ١٢٧). وقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (المزمل ١٠). إلى غير ذلك

من كثير الآيات التي تدعو الرسول إلى الصبر، وتحثه عليه، ولا ريب أن دعوة دينية جديدة تتطلب زادًا لا ينفد من الصبر على المكروه حتى تنجح وتؤتى ثمارها.

أما المنهج الذي رسمه القرآن، لكي ينهجه محمد في دعوته، فقد بينه في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل ١٢٥). وتلك هي خطة الإقناع التي تتألف القلوب وتستهوئ الأفئدة.

ولكى أكمل الصورة التي رسمها القرآن لمحمد صلوات الله عليه، أضعه بين صحبه الذين أخلصوا له، فهم رحماء فيما بينهم، أشداء على أعدائهم، قد أخذ أمره بهم يشتد، كما يشتد الزرع إذا أخرج براعمه، فيصبح مرآه باعنا الزراع على الإعجاب به، فهم بين يدي الله يبتغون رضوانه، وأمام أعدائهم قوة لا يستهان بها، ترى تلك الصورة في قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَعٍ أُخْرِجَ شَطَآءُ قَازِرَةٍ فَاسْتَلْظَمَ عَلَى سَوْقِهِ يَغِيبُ الزُّرْعَ لِيَغِيبَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح ٢٩).

القرآن

هو العلم الخاص بهذا الكتاب الذي نزل على محمد، لم يشركه غيره من كتب الله في هذا الاسم، وقد اختار الكتاب العزيز له من الصفات ما يوضح رسالته، والهدف الذي نزل من أجله، فهو ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة ٩٧). ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة ١٨٥). ﴿هَذَا بَيِّنَاتٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران ١٣٨). ﴿هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ (فصلت ٤٤). ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأحقاف ٣٠). ﴿أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ (٢) ﴿(الكهف ٢٠١). فرسالة القرآن الأساسية هداية الناس إلى الحق وطريق الصواب، وتبشير المهتدي وإنذار الضال، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩) ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْتَابْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٠) ﴿(الإسراء ٩، ١٠).

وإذا كان الكتاب قد أنزل للهداية صحَّ وصفه بأنه شفاء، أليس هو بلسماً يبرئ أدواء القلوب، ودواء لعلل النفوس، ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء ٨٢). وصح وصفه بأنه كالمصباح، يخرج الناس من الظلمات إلى النور،

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم ١). وبأنه لم يدع سبيلاً للإرشاد إلا بيته، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل ٨٩). ولما كان كتاب هداية كان واضحاً في دلالته، بيّناً في إرشاده، ﴿هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (العنكبوت ٤٩). وكان خير ذكرى، يلجأ إليه المسترشد فيرشد، والضال فيجد عنده التوفيق والهداية، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام ٩٠). ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (الزخرف ٤٤). ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ (الإسراء ٤١). وهو ذكر مبارك، ناضج الثمر، جليل الأثر، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَازِلًا﴾ (الأنعام ٩٢). وهو حق لا مرية فيه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت ٤٢). وهو قول فصل ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (الطارق ١٤). وكتاب حكيم، وذكر مبين، قد أحكمت آياته، ثم فصلت.

ليس كتاب هذا شأنه وتلك صفاته جديراً بالاتباع، خليقاً بالاسترشاد والافتداء، أو ليس في تلك الصفات ما يحرك النفس إلى الاستماع إليه، وتدبر آياته، والإنصات إلى عظاته، ولا سيما أنه كثيراً ما يقترن بذكر الحكمة، وفي الحكمة ما يغري بحبها واتباعها، إذ يقول: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ١٥١).

وردد القرآن كثيراً أنه نزل من الله بالحق، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ (الإسراء ١٠٥). ويؤكد ذلك في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (الإنسان ٢٣). وينفى أن يكون وحى شيطان، أو أن يستطيع الشياطين الإيحاء بمثله، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء ١٩٢ - ١٩٤). ﴿وَمَا نَنْزَلُ بِهِ الشَّيَاطِينَ﴾ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (الشعراء ٢١٠، ٢١١). ويؤكد في صراحة أن الإنس والجن مجتمعين لا يستطيعون الإتيان بمثل القرآن، ولو ظاهر بعضهم بعضاً، وإذا كان المجيء به مما ليس في طوق مخلوق فمن غير المعقول أن يفترى من دون الله، ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس ٣٧). ولما ادعى المعارضون أن محمداً تقوله أو افتراه تحداهم القرآن أن يأتوا ﴿بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور ٣٤). ثم تحداهم أن اثتوا ﴿بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود ١٣). ثم نزل إلى سورة مثله، ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعِيرٌ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص ٥٠).

ويتحدث القرآن في صراحة عما كان يمكن أن ينتظر محمداً من الجزاء الصارم لو أنه افترى أو تقوّل، فقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة ٤٤ - ٤٧). رأيت كيف يصوّر القرآن، كيف يلتزم محمد ما أوحى إليه، من غير أن يستطيع تعدى الحدود التي رسمت له، في جلاء ووضوح، لأنه ليس سوى رسول عليه بلاغ ما عهد إليه أن يبلغه في أمانة وصدق.

كما ردد كثيراً أنه بلسان عربيّ مبين، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف ٢). وفي ترديد هذه الفكرة ودفع العجمة عن القرآن، ما يدفع العرب إلى التفكير في أمره وأن كونه بلسانهم ثم عجزهم عن المجيء بمثله، مع تحديهم صباح مساء، دليل على أنه ليس من عند محمد، ولا قدرة لمحمد على الإتيان بقرآن مثله، وهو بهذا الوصف يقرر عجزهم الدائم، وأنه لا وجه لهم في الانحراف عن جادة الطريق، وما يدعو إليه العقل السليم، والتفكير المستقيم.

وقرر أنه كتاب متشابه مثنان، ومعنى تشابهه أن بعضه يشبه بعضاً في قوة نسجه، وعمق تأثيره، وإحكام بلاغته، فكل جزء مؤثر بألفاظه وأفكاره وأخيلته وتصويره، ومعنى أنه مثنان أن ما فيه من معان يثنى في مواضع مختلفة، ومناسبات عديدة، فيكون لهذا التكرير أثره في الهداية والإرشاد، وهو بهذا التكرير يوّدی رسالته التي جاء من أجلها، ولذا كان بتشابهه وتكرير ما جاء به من عظات، مؤثراً أكبر الأثر في القلوب، حتى لتقشعر منه جلود أولئك الذين يتدبرونه، وتنفعل له قلوبهم، ثم لا يلبثون أن تطمئن أفئدتهم إلى هداه، وتهدأ نفوسهم إلى ذكر الله، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر ٢٣). ويعرف القرآن ما له من تأثير قوى بالغ حتى لتتأثر به صم الحجارة إذا أدركت معناه، ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر ٢١).

ومع طول القرآن وتعدد مناحيه لا عوج فيه، ولا اضطراب في أفكاره ولا أخيلته، أو لا ترى أن أمياً لا يستطيع تأليف كتاب على هذا القدر من الطول من غير أن يقع فيه الخلل والاختلاف والاضطراب، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء ٨٢).

ومما أكدّه القرآن أنه مصدق لما نزل قبله من التوراة والإنجيل، وإلى جانب

ذلك، سجل القرآن ما قابله به أهل الكتاب والمشركون، من كفر به وإنكار له، أما بعض أهل الكتاب فقد مضوا يكابرون، منكرين أن يكون الله قد أنزل كتاباً على إنسان، وما كان أسهل دحض هذه الفرية بما بين أيديهم من كتاب موسى، يبدون بعضه ويخفون الكثير منه، قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام ٩١). ولم يزد الكثير من أهل الكتاب نزول القرآن إلا تمادياً في الكفر وشدة في الطغيان، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ مِنَ رَبِّكُمْ وَلَكِيرِدُنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة ٦٨). وقالوا إن محمداً يتعلم القرآن من إنسان عليم بأخبار الماضين، وكان من السهل أيضاً إبطال تلك الدعوى، فإن هذا الذي زعموه يعلمه ذو لسان أعجمي، ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أُعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل ١٠٣). ثم زعموا أنه إفك اختلقه، وأعانه على إتمامه سواه ممن يعرفون أساطير الأولين ويتقنونها، وهنا يرد القرآن في هدوء بأن هذه الأسرار التي في القرآن، والتي ما كان يعلمها محمد ولا قومه، إنما أنزلها الذي يعلم أسرار السموات والأرض، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (٤) وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا رَحِيمًا (٦)﴾ (الفرقان ٤-٦). ونزلوا في المكابرة إلى أعماق درك، فزعموا مرة أن ليس ما في القرآن من أخبار سوى أضغاث أحلام، وحيناً زعموا أنه قول شاعر، وأن القرآن لا يصلح أن يكون آية قاطعة كآيات الرسل السابقين، ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ (الأنبياء ٥). ولم يتحمل القرآن الرد على دعوى أضغاث الأحلام لتفاهتها، ووضوح بطلانها، ولكنه نفى أن يكون القرآن شعراً بوضوح الفرق بين القرآن والشعر، الذي لا يليق أن يصدر من محمد، وجعلوا القرآن سحراً من محمد، لا صلة لله به، وهنا يبين القرآن مدى مكابرتهم، فيقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الأنعام ٧).

ومضى بعض الناس يذيع الأحاديث الباطلة ليضل عن سبيل الله، ويصم أذنيه عن سماع القرآن مستكبراً مستهزئاً به، والقرآن يغضب لموقف هؤلاء شديد الغضب، وينذرهم كما استهزءوا، بعذاب يهينهم ويؤلمهم، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ

الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوعًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقُرْآنُ فَيْشْرَةٍ بَعْدَ آيَمٍ ﴿٧﴾ (لقمان ٧، ٦).

ومن عجب أن كثيراً من الكافرين كان لا يرضى عما فى القرآن من أفكار التوحيد والعبادة، فكان يطلب من الرسول أن يأتى بقرآن غير هذا القرآن، فكان رد الرسول صريحاً فى أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من تلقاء نفسه، ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَبْتَاطِ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بقرآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أبدلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (يونس ١٥). ومما اعترضوا به على القرآن أنه نزل منجماً، واقترحوا أن ينزل دفعة واحدة، ولكن القرآن رد على هذا الاقتراح، بأن نزوله على تلك الطريقة، فيه تثبيت لفرؤاد الرسول، ليكون دائم الاتصال بربه، وأليس فى نزوله كذلك تثبيت لأفتدة المؤمنين أيضاً إذ ينقلهم القرآن بتعاليمه مرحلة مرحلة إلى الدين الجديد، ويروى القرآن هذا الاعتراض، ويرد عليه فى قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان ٣٢، ٣٣).

ولقد تعبوا فى صدّ تيار القرآن الجارف، ووقف أثره فى النفوس فما استطاعوا ثم هداهم خيالهم الضيق إلى طريقة يحولون بها بين القرآن وسامعيه تلك هى الصّخب عند سماع القرآن واللغو فيه، ولما كان فى ذلك استقبال لا يليق بالقرآن قابله الله بتهديد عنيف، وإيعاد شديد، إذ يقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (٢٦) فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٢٨) (فصلت ٢٦-٢٨). وذلك أقوى دليل على الإخفاق، وأنه لا حجة عندهم يستطيعون أن يهدموا بها حجة القرآن.

وحرّك القرآن فيهم غريزة الخوف إن كذبوا به، فسألهم ماذا تكون النتيجة إذا ثبت حقاً أنه من عند الله، وظلوا كافرين به، أيكون ثمّ من هو أضلّ منهم أو أظلم، يثير تلك الغريزة فى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي سِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت ٥٢). ويقف منهم موقف من بين الخير والشر، ثم تركهم لأنفسهم يفكرون، ألا يثير فيهم ذلك كثيراً من الخوف من أن ينالهم سوء إعراضهم بأوخم العواقب، إذ يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر ٤١).

أما سورة الفرقان فيراد به هنا القرآن، كما أنه في مواضع أخرى يطلق على كتب الله، لأنها تفرق بين الحق والباطل، والصواب والخطأ.

ولعل^(١) بدء هذه السورة بقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان ١). فيه دلالة على أنها تحوى إنذاراً ووعيداً وتهديداً، وحقاً لقد اتسمت هذه السورة بالرد المنذر على كثير من دعاوى المنكرين لأحقية القرآن ورسالة محمد ووحداية الله، وقد بدأها بالحديث عن منزل القرآن، وتفرد به بالملك وتعجبه من أن ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (الفرقان ٣). وبدأ بعد ذلك يعدد مفترياتهم على القرآن وتشكيكهم فى رسالة محمد، ثم يتعمق فى السبب الذى دفعهم إلى إنكار القرآن ونبوة محمد، فيراه التكذيب باليوم الآخر، وكأنما غضبت جهنم لهذا التكذيب، حتى إنها ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا﴾ (الفرقان ١٢). ويمضى فى تصوير ما ينتظرهم فى ذلك اليوم من مصير مؤلم موازناً بين ذلك، وبين جنة الخلد التى وعد المتقون، ثم يعود إلى أكاذيبهم، فيرد على بعضها، ويبسط بعضها الآخر، واضعاً إلى جانب هذه الأكاذيب ما ينتظرها من عقوبة يوم الدين، وهنا يلجأ إلى التصوير المؤثر، يرسم به موقفهم فى ذلك اليوم، علّه يردهم بذلك إلى الصواب، إذا ذكروا سوء المغيبة؛ وتأمل قوة تصوير من ظلم نفسه بهجر القرآن وتكذيبه، فى قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)﴾ (الفرقان ٢٧ - ٣٠). ويعود مرة إلى شبهة من شبهاتهم فى القرآن فيدحضها وينذرهم بشر مكان فى جهنم، ويعدد لهم عواقب من كذب الرسل من قبلهم. ثم يأتى إلى إثم آخر من آثامهم باستهزائهم بالرسول الذى كاد يصرفهم عن آلهتهم، لولا أن صبروا عليها، وهنا يناقشهم فى اتخاذ هذه الآلهة التى لا يصلح اتخاذها إلهاً إذا وزنت بالله الذى يعدد من صفاته ما يبين بوضوح وجلاء أنهم ﴿يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَّا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ (الفرقان ٥٥). ويطيل القرآن فى تعداد صفات الله وبيان مظاهر قدرته. وإذا كانت السورة قد مضت تنذر المنكرين وتعدّد آثامهم، فإنها قد أخذت تذكر كذلك صفات المؤمنين الصادقين، ليكونوا إلى جانبهم مثلاً واضحاً للفرق بين الصالح والطالح، ولتكون الموازنة بينهما

(١) فى تحليل هذه السورة نموذج آخر لوحدة السورة والارتباط بين آياتها.

مدعاة إلى تثبيت النموذجين في النفس، وختمت السورة بالإنداز بأن العذاب نازل بهم لا محالة، ما داموا قد كذبوا، فكانت السورة كلها من المبدأ إلى المنتهى تتجه إلى الوعيد، ما دامت تناقش المنكرين في مفتريات تتعلق بالقرآن ومن نزل عليه القرآن، وقد رأينا كيف كان يقرن كل افتراء بما أعد له من العذاب.

يوم القيامة

له في القرآن أسماء كثيرة تطلق عليه في المواضع المختلفة، لتوحى هذه الأسماء في أماكنها بالمعاني التي يستدعيها المقام، فهو اليوم الآخر والآخرة، عندما يكون في مقابلة الحديث عن الدنيا وموازنته بها، أو عند الحديث عنه ملاحظاً فيه هذا التقابل، كما تجد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ (آل عمران ١٤٨). وقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأعراف ١٦٩).

ويدعى بيوم القيامة مثيراً في النفس هذه الحركة المائجة المضطربة، التي ينبعث فيها الأموات من أجدائهم كالجراد الميثوث؛ وبيوم الدين ملحوظاً فيه أنه اليوم الذي يجزى فيه كل إنسان بعمله خيراً أو شراً، ولما كان المثيب والمعاقب يومئذ هو الله وحده كان جميلاً رائعاً قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفتح ٤). وبيوم الفصل إذ فيه يفصل بين الصواب والباطل فصلاً عملياً لا شبهة فيه. وبيوم البعث لأنه يوم الحياة بعد الموت؛ فإذا دعى بالساعة كان ملاحظاً فيه عنصر المفاجأة الباغته؛ أو بالحاقة فلأن وجودها حق لا مرية فيه؛ أو بالقارعة فلشدة هولها وما فيها من مصائب وأهوال، أو بيوم الآزفة فلأنها شديدة القرب والمفاجأة.

وقد عنى القرآن أيما عناية بأهمية الإيمان باليوم الآخر، يذكره كلما ذكرت صفات المؤمن المثالي، ويقرن الإيمان به بالإيمان بالله، حتى لا يذكر الإيمان باليوم الآخر منفرداً دونه، فيقول: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٦٢). ويقول: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (البقرة ١٧٧). وأوعد القرآن شديد الوعيد من كفر باليوم الآخر، وقرنه كذلك بمن كفر بالله، فقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء ١٣٦). وقال:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة ٢٩). وسرّ العناية باليوم الآخر أن الإيمان به يعدّ الدعامة الأولى في بناء الدين كله، وإذا انهار هذا الأساس انهار الدين، فلم يعد له من بقاء، فعقيدة المرء في الحساب وأنه مجزى بعمله، على الخير والشر، هي التي تدفعه إلى التفكير السليم، كي يصل إلى العقيدة الصحيحة التي يؤمن بها، وإلى العمل الصالح واجتناب مساوئ الأمور، كي يجزى على الخير بالحسنى، ويتقى أليم العذاب، ولو أن عقيدة البعث قد انمحت، ما كان للفضيلة سلطان على نفوس الجماهير يقودها، رهبة ورغبة، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَةً لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَأَهُم بِعَمَلِهِمْ﴾ (النمل ٤). وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ إِحْدًا قَالِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فُلُوقُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل ٢٢). ولما كان لليوم الآخر هذه الأهمية في بناء الدين، عنى القرآن بغرس عقيدته في النفوس، وتصويره منذ أول عهد الدعوة، ولهذا كان أكثر الحديث عنه في السور التي نزلت بمكة.

وقد دلل القرآن في مواطن كثيرة على أن اليوم الآخرات لا ريب فيه، يبرهن على ذلك بقدرته على خلق هذا العالم وما فيه، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا تَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَجَّاجًا (١٤) لِنَخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا (١٦)﴾ (النبا ٦-١٦). بل يؤيد مقدرته على البعث بما هو معروف لدينا، من أن إعادة ما عمل العامل أسهل عليه من بدء العمل، فيقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم ٢٧). ويقول: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)﴾ (يس ٧٨-٨٢). فأنت تراه هنا يعجب من هذا الذي ينكر البعث ناسيًا بدء خلقه، وأنه لم يكن شيئًا مذكورًا، فأخذ يتساءل من يستطيع أن يحيى العظام البالية، فأجابه القرآن في يسر بأن الذي أنشأها أول مرة هو الذي يحييها، وهو عالم بكل صغيرة وكبيرة، في الخلق، ففي مستطاعه أن يعيد ما بدأ خلقه، أو ليس هذا القادر على أن يخلق النار من الشجر الأخضر الملىء بالماء قادرًا على أن يعيد خلقهم؟ أو ليس من خلق السموات والأرض وهي بهذه الفخامة والإحكام قادرًا على أن يخلق مثل هذا الإنسان الحقير الضئيل، ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ

مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿غافر ٥٧﴾. وتنتهى الآيات بتصوير قدرة الله، يستجيب لها الكون فى خضوع وسرعة، فلا يلقى الله أمراً حتى يخضع الكون لأمره، ولا يلبث أن يقول لشيء كن، حتى يتحقق ويكون. وفى سورة أخرى يؤكد قدرته على جمع عظام المرء وتسوية أدق ما فيه من هذه العظام، وهى عظمة البنان، فيتساءل متعجباً، ثم يجيب فى تأكيد: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ (القيامة ٣، ٤).

ويقرب القرآن أمر البعث إلى نفوسهم، فيوجه أنظارهم إلى الأرض الميتة ينزل عليها الماء، فتنبعث فيها الحياة، وتنبث من كل زوج بهيج، فيقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ لَكُمْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت ٣٩). ويقول: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْفَنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (فاطر ٩). وإذا كانوا يرون هذه الظاهرة فى كل حين، فمن المعقول أن يكون لها شديد التأثير فى نفوسهم، لقربها منهم، وقوة دلالتها على قدرة الله على بعث الحياة فى الجماد الميت.

وحفل القرآن بكثير من صور هذا اليوم، يرسم الطبيعة فيه والناس: أما الأرض فإنها تميد تحت الأقدام مزلزلة مرتجفة، تنشق فى كل مكان، مخرجة أثقالها، ويقف الإنسان فى ذهول ودهشة يتعجب: ما لهذه الأرض قد خرجت على طبيعتها الهادئة، فثارت تلك الثورة المريعة؟! وتظل الأرض تلفظ ما بداخلها، تنبئ بأنها تفعل ما تفعل بأمر الله الذى أوحى بذلك لها، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤)﴾ بأن رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ (الزلزلة ١-٥). وأما الجبال فتصبح فى هشاشة الصوف ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (القارعة ٥). ثم لا تلبث أن تنمحي من فوق صفحة الأرض، فتصبح مستوية لا عوج فيها ولا ارتفاع، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَبْقَىٰ فِيهَا جَبَلًا (١٠٧)﴾ (طه ١٠٥-١٠٧). وتتفجر البحار، وتتبعثر القبور مخرجة ما استودعته من أشلاء البشر، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥)﴾ (الانفطار ٣-٥). ويشتد ارتجاج الأرض وارتجاجها، حتى لينكرها الإنسان، ويجف لها قلبه، ويراهها أرضاً غير ما ألف، وتربة مضطربة لا عهد له بها من قبل، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا﴾ (المزمل ١٤). ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (إبراهيم ٤٨).

وأما السماء فإنها تطوى كما يطوى السجل كتاباً، فلا تعود ترى بناء محكما، كما نراها بأعيننا في هذه الحياة الدنيا، بل تصبح بيئة الفجوات ظاهرة الشقوق، ومما يزيد الأمر هولاً هذا الغمام المتكاثف يمور في السماء موراً يبعث الرهبة والفرع ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾ (الأنبياء ١٠٤). و﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (الفرقان ٢٥). و﴿يَوْمَ تُمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (٩) و﴿تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ (١٠) ﴿قَوْلًا يَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (الطور ٩ - ١١). ويلف الكون ظلام دامس، فالكواكب تنتثر لا رابط بينها، ولا اتساق ينظمها، والشمس ينمحي ضوءها، فتصبح كرة مظلمة لا يشع منها نور يضيء أرجاء الكون، وتنكدر النجوم التي كانت تبدو في السماء كأنها مصابيح، فينطمس نورها، ولما فقدت الجاذبية بين الكواكب انتشرت في الجو، ويملا النفس رعباً أن ترى الشمس والقمر قد اقتربا مجتمعين، لا ضوء لهما ولا بهجة، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) و﴿إِذَا الْكُوكَبِ انْتَثَرَتْ﴾ (٢) ﴿الانفطار ١ - ٢﴾. و﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) و﴿إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (٢) ﴿التكوير ١، ٢﴾. ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصُرُ﴾ (٧) و﴿خَسَفَ الْقَمَرُ﴾ (٨) و﴿جُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمِئِذٍ أَيْنَ الْمَفْعَرُ﴾ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمِئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (١٢) ﴿القيامة ٧ - ١٢﴾.

في هذه الظلمة الحالكة يخرج الناس من أجداتهم في سرعة وهلع، أما الأبصار فخاشعة، وأما القلوب فواجفة، يذهلهم ما لم يكونوا قد أفوه من كون قد تبدل وتغير، يخرجون في كثرة بالغة جماعات جماعات ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ (القمر ٧). ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ (المعارج ٤٣). يسيرون على غير هدى، وكأنهم يهربون من الظلمة، أو يفرون مما يرونه أمامهم من مناظر تبعث الرعب، وتثير المخافة. ولا يلبثون أن يدعوا إلى الحساب، حتى يسرعوا إلى الداعي متهافتين، كما يتهافت الفراش المبيوث، ظلماً منهم أن سوف يجدون عنده الأمن والطمأنينة.

ولا تشعر النفوس وقد خرجت من أجداتها، بأنها قضت وقتاً طويلاً تحت أطباق الثرى، بل كأنها قد غادرت الدنيا منذ وقت قصير، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (النازعات ٤٦).

ويزيد النفوس رهبة أن يمدوا أبصارهم فيروا النار تتلظى، وقد اشتد أوار لهبها، ﴿وَوُيُزَّتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ﴾ (النازعات ٣٦). فلا عجب أن بعث هذا اليوم في النفوس هولاً ورهبة، فشعرت به عابساً مكفهرًا، وأن تبلغ القلوب فيه الحناجر اضطراباً وخوفًا، ﴿وَأَنْذَرْنَاهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ﴾ (غافر ١٨). وأن

يملك الهول قلوب المبعوثين هولاً يشيب له الوليد، ﴿فَكَيْفَ تَكْفُرُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
الْوَالِدَانَ شِيبًا﴾ (المزمل ١٧). ولم لا يشيب الوليد، وهذه الأرض ترتجف تحت قدمه،
والكواكب قد انتشرت تنهاوى وتضطرب، مظلمة ككرة، وهذه الشمس والقمر قد
اجتمعا مظلمين اجتماعاً يبعث الرهبة فى النفوس!؟

ولما كان ذلك يوم الجزاء، وقف الملائكة جند الرحمن صفًا، خاضعين لأمر
الله، ينفذون ما يأمر به فى ذلك اليوم، وإن فى وقف الملائكة صفا ما يزيد فى
رهبة هذا اليوم وجلاله، ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ
الرُّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبا ٣٨).

وقد تحدث القرآن عن المفاجأة التى يذهل لها من كان ينكر يوم البعث،
ويصور القرآن مشهد الحديث يدور بين من آمن بالبعث ومن كفر به، ويصور
ذهول هؤلاء وقد فوجئوا بيوم القيامة، فيقول: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا
لَبِئْنَا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْنَا فِي كِتَابِ
اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مَقْدِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾ (الروم ٥٥ - ٥٧).

يبدأ الحساب، فيناقش هؤلاء الذين لم يرعوا حق يومهم هذا، وأنكروه، ولم
يصفخوا إلى إنذار الرسل، بل غرتهم الحياة الدنيا، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ
الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْفَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَوَلَعْنَا
أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَلِكَ
نُؤَلِّي بِغَضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ
يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَرَّثْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠)﴾ (الأنعام ١٢٨ - ١٣٠). ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ
أَهْؤلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ
أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (سبا ٤٠، ٤١). وقال الذين كفروا: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِي نَذَرْنَا
هَذَا يَوْمَ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْدِبُونَ (٢١) اخشروا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ
(٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا
تَنصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ
كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ
كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنْ لَدَائِقُونَ (٣١) فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنْ كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ
يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣)﴾ (الصافات ٢٠ - ٣٣). أرايت استسلامهم فى ذلك،

والتعجب من أن بعضهم لا ينصر بعضًا، كما كان شأنهم في الدنيا، بل إن بعضهم يسأل بعضًا، ويبرأ بعضهم من بعض، ويؤكد القرآن مرة أخرى معنى انصراف كل إنسان إلى نفسه، وعنايته بأمره فحسب، إذ يقول: ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرءُ مِنْ أُخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ (عبس - ٢٤ - ٣٧). ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهَمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (النحل ١١١). ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ (البقرة ٤٨).

في هذا اليوم الذي حشر فيه الناس جميعًا، وشغل كل فرد فيه بنفسه عمن عداه، تتراعى للمرء أعماله، ويعود إلى ذاكرته ما قدم من خير، أو سوء، ويقرأ هذه الأعمال مسجلة عليه، فهو يقرأ في كتاب منشور، والقرآن يعرض عرضًا مؤثرًا من يرى نفسه قد قدم خيرًا، ومن يرى الشر غالبًا عليه، فيقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ مِمَّا أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَةَ (٢٥) وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَةَ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أُغْنِي عَنِّي مَالِيَةَ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ (٢٩) خَذُوهُ قَعْلَوُهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلْوُهُ (٣١)﴾ (الحاقة ١٩ - ٣١). ويعجب الكفار من دقة الإحصاء والتقييد، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَيْثًا أَحَدًا﴾ (الكهف ٤٩). وتوزن الأعمال وتنال تقديرها، ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)﴾ (القارعة ٦ - ١١). وينزل إلى أغوار النفوس عندما ترى أعمالها، فما تراه من خير تسفر به وجوهها، ﴿وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ (ال عمران ٣٠). وتشتد الحسرة بمن كفر حسرة تملك قلبه، ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (النبأ ٤٠). ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء ٤٢). ويصور تصويرًا ناطقًا ما يشعر به من خسر عمله من تفاهة الحياة الدنيا، فيتمنى أن لو كان قد قدم من العمل الصالح ما يستفيد به في هذه الحياة الباقية التي يشعر بها الحياة الحققة الدائمة، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤)﴾ (الفجر ٢٣، ٢٤).

لا عجب إذا أن تفصح الوجوه عما تحس به النفوس، وأن نرى وجوهًا تتلألأ ابتهاجًا ونورا، ووجوهًا قد خبا ضوءها، وأظلمت، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ

وَتَسْوَدُ وُجُوهُ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦). وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) ﴿(ال عمران ١٠٦، ١٠٧). ويصف القرآن هذه الوجوه فى موضع آخر، فيقول: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ﴾ (٤٢) ﴿(عبس ٢٨-٤٢).

وتتعدد المناظر فى هذا اليوم الحافل، فهذا قد حوسب حساباً يسيراً، وانقلب إلى أهله مسروراً، وذلك قد أوتى كتابه وراء ظهره، فعاد خاسراً يدعو ثبوراً، وهذه طائفة قد اشترت بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، فأعرض الله عنهم، ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (ال عمران ٧٧). وتلك طائفة قد بخلت بما آتاهم الله من فضله، فيصهر ما بخلوا به، ويطوقونه، وهذا أعمى قد أعرض عن ذكر الله فى الدنيا، ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٦)﴾ (طه ١٢٤-١٢٦). وهؤلاء أناس قد اسودت وجوههم لكذبهم على الله، وهؤلاء مجرمون قد قرنوا فى القيود والأصفاد، قد لبسوا سراويل من قطران، وتغشى وجوههم النار، ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢)﴾ (غافر ٧١، ٧٢). وهؤلاء ضالون ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمُقًا وَبُكْمًا وَضُمًّا﴾ (الإسراء ٩٧). وهؤلاء كفار قد ملأهم الذهول فشخصت أبصارهم فى رعب وخوف. ومن أكثر الصور تأثيراً فى ذلك اليوم صورة هؤلاء المجرمين، وقد نكسوا رؤوسهم عند ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة ١٢). ولكن أنى يستجاب لهم، أو يسمع دعاؤهم. أوليس من الخير أن يبادروا إلى الإيمان فى الدنيا، حيث ينفع الإيمان قبل أن يقفوا هذا الموقف اليائس، وقبل أن يجابوا بأن يقال لهم: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (السجدة ١٤).

وإن الأسف ليشتد بهؤلاء حين يرون العذاب، فيتمنون أن تكون لهم كرة ليكونوا من المحسنين، وذلك إنذار بما يترقبهم من بأس قاتل، من الخير ألا يضعوا أنفسهم فى مكانه. ومن أشد هذه الصور تأثيراً كذلك هذا التقاطع الذى يتم بين المشركين بعضهم وبعض، وبينهم وبين ما كانوا يشركون من دون الله، ف ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف ٦٧). ثم قيل لهم:

﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَفْضِلُ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤)﴾ (عاش ٧٣، ٧٤). ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (العنكبوت ٢٥). ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شَفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣)﴾ (الروم ١٢، ١٣). وإذا كانت تلك الخاتمة نهاية صلة المشركين ببعضهم ببعض وبما كانوا به يشركون، فمن الطبيعي أن يتدبروا مصيرهم في هذه الحياة، قبل ألا يكون ثمة مجال للرجوع عن الخطأ ولا للاعتراف بالحق، وقبل أن يقال لهم وهم في ذهول ورهبة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩)﴾ (الأنبياء ٩٨، ٩٩). تلك هي الصورة التي رسمها القرآن لليوم الآخر، وهي صورة تبعث في النفس الرهبة، من شهود هذا اليوم بلا إعداد له إعداداً يكون سياجاً بين المرء وما يحذره من هذه الأهوال، ودرعاً يقيه الشدائد والخطوب، وتدعو المرء إلى التفكير السليم في المصير، حتى يهيئ له ما يصل به إلى السلامة والنجاة.

وقد وازن القرآن كثيراً بين الحياة الدنيا والآخرة، فيرى نعيم الحياة الدنيا في الآخرة قليلاً ضئيلاً، كمتاع يستمتع به مسافر على عجل، ويقول: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (ال عمران ١٨٥). ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة ٢٨). ويرى عذاب الآخرة أشد العذاب، وهو أشد وأبقى من عذاب هذه الحياة، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (طه ١٢٧). وبعد الحشر والحساب ينقسم الناس جماعات، يساق بعضها إلى جهنم، ويمضى بعضها الآخر إلى الجنة، وما هو ذا القرآن يصور هذه الجماعات، حاشدة تمضى إلى قدرها المقسوم، وتستقبل بما يليق بها وما تستحقه، فيقول: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّامًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُرَّامًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾ (الزمر ٧١-٧٥). وهكذا ينقسم الناس: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

الجنة

تحدث القرآن كثيراً عن الجنة وما فيها من النعيم، الذى ينتظر من آمن وعمل صالحاً، وعندما أراد أن يقرب إلى أذهاننا سعة هذه الجنة وضخامتها، قال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران ١٢٢). ولما كان العرض عادة أضيق من الطول ترك للخيال أمر تصور طول يكون عرضه السموات والأرض؛ وقد أعد فى هذه الجنة مساكن وصفها القرآن بأنها طيبة، تطيب فيها الحياة، ويسعد فيها المقيم.

عنى القرآن أكثر ما عنى وهو يتحدث عن الجنة بأن الأنهار تجري من تحتها، فكثيراً ما تسمع فيه هذا الوصف الذى ورد فى قوله سبحانه: ﴿أَعْدَدَ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة ٨٩). ولا ريب أن للأنهار منظرًا يروق العين، ويثلج النفس، ويهيج القلب، فضلاً عن أن الماء يوحي بمعنى الحياة والاطمئنان إليها، وليست هذه الأنهار الجارية مياهها متدفقة فحسب، ولكنها أنهار متنوعة بين ماء عذب، ولبن سائغ، وخمر شهى، وعسل صاف، ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ (محمد ١٥). ومن هذه الأنهار يعب الشاربون كما يشاءون. ولا يكتفى القرآن بذكر هذه الأنهار الجارية فيها، بل يحدثنا عن العيون المتفجرة فى أرجائها، ولتفجر العيون فى النفس أثره المبهج السار.

ويعيش أهل الجنة فى جولا يؤذيه حر الشمس ولا قوة البرد، ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا﴾ (الإنسان ١٣). ولكنها ظل ظليل لا يمحوه وهج الشمس، وقد أكثر القرآن من الحديث عن ظل الجنة، فقال مرة: ﴿وَوَدَّخَلْنَاهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ (النساء ٥٧). وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ (المرسلات ٤١). وقال: ﴿أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ (الرعد ٣٥). وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ (الإنسان ١٤). وقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَكُونَ﴾ (يس ٥٦). والظل مما تجد النفس عنده الطمأنينة، وتشعر لديه بالهدوء والغبطة يلجأ إليه السائر فى حرّ الظهيرة، فيجد راحة نفسه وهدوء قلبه، وكان

القرآن بهذا الوصف يعقد مباينة تامة بين النار الملتهبة لا يجد فيها الإنسان مأوى من لظاها، وبين الجنة ذات الظل الوافر الظليل.

وأجمل القرآن مرة ما فى الجنة من نعيم الطعام والشراب حين قال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ (الزخرف ٧١). وخص القرآن من بين أنواع الطعام، الفواكه بالحديث يجمعها حيناً، ويعدد بعض أنواعها حيناً آخر، ويتحدث عن قرب مجتناها، ودنو قطوفها، فقال مرة: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهٌ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣)﴾ (الصفوات ٤١-٤٣). وقال ثانية: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)﴾ (الزخرف ٧٢، ٧٣). وقال أخرى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذُوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زُجْجَانٍ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاشِئِهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ لَهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُنَّ وَلَا جَانٌ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمَنْ ذُو نِهْمَا جَنَّاتٍ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَمَمَاتٍ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨)﴾ (الرحمن ٤٥-٦٨). ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَفْتُحَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١)﴾ (ص ٤٩-٥١). ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَبْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ (الواقعة ٢٧-٣٣). ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَقَارًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢)﴾ (النبا ٣١-٣٢).

وأشار إلى اللحم بعامة، ولحم الطيور بخاصة فى موضعين من القرآن. ولعل العناية بذكر الفاكهة، مع أن القرآن قد أشار إلى أن فى الجنة من كل الثمرات، وبذكر اللحم تشير إلى ما فيه أهل الجنة من الترف والنعيم، فالاعتقاد أن هذين النوعين من الطعام يسعد بغزارتهما الأغنياء المترفون.

وخص القرآن من بين أنواع الشراب الماء واللبن والخمر والعسل، وتحدث كثيراً عن خمر الجنة وما تمتاز به من خمر هذه الحياة، فهى خمر خالصة للذة لا تعتدى على العقل، ولا تنتهب قواه، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧)﴾ (الصفوات ٤٥-٤٧). خمر يحتفظ فيها الشارب بخير

ما أعطى من النعم وهو عقله، وإذا كانت الخمر يجمل شربها من يد ساق جميل، فقد أعد في الجنة هؤلاء السقاة ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ (الطور ٢٤). هذا إلى ألوان أخرى من الشراب، خصت بها الجنة، هذا، وما في الجنة من ألوان الطعام والشراب دائم لا نفاذ له، ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ (ص ٥٤).

ويقدم الطعام والشراب في صحاف وأكواب صنعت من الذهب والفضة ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦)﴾ (الإنسان ١٥، ١٦).

أما ملابسهم فمن الحرير والإستبرق^(١)، ﴿يَحُلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ (الكهف ٣١). ويجلسون متقابلين ﴿مُتَكِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ (الرحمن ٥٤). و﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَكِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦)﴾ (الواقعة ١٥-١٦). يتحدثون، وقد بدت على وجوههم البهجة والسرور، ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (المطففين ٢٤). قد اطمأنت نفوسهم إلى هذا النعيم المقيم، وملاً الرضا نفوسهم فلا غل فيها ولا حفيظة، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر ٤٧). ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ (الأعراف ٤٣). وهذا مجلس من مجالس أهل الجنة يصفه القرآن في قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَعْيَةٍ (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزُرَابِي مَثْبُوتَةٌ (١٦)﴾ (الغاشية ٨-١٦). ويصف مجلساً آخر من مجالسها قائلاً: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَّةٌ مِنَ الْأُولَى (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَكِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّغُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ (١٩) وَأَفَّاكِهِمْ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا (٢٥) إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)﴾ (الواقعة ١٠-٢٦). قد امتلأت نفوسهم بالغبطة لرضا الله عنهم ورضاهم عن نتيجة أعمالهم، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (المائدة ١١٩). وتدور بينهم أطيب الأحاديث وأسعدها، وها هم أولاء قد ضمهم مجلس، ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَتَيْتُكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَتَيْتُكَ مِثْنًا وَكُنَّا تِرَابًا وَعِظَامًا أَتَيْتُكَ لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلَعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ قَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتْ لَتُرْدِينَ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَسِيئِينَ (٥٨)﴾ (الجن ٥٠-٥٨).

(١) نخين الديباج. (٢) وسائد. (٣) طنافس. (٤) تذهب عقولهم.

(٥٨) إِلَّا مَوْتَتَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) ﴿(الصافات ٥٠-٦٠).
 وها هم أولاء قد ضمهم مجلس ثان، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا
 قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ
 هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾ (الطور ٢٥-٢٨). ويصورهم ﴿يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا
 سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ (٤٤) وَكُنَّا
 نَخْرُسُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ (٤٧)﴾ (المدثر ٤٠-٤٧).
 ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف ٤٧).
 أو ليس فى هذا التصوير ما يدفع إلى التفكير العميق حذرًا من كارثة مقبلة.

ويملاً هذه الجنة أنسا هؤلاء الزوجات اللاتي جمعن بين جمال الجسم وجمال
 النفس، فهن حور كواعب، كأنهن الياقوت والمرجان، عين كأنهن بيض مكنون،
 أما خلقهن فإنهن يتزيّن بأجمل صفات النساء وأسمائها، وهى صفة العفة التى
 عبر القرآن عنها بقصر الطرف، إذ وصفهن مراراً بقوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرُفِ
 أَتْرَابٌ﴾ (ص ٥٢). وبذا كله تصبح الجنة كما وصفها القرآن - نعيماً وملكاً كبيراً.

تلك هى الجنة كما رسمها القرآن، نعيم مقيم، ولذة دائمة، ومتعة لا تنفد، وقد
 يقال إن القرآن قد أكثر من ذكر اللذائذ الجسمية، والمتع الجسدية، ولكن يجب ألا
 ننسى أن الإنسان الطبيعى الكامل جسمًا وعقلًا يُسرُّ لهذه اللذائذ ويهش لها،
 ويتمنى أن لو عاش تلك الحياة السعيدة المنعمة، فليس فى الطبيعة البشرية زهد
 فى اللذائذ ولا كراهة لها، فلا جرم كان الوعد بالحصول عليها جزء العمل الطيب،
 مغريا بهذا العمل وحائثا عليه، ولم يعمل الناس ويجاهدون؟ إنهم يعملون للحصول
 على مستوى رفيع فى الحياة، يمكنهم من الحصول على السعادة الجسمية
 والروحية، ومن يزعم أن الطبيعة البشرية المثالية تتجه إلى الزهد أو تميل إليه فهو
 مغال مسرف، بل جاهل بحقيقة الطبيعة البشرية، فالناس فى هذه الحياة
 يجاهدون ليصلوا بحياتهم المادية إلى مستوى سام رفيع، ويحصلوا على أكثر
 ما يستطيعون الحصول عليه من هذه السعادة المادية، لها يجاهد الناس، ومن
 أجلها تقتتل الأمم، وكان لذلك وصف النعيم مثيراً فى النفس رغبة العمل لنيله
 والحصول عليه، وكان وصف لذائذ الجنة المادية مما يتفق مع طبيعة الإنسان،
 والقرآن بهذا يلحظ الجانب الواقعى من حياة الإنسان. ومع قوة ما للنعيم المادى
 من أثر فى قوة توجيه المرء إلى الصالح النافع، لم ينس القرآن اللذة الروحية فى
 وصف نعيم الجنة، فهذا الرضا النفسى عن نتيجة الأعمال التى قدمها المرء فى
 هذه الحياة، والسرور برضوان الله، لكل هذه لذة روحية سامية، بل لقد أشار القرآن

إلى أن هذا الرضوان من الله أكبر من هذه اللذائذ حين قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة ٧٢). رأيت أن القرآن لم يغفل الجانب الروحي في الإنسان، جانب السرور بمغفرة الله ورضوانه، وأنه لم يغفل غرائز الإنسان التي تندفع إلى طلب اللذائذ، واجدة في هذه الملذات سعادتها وهناءتها، ولو أن القرآن اقتصر على وصف اللذة الروحية، كان في ذلك الاتجاه انحراف عن الطريق الطبيعي الذي تسير فيه الطبيعة الإنسانية السليمة.

النار

أما جهنم فقد أعدت ﴿لِلطَّاغِينَ مَابًا (٢٢) لَأَبْثُنَ فِيهَا آحْقَابًا (٢٣)﴾ (النبا ٢٢، ٢٣). ويقال لهم وقد ككبوا فيها: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥)﴾ (الطور ١٤، ١٥). وقد أجاد القرآن في تصويرها تصويراً يبعث الرهبة في النفوس والهلع في القلوب، والخوف من أن يكون المصير إليها، فتلجأ إلى العمل تتقى به لظاهها، وتتخذ ستاراً بينه وبين لفحها، وإذا كان عرض الجنة عرض السموات والأرض، وكان من السعة بحيث يشعر أهلها بالطلاقة والحرية أنى ساروا، فعلى العكس من ذلك النار فإن ساكنها لا يحس بحرية ولا طلاقة، ولكنه يحس بالضيق، وكأنى بأهل النار يرصّ بعضهم رصاً إلى جوار بعض، لا يكادون يجدون متسعاً للحركة ولا الانتقال، ويزيد من ضيقهم أنهم مقيدون في السلاسل، مقرنون في الأغلال، يسحبون على وجوههم ويلقون في النار، ﴿وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (الفرقان ١٣). ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢)﴾ (غافر ٧١، ٧٢). وليس ذلك لضيق في النار، ولكن للتضييق على ساكنها، أما النار فتسع أكثر من داخلها، ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (ق ٣٠).

وتلتهب نيران جهنم بوقود من الناس الطغاة والحجارة، وإن الصلة لوثقى بين أهل النار والحجارة، فإن أهل النار لا يميزهم من الحجارة، ما يمتاز به الناس من العقل والإدراك والحس، بل لقد ألغوا عقولهم، فلم يفهموا بها الحق والصواب، ولم يفكروا بها التفكير السليم المنتج، وألغوا أعينهم، وأذنانهم، فلا يهتدون بما يرون ولا بما يسمعون، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ

الْعَافِلُونَ ﴿الاعراف ١٧٩﴾. أو ليس الغافل أشبه شيء بالجماد، وبم يصير الإنسان إنساناً بغير عقله وإدراكه. ومن حطب جهنم كذلك جند إبليس الذين كانوا يغوون الناس ويضلونهم، ﴿فَكَتَبُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُنُ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ (الشعراء ٩٤ - ٩٥). كما يقذف في النار أولئك الآلهة التي كانوا يعبدون من دون الله، وهنا يوجه القرآن أنظارهم إلى أن ما يعبدونه لو كان يستحق أن يكون إلهاً ما صح أن يلقي في نهار جهنم خالداً فيها، إذ يقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (الأنبياء ٩٨، ٩٩).

ويصور القرآن شدة لهيب هذه النيران بضخامة ما يتطاير منها من الشرر، فهو ليس بذرات صغيرة كهذه الذرات التي تتصاعد من نار هذه الحياة الدنيا، ولكنه شرر كجنود الشجر الضخم، أو الجمال الصفر، ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهَا جَمَلَةٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ (المرسلات ٣٢، ٣٣). فليترك المجال للخيال، يتصور هذه النيران تلقى مثل هذا الشرر. هذه النيران الملتهبة يسمع لظاها من مدى بعيد، فكأنما تبدى غيظها مما اقترفه هؤلاء الجناة، واستمع إليه يصور ذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسُنُورٌ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقاً وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴿الملك ٦ - ٨﴾. أو لا تحس في هذا التصوير بقوة غضب النيران يملؤها، حتى لتكاد تضيق به وتنفجر، وفي هذه النيران ذات اللظى، يتنفسون لهبها ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ﴾ (مد ١٠٦). وليصور خيالك هذا اللهب يتنفسون منه ويزفرون، ليصور خيالك هذه النيران تحيط بالعصاة من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (المنكوت ٥٤، ٥٥). فهي مهادهم، ومنها غطاؤهم، وليصور الخيال هذه الوجوه تتقلب في النيران، والرءوس تنزع منها شواها، وهذه الأجسام تتخذ ثيابها من النار، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴿الحج ١٩﴾. وهذه الجلود كلما احترقت وصهرت، استبدلت بجلود أخرى، ليبداً عذابهم من جديد، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْثَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿النساء ٥٦﴾. وهكذا لا يجدون في وسط هذه النيران ظلاً يحسون عنده ببرد الراحة، اللهم إلا ظل دخان قد تفرق وانتشر شعياً، فصار ظلاً ﴿لَا ظَلِيلٌ وَلَا يَغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ (المرسلات ٣١). ﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ (الواقعة ٤١ - ٤٤). ويظنون في هذا العذاب

(١) دخان.

خالددين، ﴿لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾^(١) (الزخرف ٧٥). وعليهم حرس ﴿مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحریم ٦).

وأما طعامهم فمن شجرة الزقوم، وهي ﴿شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَجِيمِ﴾ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُؤَمٌ شَيْطَانِيٌّ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَا يَكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنٌ مِنْهَا الْبُطُونُ (٦٦) ﴿(الصافات ٦٤ - ٦٦). وهي ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ (٤٤) كَأَلْمُهْلٍ^(٢) يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) ﴿(الدخان ٤٤ - ٤٦). وجعل الله طعامهم في موضع آخر ﴿مِنْ ضَرِيعٍ﴾^(٣) (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) ﴿(الغاشية ٧، ٦). فإذا أرادوا المشرب سقوا من عين آنية^(٤)، وشربوا حميماً^(٥)، وغساقاً^(٦)، وإن ما يتصاعد منه من حرارة يشوي الوجوه شيئاً، ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهُمْ سرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يَعَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمُهْلٍ يَتَّوِي الْوُجُوهَ بِسُوءِ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف ٢٩). وهم يملنون بطونهم من هذا الطعام، ويقبلون على شرابهم في شراهة كشراهة الهيم، فيقطع أمعاءهم، ولا يكتفى الأمر بأن يشربوا من هذا الحميم، ولكنه يصب من فوق رؤوسهم، ﴿يُضَهِّرُهُ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ (الحج ٢٠).

لا عجب إذا إن حاول هؤلاء النزلاء أن يفروا من جهنم، ولكن أنى لهم الفرار، وقد أعدت ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ﴾^(٧) مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) ﴿(الحج ٢١، ٢٢). أو إن تمنوا أن لو كانوا تراباً، أو دعوا الله أن ينالهم بالهلاك المبيد، ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ (الفرقان ١٤)، ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِنَبِيٍّ (١١) وَصَاحِبِيٍّ وَأَخِيهِ (١٢) وَقَصِيْلَتِهِ الَّتِي تُؤْتِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤)﴾ (المعارج ١١ - ١٤). رأيت كيف يشتد العذاب بأصحاب النار، حتى يتمنى أحدهم أن يفدى نفسه بابنه، الذي يتمنى المرء أن يفديه بنفسه، بل يتمنى أن لو هلك الناس جميعاً، ونجا وحده.

في هذا اللهب المشتعل الذي لا يموت من فيه موة تريحه، ولا يحيا حياة يرضاهما - يلعن أهل النار بعضهم بعضاً، فإذا حوتهم جهنم جميعاً قال الرعاع عن سادتهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَهْلُونا قَاتَبْنا عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ﴾ (الأعراف ٢٨). فيجيبهم الله بأن لكل منهم ضعفاً، ويقول السادة للرعاع: أنتم مثلنا في العذاب، ولن يخفف عنكم ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف ٢٩). وينادي على السيد منهم، فيقال لمعذبيه: ﴿خُدُّوهَ فَاغْتَلُوهُ﴾^(٨) إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧)، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابٍ

(١) يانسون. (٢) مازاب من بعض المعادن أو القيق أو صديد الميت.

(٣) جنس من الشوك ترعاه الإبل مادام رطباً فإذا يبس تحامته الإبل وهو سم قاتل.

(٤) متنامية في الحر. (٥) ماء حار.

(٦) ما يسق من صديد أهل النار أى يسيل. (٧) سياط. (٨) قودوه بعنف.

الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ (الدخان ٤٧ - ٤٩). ويشدد الخصام بينهم وبين ما كانوا يعبدون من دون الله، ويدركون مقدار ما كانوا عليه من الخطأ والضلال ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نَسُواكُمْ رَبِّبَ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾ (الشعراء ٩٦ - ١٠١). ويندمون على عصيان الله ورسوله، ويتمنون أن لو كانوا قد أطاعوهما، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِنَاهُمْ مِثْقَلِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ لَعْنَا كَبِيرًا (٦٨)﴾ (الأحزاب ٦٧، ٦٨). وحينئذ يتجه هؤلاء الضعاف إلى رؤسائهم ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيحًا مِنْ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنْ لَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (غافر ٤٧، ٤٨). ويتجه هؤلاء العصاة إلى الله، ويصور القرآن ذلك في قوله، يوجه إليهم الأسئلة فيجيبون: ﴿أَلَمْ نَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تَكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا غَدَاةٌ قَائِلُونَ (١٠٧) قَالَ احْسَبُوا فِيهَا وَلَا تَكَلَّمُونَ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاطِرُونَ (١١١) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ (المؤمنون ١٠٥ - ١١٥). وحينئذ يصرخون فيها قائلين: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (فاطر ٣٧). فيسألون: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُدْرِكُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ التَّذِيرُ فذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (فاطر ٣٧). وفي النار لا يسعهم إلا اعترافهم بذنوبهم فها هم أولاء الخزنة يسألونهم، كلما أقبل فوج منهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)﴾ (الملك ٨ - ١١). وحينئذ يجيبون إجابة من يريد أن يموه، طمعًا في النجاة حيث لا مطمع، فإذا قيل لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ (غافر ٧٣، ٧٤). وحينئذ يصمتون ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (الشعراء ٩٢، ٩٣).

ويتجه أصحاب النار حينئذ إلى خازنها، ويتضرعون أن يقضى ربهم عليهم، فتكون الإجابة قاضية على أمالهم، بأنهم مخلدون لا يفتر عنهم العذاب،

﴿وَنَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨)﴾ (الزخرف ٧٧، ٧٨). وحيثما وقد أضناهم العذاب يتوسلون لخزنة جهنم أن ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يَحْفَظْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩)﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ زُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)﴾ (غافر ٤٩، ٥٠). وحيثما يتساءلون عن رجال مضوا إلى الجنة مع أنهم كانوا يعدونهم من الأشرار، فإذا اتجهت أبصارهم لتلقاء أصحاب الجنة نادوا ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠)﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْتَمِسُوا نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)﴾ (الأعراف ٥٠، ٥١).

وأكبر ما يتمنون يومئذ أن يكون لهم شفعاء، فيشفعوا لهم، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ حَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأعراف ٥٢).

ذلك وصف حافل للعذاب الجسمي فى جهنم، أما العذاب الروحي فمشعور هؤلاء المجرمين بأنهم محجوبون عن رضوان الله الذى خلقهم، وأنعم عليهم بما قل من النعم أو أكثر، ثم قابلوا نعمه بالجحود والنكران، ﴿وَلَا يَكْلُمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ﴾ (البقرة ١٧٤). ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ (المطففين ١٥). وفى كفران النعمة شقاء نفسى، يتعذب له الضمير، ويشقى من أجله الوجدان.

الجهاد

قويل الدين الجديد بأعنف مظاهر المعارضة، واجتمع أعداؤه يريدون القضاء عليه، ويحاولون بكل ما أوتوا من قوة أن يخنقوه فى مهده، وأن يبيدوا فكرته ومبادئه، ولم يقفوا عند حد الجدل اللسانى، أو المعارضة القولية، بل تعدوا ذلك إلى أشد ألوان الإيذاء، فحملوا بقسوة على من اعتنق هذا الدين الجديد، حتى أصبح مقامهم فى وطنهم عبثًا لا يحتمل، وجحيماً لا يطاق، ففروا بدينهم إلى المدينة، وضحوا فى سبيل عقيدتهم بأموالهم. وأهليهم، فكان من الطبيعى أن يسمح لمعتنقى هذا الدين الذى اتخذ شعاره: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل ١٢٥). أن يعدوا العدة للدفاع عن أنفسهم، والدفاع عن عقيدتهم، حتى يتدبر الناس أمرها فى حرية وأمن، ويتدبروا ما فيها من الحق والصواب، فيعتنقوها عن اقتناع، ويدخلوها مطمئنين، لا يخافون، وقد بين القرآن ذلك فى قوله: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (الحج ٣٩، ٤٠). وإن أحق ما يعطاه

المظلوم من الحقوق الدفاع عن النفس، ليعيش آمنًا في سريه، مطمئنًا إلى حياته، لا يخشى أحدا على نفسه ولا عقيدته، والجهاد هو الذى يدفع شرّة العدو، ويحول بينه وبين الاعتداء والتعدى، ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَنْسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ (النساء ٨٤).

وإذا كان للجهاد، هذا الأثر القوي فى تأمين الجماعة الناشئة على نفسها وعقيدتها، فلا جرم كان له مكانه الممتاز بين مبادئ هذا الدين وقواعده، حتى إنه لينكر أن يسوى به غيره مما لا يبلغ قدره وقيمته، فيقول: ﴿أَجْعَلُكُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يَشْرَهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ (التوبة ١٩ - ٢٢). ويقول: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء ٩٥).

أرأيت هذا التكرير وما يحمله من معانى التوكيد، مثبتًا فى النفس فضل الجهاد وقدره وقيمته.

والقرآن يعترف بأن الجهاد فريضة ثقيلة على النفوس، لا تتقبله فى يسر، ولا تنقاد إليه فى سهولة، فهو يعلم ما لغريزة حب الذات من أثر قوى فى حياة الإنسان وتوجيه أفعاله، ولذلك تحدث فى صراحة، مقررًا موقف النفس الإنسانية، من تلك الفريضة الشاقة، التى يعرض المرء فيها حياته لخطر الموت، وقد طبعت النفوس على بغضه وكراميته، فقال ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢١٦). ويقرر فى صراحة أن نفوس المسلمين قد رغبت فى أن تظفر بتجارة المكيين الآبية من الشام، والتى يستطيعون الاستيلاء عليها من غير أن يريقوا دماءهم فى قتال مرير مع القرشيين، إذ يقول: ﴿وَإِذْ يَبْعُدُكُمُ اللَّهُ إِخْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (الأنفال ٧).

وإذا كانت النفس الإنسانية تجد الجهاد فريضة شاقة، فقد جمع القرآن حولها من المغريات ما يدفع إلى قبولها قبولاً حسنًا، بل إلى حبها والرغبة فيها.

وإذا كان أول ما يثنى المرء عن الجهاد هو حبه للحياة وبغضه للموت، فقد أكد

القرآن مراراً أن هذا الذي يقتل في سبيل الله حتى عند ربه يرزق، وإن كنا لا نشعر بحياته ولا نحس بها، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠). يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾ (ال عمران ١٦٩ - ١٧١). وإذا كان من يقتل في سبيل الله حياً يرزق، ويظفر بحياة سعيدة، فرحاً بما أنعم الله به عليه، ولا يمسه خوف، ولا يدركه حزن، فلا معنى للإحجام عن الجهاد، حرصاً على حياة لا تنقطع بالموت في ميدان القتال، ولا تنتهى بالاستشهاد، بل يستأنف صاحبها حياة أخرى آمنة، خالصة مما يشوب حياة الدنيا من القلق والمخاوف والأحزان.

ويمضى بعدئذ، غارساً في نفوسهم أن الموت قدر مقدور، لا يستطيع المرء تجنبه أو الهرب منه، فلا معنى إذا لتجنب الجهاد الذي لا يدنى الأجل، إذا كان في العمر فسحة، إذ الأجل لا يتقدم ولا يتأخر، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف ٢٤). فيقول: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ٣٤). ويقول: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كُنَّا نُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً غَافِقًا لَنُكْفِرَنَّ بِهِمْ وَإِنَّا لَنَنظَرُ فِي السَّمَوَاتِ لَهُمْ نَارًا تَأْتِيهِمْ كَمَا يُتَوَكَّلُونَ﴾ (ال عمران ١٥٤). ويرد على أولئك الذين يزعمون الجهاد مجلبة للموت رداً رفيقاً حازماً في قوله: ﴿وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ لَقَاتِلْنَا لَاتَّبِعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلْنَا قُلُوبًا فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (ال عمران ١٦٧، ١٦٨). وإذا كان المرء يموت عند انقضاء أجله، فلا معنى كذلك للفرار من ميدان القتال خوفاً من الموت إذ لا شيء يحول بينهم وبينه إن كان أجلهم قد دنا، ﴿قُلْ لَنْ يَتَفَعَّلَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧)﴾ (الأحزاب ١٦، ١٧).

وإذا كانت الدنيا زائلة لا محالة والموت قادماً لا ريب فيه، وإذا كان الباقي الدائم هو الدار الآخرة والجهاد وسيلة من وسائل السعادة في هذه الدار - كان العاقل الحازم هو هذا الذي يقبل على الجهاد بنفس راضية، مؤثراً ما يبقى على ما يزول قال سبحانه: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء ٧٤). ويرد على هؤلاء الذين

اعترضوا على فرض القتال بقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ (٧٨)﴾ (النساء ٧٧، ٧٨).

ويثير فيهم نخوة الإنسانية، وشهامة الرجولة، حينما يمثل لهم واجبهم المقدس إزاء إنقاذ قوم ضعاف يسامون الذل، ويقاسون الظلم، على أيدي قرية ظالم أهلها، فلا يجدون ملجأ يتجهون إليه سوى الله، يرجونه ويطلبون نصرته، أليس هؤلاء الضعاف أجدر الناس بأن يهب من لديهم نخوة لإنقاذهم من أيدي ظالمهم؟ قال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (النساء ٧٥).

ويمثلهم وأعداءهم معسكرين، أحدهما ينصر الله، وثانيهما ينصر الشيطان، أحدهما يدافع عن الحق، وثانيهما يدافع عن الباطل والغواية، والدفاع عن الحق من عمل الإنسان الكامل، أما الباطل فلا يلبث أن ينهار في سرعة، لأنه هش ضعيف، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء ٧٦).

أما جزاء الجهاد فقد أعد الله للمجاهد مغفرة منه ورحمة خيرا مما يتكالب الناس على جمعه في هذه الحياة، وهيا له جنات تجري من تحتها الأنهار، فقد عقد معه عقد بيع وشراء، يقاتل في سبيله، فيقتل ويقتل، وله في مقابل ذلك جنة الخلد، ذلك عهد قد أكد الله تحقيقه في قوله: ﴿إِنِ اللَّهُ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة ١١١). وأكد القرآن هذا، وكرره في مواضع عدة، فقال مرة: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (ال عمران ١٩٥). وقال أخرى حاشا على الجهاد مغربا به: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١٠) تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينٍ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)﴾ (الصف ١٠-١٢).

ويشجعهم على تتبع أعدائهم بلا تباطؤ ولا وهن، مبيئا لهم أن أعداءهم ليسوا

بأسعد حالا منهم، فهم يتألمون مثلهم ثم هم يمتازون عليهم بأن لهم آمالا فى الله، ورجاء فى ثوابه وجنته، ما ليس لدى أعدائهم، ولذا كانوا أجدر منهم بالصبر، وأحق منهم بالإقدام، فيقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٠٤).

تلك هى المغريات التى بثها القرآن هنا وهناك، يحث بها على الجهاد، ويوطن النفس على الرغبة فيه والإقبال عليه، وأنت تراها مغريات طبيعية تدفع النفس إلى الإقدام على مواطن الخطر غير هيابة ولا وجلة، مؤمنة بأنه لن يصيبها إلا ما كتب الله لها، فلا الخوف بمنج من الردى، ولا الإحجام بمؤخر للأجل، مؤملة خير الآمال فى حياة سعيدة قادمة، لا يعكر صوفها خوف ولا حزن.

وإذا كان الله قد حث النفس الإنسانية على الجهاد، وحببه إليها، فقد حذرنا من الفرار من ميدان القتال تحذيراً كله رهبة وخوف، وإن الفرار يوم الزحف لجدير أن يظفر بهذا التهديد، لأنه يوهن القوى، ويفت فى العضد، ويسلم إلى الانحدار، والهزيمة، فلا غرابة أن نسمع هذا الزجر العنيف فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأُدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مِتَحَرِّفًا إِلَى قِتَالٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)﴾ (الأنفال: ١٥، ١٦).

ويشير القرآن إلى أن الإعداد للحرب وسيلة من وسائل تجنبها، وهو من أجل ذلك يحث على إعداد العدة واتخاذ الأهبة، حتى يرهب العدو ويحذر، فيكون ذلك مدعاة إلى العيش فى أمن وسلام، ويدعو القرآن إلى البذل فى سبيل هذا الإعداد، حتى ليتكفل بوفاء النفقة لمن أنفق من غير ظلم ولا إجحاف به، والقرآن بتقرير هذا المبدأ عليم بالنفس الإنسانية التى يردعها الخوف فيثنيها عن الاعتداء، قال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وبهذه القوة التى أمرنا القرآن بإعدادها نرهب العدو، ونستطيع القضاء عليه، إذا هو حاول الهجوم، أو نقض عهداً كان قد أبرمه معنا، وبها نقلم أظافره، فلا نغتر بما قد يبديه من خضوع، يخفى وراءه رغبة فى الانقضاء إن واثته الفرصة، أو وجد عندنا غفلة، وبهذه القوة يشعر العدو بخشونة ملمسنا، وأننا لسنا لقمة سائغة الأزدراء، فالقتال مباح حتى يأمن سرب الجماعة، ويهدأ بالها، فلا تخشى هجوماً ولا مباغته، ولكن من غير أن تحملنا القوة على الزهو فنعتدى،

وبهذه القوة نقابل الاعتداء بمثله، من غير أن نظهر وهناً ولا استكانة يظنها العدو ضعفاً، وبها نقضى على أسباب الفتنة، حتى تصبح حرية العبادة مكفولة، وحرية العقيدة، موطدة الأركان، واستمع إلى هذه المبادئ القوية مصوغة فى أسلوب قوى فى قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوا فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُواكُمْ فَاغْلِبْتُمُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ١٩٠-١٩٣).

﴿وَإِنْ سَأَلْتُمُ الدُّوَابَّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَمَا تَنْفَعُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ مِنْهُمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ (٥٧)﴾ (الأنفال ٥٥-٥٧). ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اسْتَسْرَوْا بآيَاتِ اللَّهِ تَمَتًّا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأَخِوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَفَضَّلَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ أَخَشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشَفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيَذْهَبْ عَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)﴾ (التوبة ٧-١٥). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة ١٢٣). ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد ٣٥).

ولم يدع القرآن باباً لتقوية الروح المعنوية لدى المسلمين إلا سلكه، ففضلاً عن المغريات التى أسلفنا الحديث عنها، يؤكد لهم مراراً أن الله معهم، وأنه وعد من ينصره بالنصر المؤزر، ويطمئنهم بأنه يمدهم بالملائكة يساعدونهم ويشدون عضدهم، ويخبرهم بأنه ينزل السكينة على قلوبهم، والأمن على أفئدتهم، ويربط على قلوبهم ويثبت أقدامهم، وهو يعلم ما للإيمان الصادق، وما للروح المعنوية القوية من أثر بالغ فى صدق الدفاع والنصر، ولهذا جعل المؤمن الصابر الصادق يساوى

فى المعركة عشرة رجال، ثم رأى أن هذا الجندى المثلالى قليل الوجود، فجعل المؤمن الواحد يساوى اثنين، فللقوة المعنوية أثرها الذى لا ينكر فى ميدان القتال، واستمع إليه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال ٦٥).

ويقرر القرآن ما للرب الذى يليق فى قلوب أعدائهم من الأثر فيما يلحقهم من الهزائم، وفى كل ذلك تثبيت لقلوب المؤمنين، وتقوية لروحهم المعنوية.

هذا، ومن أهم ما عنى به القرآن وهو يصف القتال الناجح - وصفه المقاتلين يتقدمون إلى العدو فى صفوف ملتحمة متجمعة، لا ثغرة للعدو ينفذ منها، ولا جبان بين الصفوف يتقدم فى خوف ووهن، وذلك حين يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوعَةٌ﴾ (الصف ٤). وفى كلمة البنيان والرص ما يصور لك صفوف المجاهدين يتقدمون فى قوة وحزم، يملأ قلوبهم الإيمان، ويحدوهم اليقين. كما عنى بالحديث عن الجند الخائن، وأن الخير فى تطهير الجيش منهم، فهم

أفة يبثون الضعف، ويبذرون بذور الوهن فى النفس، ويقودون الجيش إلى الانهيار والهزيمة، وقد أطلال القرآن فى وصف هؤلاء الجند وتهديدهم وتحذير الرسول من صحبتهم، فقال مرة: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَطَّئِنُ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَاهِدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)﴾ (النساء ٧٢، ٧٣). ويصفهم مهددًا منذرًا

فى قوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلَيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُواكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تَصَلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تَعْبِتْكُمْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أَنْزَلْتُمْ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنُوا أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذُرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧)﴾ (التوبة ٨١-٨٧). ويبين أن الخير فى عدم

استصحابهم، فيقول: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا خِلَالَكُمْ بِتَبِعُونَكُمْ

الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾. وهذه النذر القوية تؤذن بما للجهاد من أثر في صيانة الدين، والتمكين له في الأرض.

المعارك الحربية

سجل القرآن كثيرًا من المعارك الحربية التي دارت بين المسلمين وخصومهم بطريقته المصورة المؤثرة المتغلغلة إلى أعماق النفوس، وأخفى أغوار القلوب، وما هو ذا يسجل معركة بدر، أولى المعارك الكبرى التي انتصر فيها المؤمنون، على قتلهم، انتصارًا مبينًا على عدوهم، فيقول: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكُوكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يَغْشَىٰكُمْ الْعُغْصَانُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجِزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَغْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَمُ قُدُورُهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأُدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلَّهُمْ يَوْمَئِذٍ ذَرِبَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحَرِّجًا إِلَىٰ قِتَّةٍ فَعَدَّ بَاءً بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْهِنٌ كَرِيمٌ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَتَقْدِرُوا فَمَا جَاءَكُمْ الْمُنْتَهَىٰ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَمَا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ تَعُوذُوا نَعُدُّ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)﴾ (الأنفال - ٥ - ١٩).

تسجل الآيات الكريمة نقاشًا حادًا جرى بين النبي وطائفة من المؤمنين، هو يريد أن يقنعها بأن الخير في الخروج لملاقاة العدو، وهي تريد أن تقنعه بأن الأفضل البقاء وتجنب ملاقاته، يشفع لها في اتخاذ هذا الرأي قلة عددها، ويسجل القرآن على هذه الطائفة شدة فرقتها من لقاء العدو، حتى لقد دفعها ذلك إلى جدال الرسول في رأيه جدالًا شديدًا، وكأنما تمثلت مصارعهم أمامهم، وكأنهم يرون أنفسهم مسوقين إلى الموت سوقًا، وتسجل الآيات أن الله وعد المؤمنين الظفر

بالعير أو بقريش، وأنهم كانوا يؤثرون أخذ العير لسهولة ذلك عليهم، ولكن الله قد دفعهم إلى الخروج لا للظفر بالغنيمة، بل ليكون ذلك تمهيداً للتمكين للدين، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

ها هو ذا جيش المسلمين يسير، بقلب واجف، وفؤاد مضطرب، يستمد المعونة من الله، ويستغيث به، ويطلب منه النصر، والله يستجيب له، ويعده بأن يمدّه بالملائكة، ليطمئن قلبه، وتسكن نفسه، وتثبت قدمه، وها هو ذا الأمن يملأ أفئدة الجنود، فيجد النوم سبيله إلى عيونهم، وتجد السماء بالماء، فلا يتسرب الخوف من العطش إلى نفوسهم، والله يلقي الأمن والسكينة في قلوبهم، فيقبلون على القتال، في جرأة وبسالة وإقدام، يتزعزع لها قلب العدو، ويمتلئ قلبه بالرعب والذهول، والمسلمون ماضون في عنف، يضرّبون الأعناق، ويبترون الأكف، فلا تستطيع حمل السلاح، وذلك جزاء عناد المشركين لله ورسوله.

ويتخذ القرآن من تلك المعركة درساً، ويرى أن النصر إنما كفل بهذا الإقدام المستميت، فيحذّره إذا لاقوا العدو أن يفروا من ميدان القتال، وينذرهم إذا هم فعلوا، بأقصى ألوان العقوبات، وبشر أنواع المصير، يذكرهم بأن الله هو الذي أمدّهم بهذه القوة التي استطاعوا بها هزيمة عدوهم، وكأنه ينبئهم بأنهم ليس لهم عذر بعد اليوم، إذا هم أحجموا عن الجهاد، وخافوا لقاء العدو.

ويمضى القرآن بعدئذ منذراً للكافرين، مهدداً إياهم، بشر مصير إن هم فكروا في إعادة الكرة، أو غرتهم كثرتهم، ومنتجهاً إلى المؤمنين يأمرهم بطاعة الرسول، بعد أن تبينوا أن الخير فيما اختار، والنجاح فيما أشار به وأمر.

والقرآن في حديثه عن هذه الغزوة قد اتجه أكثر ما اتجه إلى رسم نفسية المقاتلين، والتغلغل في أعماقها، لأن هذه النفسية هي التي تقود خطا المجاهدين، وتمهد الطريق إلى النصر أو الهزيمة، كما اتجه إلى ما يؤخذ منها من تجربة وعظة. وإذا كانت غزوة بدر قد انتهت بالنصر فإن غزوة أحد قد انتهت بإخفاق بعد

نصر كان محققاً، وقد سجل القرآن تلك الغزوة في قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُحْبِلُوا حَائِشِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُم مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُم مَّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمَسُّنَّكُمُ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيَمْحُصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّوجَلًّا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا اللَّهَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَزِدُّوكُمْ عَلَىٰ أَغْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنَلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا وَهُمْ إِلَّا النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّاعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تَضَعُدُونَ وَلَا تُلَاقُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَغِمْتُمْ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ

(١) تستأصلونهم.

وَمَا أَتَى قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ
 إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا
 قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ
 وَلِيَمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ
 إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا
 عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
 (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمْغْفِرَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً حَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مِتُّمْ أَوْ
 قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فِيمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ يَدًّا فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ
 حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَتَّصِرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ
 وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى
 كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَقَمْنَ اتِّبَعِ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ
 جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ ذَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ
 كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤) أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ
 عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فِإِذِ الَّذِينَ قَالُوا
 وَاللَّهِ لَنُبَلِّغَنَّكُمْ أَوْ أَدْغَمُوا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا
 لَأْتَبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ اقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِمَا
 يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ
 (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ
 عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِعِصْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) ﴿ (ال عمران ١٦١ - ١٧١).

هذا الحديث المطول مؤذن بأن المحدث عنه ذو أهمية خاصة تحتاج إلى هذا
 الطول، ولم لا؟ وهو حديث عن هزيمة، يريد أن يقتلع آثارها من نفوسهم، وأن
 يبدلهم من اليأس أملاً، وأن يبين لهم الحكمة فيما حدث، ولنتتبع الآيات الكريمة
 نرى ما رسمته، وما توحى به، وما عالجه في نفوس القوم، وكيف مستها برفق
 حتى اندمل جرحها واطمأنت.

صورت الآيات الكريمة الرسول فى ميدان القتال، يرتب الجند، ويخص كل طائفة بمكان، ويعين موضع كل فريق من المعركة، وقد همّ فريقان أن يتركا ميدان القتال ويفشلا، ولعلمهما كانا يريان أن يعودا وينتظرا العدو فى المدينة، وربما ذكر الرسول المؤمنين بنعمة الله إذ نصرهم، وهم ضعاف أذلة يوم بدر، كما أخذ الرسول يقوى روحهم المعنوية، فيحدثهم عن تأييد الله لهم بالملائكة ليطمئن قلوبهم، ويثبت أقدامهم، وليكون ذلك وسيلة لدر الكفار، أو لتذكيرهم فيتوبون. ذلك رسم لما كان فى بدء المعركة، وما قام به الرسول من دور هام فى تنظيم قوى المؤمنين، وملء أفئدتهم بالأمل وروح الإقدام.

ويمضى القرآن بعدئذ يمس جرحهم فى رفق، فينهاهم عن الوهن والحزن، ويعدهم بالفوز إذا كان الإيمان الحق يملأ قلوبهم، ويحدثهم بأنهم إن كانوا قد أصيبوا فقد أصيب عدوهم بمثل ما أصيبوا به، وكأنه يقول لهم: إن القوم برغم ما أصيبوا به، لم يهنوا ولم يئسوا، بل جاءوا إليكم مقاتلين.

ويحدثهم عن السرفى انتهاء المعركة بما انتهت به، وأن ذلك وسيلة لتبين المؤمن الحق، وتمحيصه عن طريق اختباره، فليس دخول الجنة من اليسر بحيث لا يحتاج إلى اختبار قاس، كهذا الاختبار الذى عانوه فى معركة القتال، ثم ينتقل بعدئذ يقر فى نفوسهم أن الأجل أمر مقدور لا سبيل إلى تقديمه أو تأخيره، وأن كثيرا من الأنبياء حدث لأتباعهم هزائم لم تضعف من عزيمتهم ولم تؤد بهم إلى الوهن والضعف والاستكانة، وهو بذلك يضرب لهم المثل الواجب الاقتداء، وبالصبر سيظفرون كما ظفر من سبقهم.

ويعود بعد ذلك متحدثا عن سبب الهزيمة، فيبين أنهم كانوا خلقاء بالنصر، وأن الله قد صدقهم وعده، وأراهم ما يحبون، ولكنهم فشلوا وتنازعا فى الأمر فمنهم من أراد الظفر بالغنيمة، ومنهم من كان يريد الآخرة، فكانت النتيجة هزيمة، فرأوا على إثرها مولين، لا يلوون على شىء، والرسول يدعوهم إلى الثبات، ويصف القرآن طائفة منهم قد تغلغل الشك فى نفوسهم، فمضوا يظنون بالله غير الحق، ويقولون: لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا، فيرد عليهم القرآن فى رفق بأن الأجل مقدر، وأن من كتب عليه القتل لا بد ملاقيه، ثم يسبغ الله عفوه على من فر فى ميدان القتال، غافرا له زلة دفعه إليها الشيطان.

ويكرر القرآن مرة أخرى فكرة إصابتهم، وأن أعداءهم قد أصيبوا من قبلهم، وأن سبب هذه الهزيمة راجع إلى أنفسهم، كما سبق أن حدثهم عن فشلهم

وتنازعهم، وأن هذا الاختبار ليتبين من آمن، ومن نافق، هؤلاء الذين ثبطوا عن القتال حيناً، والذين زعموا أن الجهاد في سبيل الله هو الذي دنا بأجال من قتلوا، والقرآن يرد عليهم في إفحام قاتلاً: ﴿فَادْرءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران ١٦٨).

ويختم حديثه مسهلاً عليهم قتل من قتل في سبيل الله بأنه شهيد حتى عند ربه يرزق، فرح بما أوتى من فضل الله، مستبشر بمن سيلحق به من المجاهدين، مبتهج بحياة لا خوف فيها ولا حزن.

كانت سمة هذا الحديث الطويل الرفق في الخطاب، واللين في العتاب، يريد بذلك تأليف القلوب، وجمع الأفتدة، وربما جر العنف إلى أن تجمع النفوس، وتتشقت الأهواء، في وقت كان الإسلام فيه أحوج ما يكون إلى الألفة وجمع الشمل، حتى إن الفارين أنفسهم وجدوا من عفو الله ما وسعهم بعد أن استزلهم الشيطان. وسمة أخرى واضحة في تلك الآيات الكريمة وهي خلق الأمل في القلوب وإبعاد شبح اليأس ومرارة الهزيمة من النفوس، وقد رأينا كيف ضرب لهم الأمثلة بمن مضوا ممن قاتلوا مع النبيين، وأثار فيهم نخوة ألا يكونوا أقل قوة من أعدائهم الذين أصيبوا أشد من إصابتهم، ومع ذلك لم يهنوا ولم يضعفوا، وملأ قلبهم طمأنينة على من قتل من أحبابهم، فقد أكد لهم حياتهم حياة سعيدة، وبذلك كله مسح على قلوبهم، ومحا بعفوه آمم المنهزمين منهم، وأعد الجميع لتحمل أعباء الجهاد من جديد بنفوس مشرقة، وقلوب خائصة، يملؤها الأمل ويحدوها الرجاء في ألا تقصر في قتال، أو يدفعها زخرف الحياة الدنيا فتصرف إليه، ناسية الهدف الرئيسي الذي تركت من أجله الوطن والأهل والولد.

وتحدث القرآن حديثاً طويلاً عن غزوة الأحزاب، إن قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءَ وَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَبَلُوا فَتِنَّهَا لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ

بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْرَاجِهِمْ هَلْهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْضَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَخْسِفُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَحْزَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) ﴿ (الأحزاب ٩-٢٧).

أجملت الآيات في وصف نتيجة المعركة بانهزام الأحزاب ومن ظاهروهم، إجمالاً يغنى عن كل تفصيل، ويحمل إلى النفس معنى النعمة التي أنعم الله بها على المؤمنين، فقد كفاهم القتال بقوته وعزته، ولاسيما إذا قرنت تلك النعمة بما أصاب المؤمنين من الخوف والرهبة من إحاطة الأعداء بهم، فقد جاءوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وزلزلوا زلزالاً شديداً، ألا ترى أن هذا الوصف الدقيق لنفسية المؤمنين وقد أحيط بهم، وهذا الوصف الموحى المصور، المؤذن بأن اليأس من النجاة، كاد يستولى على النفوس، ثم رأى المحاصرون أنه قد انجلى الغم عنهم، ومضى الخوف إلى غير رجعة، وأن ذلك قد تم بقدرة الله وحده، وأنهم قد كفوا القتال، وصاروا آمنين في ديارهم - ألا ترى ذلك جيداً بشكر المنعم على تلك النعمة، التي تزول النعم بجوارها.

وأطالت الآيات في الحديث عن هذه العوامل التي تفتت في عضد الجيش الإسلامي، والتي كانت خليقة أن تنزل به أقسى الهزائم، وتلك هي المعوقون والمنافقون، وكأنه بذلك يريد أن يتدبر هؤلاء موقفهم، وأن يروا قدرة الله التي جلبت النصر وحدها، من غير أن يشترك المسلمون في قتال، فلعل في ذلك تطهيراً لقلوبهم، وسبباً لعودتهم إلى الطريق السوي، وخير السبل، وقد تحدث القرآن طويلاً عما يعتلج في نفوسهم، وما يبثونه من أسباب الهزيمة في صفوف المسلمين، وحكى معتقداتهم ورد عليها في حزم. فكان

حديث القرآن عن هذه الغزوة حديث المصلح الذي يضع هدف إصلاح نفوس الأفراد وتطهير الجماعة من أسباب ضعفها وخذلانها. وإلى هذا يهدف القرآن حين يتحدث عن الغزوات، يعنى بالنهوض بالفرد، فتطهر نفسه، ويؤمن بالله أعمق الإيمان وأصدق، وبالجماعة فتتلافى وسائل نقصها، وتخلص مما يقعد بها دون الوصول إلى غايتها من النصر المؤزر والاستقرار والأمن، يرفق فى سبيل ذلك حيناً، ويقسو حيناً آخر.

الإنسان المثالى

أجمل الله الإنسانية المثالية وما ينتظرها من الجزاء المادى والروحى فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)﴾ (البينة ٧، ٨). فالإنسان المثالى هو ذلك الذى يؤمن ويعمل صالحاً، وقد فصل القرآن فى مواضع كثيرة هذا العمل الصالح فممنه ما يرتبط بالله، وممنه ما يرتبط بالناس، وممنه ما يعود إلى الشخص نفسه.

أما ما يرتبط بالله فأن يؤدى فرائضه فى محبة وخشوع، ويصلى ذاكراً جلاله، وعظمته، وإذا أصغى إلى آيات الله سجد لما فيها من عظمة وحكمة قائلاً: ﴿سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (الإسراء ١٠٨). لا يغيب ذكر الله عنه، مفكراً فى خلق السموات والأرض، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾ (ال عمران ١٩١ - ١٩٤). وفى ذكر الله ورقابته دائماً إحياء للضمير الإنسانى، وإقامة هذا الضمير رقيباً على أعمال المرء، فلا يفعل منفرداً ما يخجل من فعله مع الجماعة، وإذا حى الضمير، وقويت شوكته، كان للإنسان منه رقيب على نفسه، فى كل ما يأتى من الأمور وما يدع، وتربية الضمير هو الهدف الرئيسى للتربية، والغرض الأول الذى يرمى إليه المربيون.

أما صلته بالناس فصلة رفق وحب وعطف، يقى بالعهد إن عاهد، ويؤدى الأمانة إن أوتمن، ويربأ بنفسه عن اللغو، فلا يضيع وقته سدى فيه، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتغى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ

وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ (المؤمنون ١-٨). ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ
وَالْمَخْرُومِ ﴿٢٤﴾﴾ (المعارج ٢٤، ٢٥). ويوتون: ﴿الْمَالُ عَلَىٰ حُبِّ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ
وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ (البقرة ١٧٧). يأمرون بالصدقة والمعروف،
ويصلحون بين الناس، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا﴾ (النساء ١١٤). وهو هنا لا يكتفى بأن يكون المرء صالحاً في نفسه، بل لا بد أن
يكون عضواً نافعا في جماعته، وقوة عاملة فيها، فهو يتصدق، ويأمر غيره
بالصدقة، ويصلح بين الناس ويأمر غيره بالإصلاح بينهم، ولا يكتفى القرآن بأن
يقف المرء موقف الواعظ المرشد فحسب، بل من الواجب أن يأخذ بحظه من الخير
الذي يدعو إليه ولهذا وبخ القرآن أولئك الذين يدعون إلى الخير، وينسون أنفسهم
في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ٤٤).
والإنسان الكامل هو ذلك الذي يبذل جهده في خدمة جماعته، ويعمل على
النهوض بها، فلا يعيش كلاً، ولا يقبل أن يرضى غروره، بأن يسمع ثناء على
ما لم يفعل، أما هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُخْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا
تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَارَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (ال عمران ١٨٨).

ومن أكبر سماته أنه يدفع السيئة بالحسنى، فيولف القلوب النافرة، ويستل
الخصومة من صدر أعدائه، ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا
الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا
ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ (نملك ٣٤، ٣٥). وأنت ترى القرآن يعترف بأن هذا الخلق لا
يتصف به إلا من كان ذا قدم عظيمة في التفوق في مراتب الكمال، وذا حظ
عظيم منه. ويتصل بهذه الصفة كظم الغيظ والعفو عن الناس، وهما مما مجد
القرآن إذ قال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ (ال عمران ١٣٣، ١٣٤). ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ
وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى ٣٧).

وهو عادل، يقول الحق ولا يحدد عنه، ولا يصرفه عن قوله ذو قرابة أو عداوة،
﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (الأنعام ١٥٢). ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقُومٍ عَلٰى أَلَّا تَعْدِلُوا اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة ٨).

قد طهر قلبه، فلا يحمل لأحد غلا ولا موجدة، ويسأل الله السلامة من شر ذلك
قائلاً: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر ١٠).

ولا يسعد إنسان في حياته، إذا كان يحمل في قلبه ضغناً على أحد، أو حسداً أو غلا، فإن ذلك يقلب الحياة شقاء، وينغصص على المرء أيامه ولياليه فضلاً عن ضياع الوقت، وما أجمل الحياة إذا طهر قلب المرء، وبعد عنه ما يتوذه من هموم الحقد والحسد، حينئذ يعمل في طمأنينة، ويجاهد في سكينة.

وحسنت صلته بجاره ذى القربى والجار الجنب، ولذلك أثره في سعادة الحياة، والطمأنينة فيها، ويعامل الناس برفق، فلا يغرر بمنصب يظفر به، ولا مال يحويه، ولا يدفعه ذلك إلى تعاضم أو كبر، ولا يخرج به ما يظفر به إلى البطر والمرح، ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨)﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾ (لقمان ١٨، ١٩).

يرد التحية بأحسن منها، ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (النساء ٨٦). ولا يدخل بيتاً غير بيته حتى يستأذن، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧)﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَازْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)﴾ (النور ٢٧، ٢٨). ويجلس مع الناس في رفق. فلا يجد غضاضة في أن يفسح لغيره من مجلسه، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة ١١).

وإذا كانت السخرية بالغير، بأى لون من ألوان السخرية، مدعاة إلى تأصل العداء، وتقطع الصلات، كان الإنسان النبيل هو من يجتنب السخرية من الناس، وعيبيهم، ولمزهم بألقاب يكرهونها، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات ١١).

ومن أهم أخلاق الإنسان المثالى الصبر، وقد أثنى به الله كثيراً، وحث عليه كثيراً، وجعله خلة لا يظفر بها إلا الممتازون من الناس، ذوو الحظ الكبير من الرقى الخلقى، قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٥٧)﴾ (البقرة ١٥٥-١٥٧). وقال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا دُكِّرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَتْهُمْ (٣٥)﴾ (الحج ٣٤، ٣٥). وقال: ﴿إِنَّمَا يُوقِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر ١٠).

ومما يرتبط بالصبر شديد الارتباط مقابلة الأحداث ونوازل الحياة، بل ما تأتي به من سعادة وخير، في هدوء وطمأنينة، فلا يستقره فرح، ولا يثيره حزن ولا ألم، ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد ٢٣).
 ويسير في إنفاقه سيراً مقتصداً لا تقتير فيه ولا تبذير، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان ٦٧)، ﴿وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾ (٢٦) ﴿إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَكْسُورًا (٢٩) ﴿(الإسراء ٢٦ - ٢٩). وهو لذلك يأكل ويشرب، ويستمتع، في غير إسراف ولا خيلاء، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف ٣١). ويأخذ بحظه من الحياة الدنيا في غير تكالب عليها، ولا جعل الاستمتاع بها الهدف الأساسي في الحياة.

ويكره القرآن للمرء أن يتبجح بالقول، فيدعي أنه سيفعل ويفعل، ثم تنجلي كثرة القول عن تقصير معيب في العمل، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ (الصف ٣، ٢).

ويحسن أن أوجه النظر هنا إلى أن القرآن لا يبرئ الإنسان من فعل السوء، ولا ينزعه عن الإثم، ولكن الذي يأخذه عليه هو أن يتمادي في العصيان، وَيَصِرْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُ، فلا يندم، ولا يتوب، أما أبواب الجنة فمفتحة لأولئك ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ وَلَا يُمْسِكُوا عَلَيْهِمْ فَسَيَكْفُرُوا لَهُمْ لِمَ تَقُولُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ (١٣٦)﴾ (ال عمران ١٣٥، ١٣٦).

وهذه بعض آيات من القرآن يصف بها أولئك المثاليين، إذ يقول: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمُ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَكَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ

لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٧) ﴿ (الفرقان ٦٣ - ٦٧).

الحياة الدنيا

سمى القرآن الحياة الدنيا لعباً ولهواً، وتحدث في مواضع كثيرة عن مصير هذه الحياة، وأنها مهما بلغت من الجمال والزينة والبهاء فإنها صائرة إلى الفناء والزوال، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطَنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس ٢٤). ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَتَلَوْهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾ (الكهف ٨، ٧). وأنها إذا وزنت بالآخرة ليست سوى متاع قليل ذاهب، ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (الرعد ٢٦). ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (غافر ٣٩). ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة ٣٨).

وإذا كان القرآن قد قلل من أمر هذه الحياة فإنه يتحدث عن حقيقة لا مجال للشك فيها، لأن عمر الإنسان مهما طال، له نهاية لا ريب فيها، وهو عمر قصير محدود، وليس هو بالنسبة للخلود في الآخرة سوى فترة قصيرة عابرة، وليس ما يظفر به المرء في هذه الفترة القصيرة العابرة من متعة سوى قدر ضئيل محدود، إذا قيس بهذا النعيم الخالد، والسعادة الدائمة في جنة الخلد.

وليس معنى التقليل من متاع الحياة الدنيا التزهيد فيه، أو صرف الناس عن المتعة به، فإن الدين إنما جاء الكثير من أحكامه لتنظيم شؤون هذه الحياة والرقى بها إلى مستوى رفيع، وإجادة استغلال ما أودع في هذه الطبيعة من القوى، والقرآن نفسه يدعو إلى الاستمتاع من غير إسراف، ويعجب ممن يحرم طيبات من أحل الله، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف ٣٢). ولا يدعو الناس إلى أن ينصرفوا عن متع الحياة وما فيها من جمال ولذة. ولكن القرآن يعنف أولئك الذين يجعلون كل همهم الظفر بمتع تلك الحياة، ونسيان الحياة الآخرة، والانصراف التام عن التفكير فيها، وفي الحق أن

(١) الجرز: أرض غليظة يابسة لا تبت فيها.

ضلال هؤلاء واضح الوضوح كله، فإنهم قد اشتروا متاعاً قليلاً ينفد، بنعيم خالد مقيم، فلا عجب إذا رأينا القرآن يفند رأى هؤلاء قائلًا: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (إبراهيم ٣). ويقول: ﴿بَلْ تُوْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرًا وَأَنْتُمْ (١٧)﴾ (الأعلى ١٦، ١٧). ويهدد من يجعل همه تلك الحياة بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفًا إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)﴾ (هود ١٥، ١٦). ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخْفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (البقرة ٨٦). ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (الإسراء ١٨). ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ هُمْ يُرِيدُونَ فِي حَيَاتِهِمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (الأحقاف ٢٠). ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَوْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥)﴾ (الجناب ٣٤، ٣٥).

والقرآن بذلك كله يعنف رجلين: أحدهما قد كفر باليوم الآخر، وأنكره، واعتقد أن ليس ثمة سوى هذه الحياة الدنيا، فاغتر بها، ونسى اليوم الآخر وما فيه، وذلك هو المقصود بمعظم هذه الآيات، وقد ذكرنا أن الإيمان باليوم الآخر، ركن أساسي من أركان الدين، إذ الإيمان به يدفع إلى العمل الصالح رغبة أو رهبة، وثانيهما رجل يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة، ويجعل همه كله أن يظفر من الحياة الدنيا بأوفى نصيب، ومثل ذلك الرجل جدير ألا يحكمه ضميره، فيعمل ما لا يرضيه في سبيل الفوز بدنياه، فيبعد بقدر كبير عن قوانين الإنسانية السليمة، ولا يعنيه إلا أن ينال مأربه وأماله، وصور لنفسك تاجرًا أو صانعًا أو مستخدمًا لا يعنيه سوى الظفر بأماله في الغنى، ولا سلطان عليه من الإيمان بأنه محاسب يوم القيامة، وخيل لنفسك ما يرتكبه من الآثام، وما يلم بعمله من النقائص، وما قد يرتكبه من ألوان الغش والتزوير، ما دام كل هذا يدنيه من أمله في الثروة وبلوغ المناصب السامية، فالإيمان باليوم الآخر هو الرقيب الذي يدفع الإنسان إلى محاسبة نفسه، قبل أن يحاسب يوم الدين، وبه تستقيم شئون الحياة، ويخشى الناس الجزاء العادل إن هم فرطوا، أو أساءوا.

على هذا الوجه نفهم هذا العنف الموجه إلى هؤلاء الذين يؤثرون بحبهم وجهدهم تلك الحياة الدنيا، ولا نفهم أن القرآن يدعو إلى كراهية الحياة الدنيا، والزهد فيها

والانصراف بالكلية عنها، إلى حيث العكوف فى المساجد لعبادة الله والصدوف عن الدنيا وزينتها، لانفهم أن القرآن يدعو إلى ذلك، ولا أن ذلك من أهدافه، كيف، وهو - كما قلنا - إنما جاء كثير منه لتنظيم شئون هذه الحياة. والمثل الكامل لصلة المرء بالحياة الدنيا والآخرة هو قوله سبحانه: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن خَلَقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)﴾ (البقرة ٢٠٠-٢٠٢). فالمثل الأعلى القرآنى هو أن يظفر المرء بدنيا حسنة فيها متعة وفيها سعادة، وأن يظفر بآخرة سعيدة، فيها متعة كذلك، وفيها سعادة، وقد عجب القرآن - كما رأينا - من هذا الذى يحرم طيبات الله والاستمتاع بها، ودعا إلى الأخذ بنصيب من الحياة الدنيا فى قوله: ﴿وَاتَّبِعْ فِيمَا أَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القمر ٧٧). وترك الفساد فى الأرض، وكبح جماح النفس الطاغية التى يزدهيها الغنى، ينبع من الإيمان باليوم الآخر، الذى فيه يُحاسبُ الإنسانَ مالكُ يوم الدين.

عبادة الأوثان

جاء الدين الجديد يدعو إلى أفراد الله بالعبادة، وترك عبادة الأصنام التى أشركوها له، وزعموا حيناً أنهم إنما يعبدونها، لتقربهم إلى الله زلفى، وقد فند القرآن هذه العقيدة تفنيذاً قوياً، وبرهن على ضلالهم فى عبادتها برهنة لا تدع مجالاً للشك فى تفامة هذه الأوثان، وأنها لا تصلح أن تكون إلهاً يعبد.

لقد وجه القرآن نظرهم إلى أن هذه الأصنام أقل منهم، فإن لعابديها أرجلا يمشون بها، وأعيناً يبصرون بها، وأذاناً يسمعون بها، أما هذه الأوثان فجائمة لا تستطيع الحركة والانتقال، ولا تستطيع البطش والدفاع، ولا تبصر، ولا تسمع، ﴿الَّهُمَّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (الأعراف ١٩٥). ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ (فاطر ١٤).

أو يليق بالعاقل أن يعبد من دونه، ومن يراه عاجزاً لا يستطيع شيئاً؟! ولم يعبد المرء إلهاً لا يسمع دعاءه، ولا يستطيع أن يجيبه إلى مبتغاه، ولا يقدر على أن يرد عن عابده أذى نزل به، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (الإسراء ٥٦). وإذا استنصره لم يجد عنده ما يؤمل من النصر، والمرء عند الشدائد يلجأ إلى الله، ويطلب منه المعونة والمساعدة، فماذا يصنع بعبادة إله لا يمدده

بهما، بل إن هذه الأوثان لا تستطيع أن تحمي نفسها، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَضْرِكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَتَضَرَّوْنَ﴾ (الأعراف ١٩٧). فهي إذا حجارة لا تنفع ولا تضر، وعابدها ﴿يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (الحج ١٢). وأى ضلال أشد من عبادة من لا يملك الضر والنفع؟ وماذا بقى لهم من صفات الآلهة أخلقوا شيئاً في السموات والأرض؟ بأيديهم الموت والحياة والبعث؟ لا، لقد ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (الفرقان ٣). والقرآن يتحداهم أن يدلوه على شيء خلقه هؤلاء الشركاء في الأرض أو في السماء، فيقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ (فاطر ٤٠). ثم يمضى في التحدى مؤكداً لهم أن أولئك الذين يدعونهم شركاء لله لا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً، ولو ظاهر بعضهم بعضاً، وتعاون بعضهم مع بعض، برغم حقارة الذباب وضعفه، بل إن هذا الذباب الحقيقير الضعيف لا يستطيعون استخلاص شيء منه، إن سلبهم إياه، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْنُبُهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ (الحج ٧٣). وإذا كانوا لم يخلقوا شيئاً، فهل يملكون من شيء في السماء أو الأرض؟ لا. إنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (سبا ٢٢). ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (فاطر ١٣).

وإذا كانت هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر، ولا تجلب النصر، ولا تكشف الضر، ولا تملك من أمر نفسها شيئاً، ولا تخلق شيئاً، وليس بيدها حياة ولا موت، بل هي أقل من عابديها قدراً، إذ هي لا تستطيع الحراك، ولا تطبيق الدفاع عن نفسها - فقد انمحت عنها حقيقة الألوهية، ولا يعدو الأمر بعدئذ أن تكون المسألة أسماء وضعوها، من غير أن تدل هذه الأسماء على آلهة حقيقية لها ما للآلهة من سلطان وقوة، وتستحق العبادة رغبة أو رهبة، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الدُّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (النجم ١٩-٢٣).

وها هو ذا يتهمك بهم تهكماً لانعما عندما منحوا هذه الأسماء التي لا حقيقة لها، صفة الشفعاء الذين يملكون لهم نفعاً عند الله، إذ يقول: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ

وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿يونس ١٨﴾. فأى تهكم مرّ يثيره قوله: ﴿أَتَسْتَبُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

والقرآن يثير فى نفوسهم - فضلا عما أثاره من الزرابة بهذه الآلهة، وأنها لا تستحق سوى الإهانة والاحتقار - الخوف والفرع من سوء المصير، حين يصور لهم يوم القيامة، وما ينالهم فيه من خيبة الأمل، عندما يرون هذه الآلهة التى اتخذوها ليعتزوا بها، قد أنكرت أن تكون أهلا لعبادتهم، ويشهدون عليهم بأنهم لم يكونوا عقاء فى هذه العبادة. فيقول: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)﴾ (مريم ٨١، ٨٢).

والقرآن بما عرضه من هذه الأفكار قد أثار فيهم احتقار تلك المعبودات، واحتقار الرضا بها آلهة، لأن عاقلا لا ينزل إلى درك عبادة من هو أقل منه، والخوف والحب لما لا يساوى شيئا، وأثار فيهم الخوف من مصير مظلم إن تمادوا فى تلك العبادة لمن سينقلب عليهم ضدا يوم القيامة.

العقائد والعبادات

من أهم العقائد التى وردت فى القرآن عقيدة الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وقد بينا كيف عرض القرآن هذه العقائد.

أما العبادات فمنها الصلاة، وقد أكثر القرآن من الحديث عنها، وعدّها ركنا مؤكداً من أركان الدين، حددت له أوقاته، وليس ثمة ما يبيح تركها، حتى أشد ألوان الخوف فى الحرب، ذلك لأن ﴿الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ (النساء ١٠٣).

والقرآن يجعل الصلاة سمة من سمات المؤمنين، ومظهراً من مظاهر التقوى ودليلاً على تمام الخضوع لله، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ (البقرة ٣، ٢). ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ (فاطر ١٨). ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (البينة ٥). ولذا كان من تمامها الخضوع فى أدائها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِعُونَ﴾ (المؤمنون ٢، ١).

وإذا كان للصلاة هذه المنزلة الرفيعة من الدين، فقد أكثر القرآن من الأمر بها، والحث عليها، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة ٤٣). ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة ٢٣٨). ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (إبراهيم ٣١). ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه ١٣٢). وأثنى على

وذكر الله فى الصلاة عدة مرات فى الليل والنهار تدفع إلى تقواه، والوقوف عند حدود ما أمر به ونهى عنه، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت ٤٥). وفى ذكر الله فى الصلاة تذكر لقدرة الباهرة، فيلجأ إليه المرء مستعيناً بهذه القدرة على تحقيق ما يصبو إليه من أمان وآمال، ولذلك قرنها بالصبر، فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. والاستعانة بقدرة الله توحى إلى النفس بأن المرء ليس وحيداً فى جهاده فى تلك الحياة، فيقوى ذلك من روجه المعنوية، وتقوية هذه الروح أساس النجاح والظفر، فإذا انضم إليها الصبر، زال اليأس، وامتلاً القلب بالأمل.

تلك هى الدوافع التى وضعها القرآن إلى جانب الصلاة، لتحث عليها، وتدفع إلى إقامتها. وعد كريم من الله بالثواب على أدائها، وهى مظهر لشكر الله على نعمه وأفضاله، والشكر على النعمة تدفع إليه الإنسانية المهذبة ويدفع إليه العقل السليم، ثم إنها بصورها المتعددة مظهر هذا الشكر عند الأمم السابقة، ولا يقف فضل الصلاة عند هذا الحد، بل هى ينبوع لطهارة النفس، ويعدها عن الشرور والمآثم، وفيها تقوية للمرء على مجابهة الحياة مزوداً بقوة معنوية، ينجح بها فى الحياة، أولاً يستحق هذا ينبوع العذب لتهديب النفس ونجاحها أن يحافظ المرء عليها، وأن يؤديها موفياً أركانها فى تودة واطمئنان، ولعل هذا هو السرفى أن القرآن يستخدم كلمة «يقيم» فالمادة تدل على الدوام والاستمرار، كما تدل على معنى التقويم والتهديب.

ولم يتعرض القرآن لتفصيل هيئة الصلاة، تاركاً ذلك لفعل رسول الله، ولكنه عرض بعض أحكامها فى إجمال، كقصر الصلاة، وصلاة الخوف، والوضوء.

وتقترن إقامة الصلاة فى القرآن غالباً بإيتاء الزكاة، وقد جعلهما القرآن معاً مظهرين من مظاهر الإسلام، ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلٌّ مَرْصِدٌ لِّان تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ (التوبة ٥). ولا سبيل لكم عليهم، لأنهم «إخوانكم فى الدين».

ويقرر القرآن غريزة الملكية، ويعرف ما لها من آثار فى تصرفات الإنسان وهو من أجل ذلك دعا هذه الأموال التى يبذلها المرء على سبيل الصدقة، دعاها قرصاً يقرضه المتصدق لله، ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ (التغابن ١٧). كما أضاف الأموال إلى أصحابها فى قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (التغابن ١٥). وقرر كسبنا لها فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ (البقرة ٢٦٧).

وفى ذلك تقرير لملكية الإنسان لما تحت يده؛ وليست غريزة الملكية بالضعيفة ولا الواهنة فى نفس الإنسان، بل هى قوية عنيفة يقرر القرآن عنفها فى قوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا﴾ (الإسراء ١٠٠). وقوله: ﴿وَأَخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ (النساء ١٢٨). ولذلك عالج القرآن هذه الناحية النفسية علاجاً مستفيضاً، كى تسمح النفس بما تملك، وتجد عن رضا ورغبة.

وإذا كانت غريزة الملكية هى التى تدفع إلى الشح، فقد أثارها القرآن إلى الصدقة مؤكداً أن ما سينفقه المرء فى الصدقة اليوم، سيخلفه الله عليه غداً وكأنه يوحى إلى الإنسان بأنه إذا تصدق وزكى فلن يخسر شيئاً، فلا داعى إلى الشح والإمساك، فضلاً عما فى الصدقة من استجابة إلى داعى الإنسانية، واتصاف بصفة الكرم وهو من صفات المروءة، ﴿قُلْ إِنْ رَّبِّي يَسْتَطِيعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبا ٣٩). بل إنه يخلفه مضاعفاً، ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد ١٨). ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكْثُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصْبِحْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة ٢٦٥). ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ جَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٦٦). ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُؤَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُؤَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (الروم ٣٩). وفى ذلك تحريك لغريزة حب الذات التى تعمل على جلب الخير للنفس، فلا جرم كان وعداها بمضاعفة الجزاء مغرياً لها بالصدقة والزكاة، بل إن الجزاء لا يقف عند حد العوض المضاعف، ولكن الله سيوفى المتصدقين أجرهم، ويتولى هو مكافأتهم، وحسبك جزاء الله جزاء يرضى النفس ويكفيها، ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٢٦٢). ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٢٧٤). ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد ١١). ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ١٥٦). وإذا كان الأمر كذلك فليست هذه الصدقة فى حقيقة الأمر سوى خير يعود نفعه على المرء نفسه، ﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تَنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢٧٢). ﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ

تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة ١١٠). وإذا كانت الزكاة والصدقة خيراً يجب اكتسابه، فمن الخير أن يستكثر الإنسان منه في هذه الحياة وأن يبادر إليه قبل أن تضيق الفرصة ولا تعود ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون ١٠). ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ (إبراهيم ٣١). وفي ذلك إثارة لغريزة الخوف، أن يضيع على المرء خير مأمول. ويمضي القرآن مخففاً من آثار غريزة التملك، فيذكر هؤلاء الذين بأيديهم المال أن الذي أعطاهم ذلك المال إنما هو الله، وهو الذي يطالبهم بأن يعطوا عباده الفقراء بعض ما أعطاهم هو من المال، فيقول: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (النور ٣٣). ثم يصل إلى الحقيقة، فيبين لهم أن هذا المال الذي تحت أيديهم إنما هو في الواقع مال الله، وأنهم ليسوا بأكثر من مستخلفين فيه، أعطاه إياهم لينفقوه حيث يرشدهم إلى مواضع إنفاقه، ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد ٧). وليس ما أعطيناه من مال سوى أحد الاختبارات التي اختبرنا الله بها، ليرى أنشكر أم نكفر، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاكُمُ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال ٢٨). وإذا كان المال في الواقع مال الله، فإن الشح به ليس من سمات الخير، ولا مؤذناً بفلاح صاحبه، أما ﴿...مَنْ يوقْ شَحْ نَفْسِهِ فَاوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر ٥).

ويجعل القرآن من صفات المؤمن المثالي أداء الزكاة، ويعدده عليها بخير ما يعد به من يعمل صالحاً، فيقول: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَفِيرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَخْرُومِ (١٩)﴾ (الذاريات ١٥-١٩). وفي اختيار كلمة ﴿الْمَخْرُومِ﴾ هنا ما يحرك في النفس الشفقة والرحمة والحنان.

واقترن طلب إيتاء الصدقة في القرآن بصفات إنسانية سامية، فنهى عن الرياء في أدائها، أو إتباعها بالمن والأذى، أو اختيار أردأ المال للتصدق به، وجعل أداءها في السر خيراً، حتى تخلص من الرياء، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (البقرة ٢٦٧). ﴿لَنْ تَأْلَمُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران ٩٢). ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (٢٦٣). يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ﴿البقرة ٢٦٣-٢٦٤﴾. أرايت تخير القرآن لكلمة صفوان، يدل بها على قسوة قلب هذا المتصدق الذي يتبع صدقته بالمن والأذى، أو ينفق رياء، فهو لا ينبعث إلى الصدقة بعامل الشفقة والرحمة، ولكن بعامل الغرور والزهو، ولا أريد أن أسرف في الحديث عن أسوء المن والأذى والرياء، فهي من الوضوح بمكان، ويقول في الحديث عن كتمان الصدقة: ﴿إِنْ تُبْذُوا الصَّدَقَاتِ فَبِعَمَاءٍ هِيَ وَإِنْ تُخْفَوُهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة ٢٧١).

هذا وقد توعد القرآن أولئك الذين لا ترق قلوبهم للإنسانية، ولا يعطفون على البائسين والمحرومين، وقرنهم بهؤلاء الذين لا يؤمنون بالله، وكأنما الكفر بالله قرين الكفر بالإنسانية، قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَةَ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِمَا حِسَابِيَةَ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ (٢٩) خَذُوهُ فَعَلُوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤)﴾ (الحاقة ٢٥-٣٤).

أما الصوم فلم يطل القرآن الحديث عنه، واقتصر على الحديث عن بعض أحكامه، ولكنه لم يترك بيان ما يحفزنا إلى الصوم، فأثارنا إليه بأننا لم ننفرد بأدائه، بل كان مفروضاً على من سبقنا، وهو ينبوع من ينبوع تقوى الله بما فيه من إمسك النفس عما تشتهي، والتمكين للضمير كي يقوى ويشد، كما أن اختصاص شهر رمضان بهذه العبادة، لما اختص به من ميزة نزول القرآن فيه: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة ١٨٥)، فكان هذا الشهر جديراً أن يتقرب فيه إلى الله.

وتحدث القرآن عن الحج، فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران ٩٧). وانتشر في القرآن الأسباب الباعثة على أداء هذه الفريضة، فقال: ﴿وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حَتَّىٰ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ

المُخَيِّتِينَ (٣٤) ﴿الحج ٢٧ - ٢٤﴾. فالحج مفروض لهذه المنافع التي يحصل عليها من يشهدهونه في الأشهر الحرم، وأى منافع أكبر من انعقاد هذا المؤتمر الإسلامي الجامع يعرف فيه كل بلد ما يحتاج إليه البلد الآخر، ويعتقد بين المسلمين في أرجاء الأرض أعظم الصلات السياسية والثقافية والاقتصادية، فإذا انعقد هذا المؤتمر كل عام، تم الربط بين قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وكونوا قوة لها قيمتها وقدرها، ومن الميسور الانتفاع بأيام الحج في تحقيق هذا الهدف، إذا أحسن استغلال وقت الحج على وجه يحقق هذه المنافع التي أشار إليها القرآن، وفي الحج كذلك منافع اقتصادية واضحة لسكان البيت الحرام. وفضلا عن هذه المنافع الدنيوية، ذات الأثر البالغ في حياة الإسلام - تخلص النفوس في أيام الحج لذكر اسم الله فتخلع عن نفسها مظاهر هذه الحياة الدنيا، ويقف الحاج أمام الله عبدا قد تجرد من زخرف الدنيا وزينتها، ويومئذ يحاسب كل نفسه على ما قدم، وما يجب أن يفعل، وفي الحج تعظيم لحرمان الله وشعائره، يدفع إلى التقوى، ويحفز إلى تطهير القلوب، وهو الهدف المقصود من الحج، ﴿وَالْبُذُنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِئْتُمْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَتَأَلَّ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَتَأَلَّهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (الحج ٣٦، ٣٧).

وتحدث القرآن في مواضع عن الكعبة، فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (آل عمران ٩٦ - ٩٧)، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (آل عمران ٢٦). وإن بيتنا هذا شأنه جدير بأن يزوره المسلمون، ويعبدوا ربه عنده.

الأحكام

تقترن الأحكام في القرآن بما يدفع إلى العمل بها، أو ينهى عن اقترافها، فإلى جانبها مغريات تدفع النفس وتحثها، أو تخوفها وتحذرنا، معتمدة على التوضيح للسبب، أو الترغيب، والترهيب، وهذه بعض آيات عرضت بعض الأحكام، لنرى المنهج القرآني في هذا العرض. قال تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلِأُمَّةٍ مُؤْمِنَةٍ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة ٢٢١). ألا تراه قد قرن النهي عن الزواج من المشرك بما ينفر منه فمن هذا الذي يرضى أن يقاد إلى جهنم بينما الله يدعو إلى الجنة والغفران.

وهاك حكماً آخر، قال سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاغْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأْتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْتُمْ وَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَاقُوهُ وَيَشْرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة ٢٢٢-٢٢٣). فحذرنا من قربان النساء في ذلك الحين، بأننا نوذى أنفسنا إن فعلنا، ثم ذكرنا بأن ذلك نهى من الله الذي يجب تقواه، ولجأ إلى الإرهاب والترغيب، فأكد أننا سنلقى الله الذي نهانا، فكيف يكون المصير إن جئنا إليه، وقد فعلنا ما كان قد نهانا عنه، أما من أطاع واتقى، فبشره بمغفرة من الله ورضوان.

واقراً قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَنُعَلِّتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِضْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ طَلَّ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يَبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرْحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِيَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَقْضُوا لَهُنَّ إِنْ يَنْكِحْنَ أَرْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمَ أَرْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)﴾ (البقرة ٢٢٨-٢٣٢). فتأمل مزج الأحكام بهذه الإشارات الوجدانية، الدافعة إلى العمل أو المسببة للإحجام.

وقف عند نهيه للمطلقات أن يكتمن ما في بطونهن من أجنة فقال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (البقرة ٢٢٨). فانظر كيف عبر عن الأجنة بأنها ما خلق الله في الرحم، وكأنما كتبتها معاندة لله ومكابرة لا تليق، وكيف أثارهن إلى الاعتراف، موحياً بأن هذا الإنكار لا يتناسب مع الإيمان بالله واليوم الآخر، وكيف قرن الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان، وسمى المتعدى لحدود الله ظالماً، وجعل تبين حدود الله للقوم العالمين، ووصف الإمساك ضراراً بأنه اعتداء، وفاعله بأنه ظالم لنفسه، وختم الحديث عن هذه

الأحكام بأن الذى يؤمن بالله واليوم الآخر، يتعظ ويعمل بتلك القوانين، والعمل بها طهر وفلاح.

وختم القرآن أحكام المواريث بقوله: ﴿وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (النساء ١٢- ١٤). أو لا ترى أن الوصية من الله جدية أن تسمع وتطاع، وأنه إذا كان الوقوف عند حدود الله يؤدي إلى الخلود فى جنات تجرى من تحتها الأنهار، والخروج على الحدود يخلد فى النار، فجدير بالعاقل أن يقف عند تلك الحدود ولا يتعداها.

وبعد أن تحدث عن محرمات النساء فى الزواج، وما أحل زواجهن، قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)﴾ (النساء ٢٦- ٢٨). وإذا كان الله يبين لنا، ليهدينا سواء السبيل، وليتوب علينا، ويميل بمن يتبعون الشهوات إلى الرشد والخير، هذا مع أنه ليس فيما فرض عنت ولا مشقة، لعلم الله بما خلق عليه الإنسان من الضعف، إذا كان ذلك حقا، أفلا يجدر بالمرء أن يتقبل ما أباحه قبولاً حسناً، وينتهى عما نهى عنه.

وتأمل التوعد الشديد لمن يقتل مؤمناً عمداً، إذ يقول: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء ٩٣).

ولما تحدث عن بعض أحكام الوضوء والتميم، ختم ذلك بقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة ٦). وإن عملاً يطهر المرء، وبه تمام النعمة، جدير أن يؤديه المرء شاكرًا نعمة ربه.

وأصح إليه يصور أسواء الخمر والميسر فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ (٩١)﴾ (المائدة ٩٠- ٩١). وهكذا صور تلك الرذائل مفسدة لعلاقة المرء بالناس ولعلاقته بالله، فلم يقترفها وهى تقلب الحياة هكذا شقاء.

وبعد أن نهى عن قتل الصيد والمرء محرم بالحج قال: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ غَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (المائدة ٩٥). وتأمل ما يثيره فى النفس ذكر انتقام الله وعزته، ممن يعود فيفعل ما نهى عنه.

تلك أمثلة قليلة نتبين منها النهج القرآني في عرض الأحكام، وكيف تصطبح هذه الأحكام بما يدفع النفس إلى قبولها والاطمئنان إليها، وإذا كان الغالب في الإنسان أن يقبل على العمل رغبة أو رهبة، فقد عمد القرآن إلى ذلك، فيعد ويوعد، ويبشر وينذر، يثير في النفس غريزة حب الذات التي تدفع المرء إلى عمل ما يعود عليها بالخير والفلاح، ويثير غريزة الخوف من مصير مظلم شقي، وهكذا اعتمد القرآن على الغرائز الثابتة في الإنسان، كي يقوده إلى ترك الشر وفعل الخير، وكل ذلك في أسلوب متسق موسيقي تتخبر فيه اللفظة الموحية بالمعنى المراد، وتأمل لذلك اختيار كلمة أم عند عد المحرمات من النساء، وكلمة والدة عند عد من يرضع الطفل، وبذلك كله اكتسبت الأحكام في القرآن حياة وقوة، وكان لها تأثيرها في النفس في ناحية صياغتها ومنهجها، وبذلك كله امتاز القرآن من كتب القوانين الجافة، وكان له من الأثر في النفوس ما ليس لهذه الكتب في هداية الناس وقيادتهم إلى الخير.

مظاهر الطبيعة

دعا القرآن في مواضع شتى إلى التفكير فيما يحيط بالإنسان من مظاهر الكون، لأن هذا التفكير يدفع إلى إجلال خالقه، والإيمان العميق بقدرته وحكمته، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ١٦٤)، وأثنى على أولئك الذين تدفعهم مظاهر الكون إلى التفكير فيها، لإدراك ما أودع فيها من أسرار، وما تدل عليه من أن مودع هذه الأسرار عليم قدير، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ (آل عمران ١٩٠، ١٩١). ونعى على هؤلاء الذين يمرون بهذه المظاهر، فلا تسترعى انتباههم، ولا تدفعهم إلى التدبر، والتفكير ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج ٤٦). ﴿وَكَأَيُّنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف ١٠٥).

ولأن القرآن كتاب دين اتجه، وهو يتحدث عن مظاهر الطبيعة، إلى تلك الناحية التي تقود إلى الإيمان بالله، وقدرته التي لا يعجزها شيء، ووجه النظر إلى أن كثيراً من تلك المظاهر يقود إلى الإيمان بالبعث والحياة الثانية.

فهو يوجه النظر إلى قدرة الله في خلق السموات والأرض إن يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُنْسِكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتْمَا إِنَّ أَمْسِكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾
(فاطر ٤١). ﴿وَيُنْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحج ٦٥).
﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ
فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ النَّمْرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِتَّجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ
صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَّضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾
(الرعد ٢-٤). ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَبَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَاتٍ
وَتَضْرِيغِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ١٦٤). ﴿إِنَّ
رَبِّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ
حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف ٥٤). ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي
لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَتَّارًا حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (٣٩) لَا
الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ (يس ٣٧-٤٠).
﴿أَلَمْ يَرْوُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُنْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل ٧٩). ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ (الروم ٢٥). ﴿أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِنَّ اللَّهَ بَلَّ
هُمُ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ
بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِنَّ اللَّهَ بَلَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾ (النمل ٦٠، ٦١). ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا
أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا
فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا
مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾ (الأنبياء ٣٠-٣٣). ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خَلَقْتَ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
رَفَعْتَ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبْتَ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِّحْتَ (٢٠)﴾ (الغاشية ١٧-٢٠).
﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (الفرقان ٦١). ﴿أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى
السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧)﴾ (ق ٦-٧). فهو في كل هذه الآيات يدل بمظاهر الطبيعة على

قدرته، وهو من أجل ذلك يوجه النظر إلى السموات والأرض وما فيهما، طالباً التدبر والتأمل، لنصل بذلك إلى الإيمان بقدرته وجلال سلطانه، ولا أريد أن أطيل ببيان ما فى هذه المظاهر من دلالة على تلك القدرة البالغة، فالآيات واضحة لا عناء فى تفهمها.

وفى التأمل فى مظاهر الكون، فضلاً عن الإيمان بقدرته، دعوة إلى عبادته، وهى دعوة مقرونة بأسبابها ودواعيها، والقرآن من أجل ذلك يقرن هذه المظاهر بالحديث عما فى خلقها من نعم يسعد بها الإنسان، وفى توجيه النظر إلى هذه النعم تحريك الطبيعة الإنسانية النبيلة إلى عبادة خالق تلك النعم ومسديها، فشكر الجميل سجية من سجايا الإنسان الكريم، واستمع إلى القرآن يعدد النعم قائلاً: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)﴾ (يس ٣٣ - ٣٥). ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢)﴾ (يس ٤١، ٤٢). الله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النَّهْيِ (٥٤)﴾ (طه ٥٣، ٥٤). ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مَقْرِنِينَ (١٣)﴾ (الزخرف ١٢، ١٣). ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَتَابِعِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (الملك ١٥)﴾. ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)﴾ (نوح ١٩، ٢٠). أو ليس فى تذليل الأرض وتمكيننا من الانتفاع بها، ما مهد لنا سبيل الحياة عليها، والانتفاع الكامل بها؟ ويذكر نعمته فى تمكيننا من الأرض، ننتفع بها كما نشاء، فيقول: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (الأعراف ١٠)﴾. ويوجه نظرهم إلى السماء وما فيها من زينة وإلى الأرض وما ينبت بها من زرع بهيج، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ (١١)﴾ (ق ٦ - ١١). ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ (السجدة ٢٧)﴾. ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾ (التازعات ٣٠ - ٣٣). ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالرِّيَاقَ وَالنَّخِيلَ
وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ (النحل ١١٠، ١١١). ﴿الَّذِي جَعَلَ
لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى
(٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤)﴾ (طه ٥٣، ٥٤). ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ
لِتُوقِحَ فَنَأْتِلُنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر ٢٢). وإلى نعمة خلق
الشمس والقمر، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ صَيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِ
وَالْحِسَابِ﴾ (يونس ٥). ونعمة خلق النجوم والكواكب، فهي زينة وجمال، تزدان بها
السماء في الليل، ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ (الصفوات ٦). ﴿وَرَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا﴾ (فصلت ١٢). وهي أعلام يهتدى الناس بها في الظلمات، ﴿وَهُوَ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام ٩٧).
وأكثر القرآن من توجيه النظر إلى ما في اختلاف الليل والنهار من نعمة على
الإنسان، وإلى ما خلق له الليل من الهدوء والاستقرار والسكن فيه، وما خلق له
النهار من الجهاد في سبيل العيش، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ
مُبْصِرًا﴾ (يونس ٦٧). ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ (القصص ٧٣). ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (١١)﴾ (النبا ١١٠، ١١١). وإلى
نعمة النوم، إذ قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَافِكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾ (الروم ٢٣). ولما في اختلاف الليل والنهار من نعمة السكون
استعدادا لطلب الرزق نهارا، تساءل القرآن موجها النظر إليها في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ
إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ يُغْشِيكُمْ
فِيهِ أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾ (٧٢)﴾ (القصص ٧١، ٧٢).

ويتخذ القرآن من مظاهر الطبيعة وسيلة لإقناعنا بالبعث، فهذه الأرض
الهامدة لا يلبث المطر أن ينزل عليها حتى تحيا وتخضر وتثمر، وهذه الظاهرة
نراها بأعيننا في كل حين، تقرب إلى أذهاننا فكرة الحياة بعد الموت، وقد كرر
القرآن ذلك المعنى حتى تقبله النفس، ويثبت فيها، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ
يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف ٥٧). ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا
فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (ماطر ٩). ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً
فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ

يُخْبِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ (الحج ٦٥). ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنك تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخْبِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت ٣٩).

ومن ذلك يبدو أن مظاهر الطبيعة التي نراها بأعيننا، قد وجه القرآن النظر إليها، ليصل بها إلى تثبيت الإيمان في النفس إيمان منشؤه الاقتناع ويدعمه الحب الذي يدفع إلى العبادة. وإن ما يدركه العلماء كل يوم مما أودع في الطبيعة من أسرار، ليزيد النفوس يقينا بقدرة الخالق وحكمته. والقرآن يتخذ ما عليه الكون من نظام دقيق حجة على وحدانية الله، ودليلا على تفرد بال صنع والإتقان، فيقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء ٢٢). ولا جرم يفسد النظام، إذا كان يدير الكون إلهان، ويشعر كل منهما بالقوة والسلطان، وإذا كان الله هو المنفرد بخلق السموات والأرض فلا معنى لأن يشرك به سواء ممن ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْنَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ صُغْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ (الحج ٧٣، ٧٤).

المدح

أثنى الله على نفسه بما هو له أهل، وبهذا الثناء الحق يثنى عليه من يتقدم إليه بالعبادة، وفاتحة الكتاب التي تتلى في الصلاة، كلها مدح له وثناء، مدح له بالعظمة والجلال، فهو رب العالمين، وصاحب النعمة عليهم بالقليل والكثير، وبأنه السيد ذو السلطان يسألهم عن تصرفاتهم يوم الدين. ولا تخلو صفحة في القرآن من ثناء على الله ومدح له، وذلك طبيعي في كتاب جاء ليوجه الناس الوجهة الصحيحة في عبادة الله وتوحيده.

وأثنى القرآن على محمد ثناء جمًّا، فجعله ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم ٣-٤). ومن أهم ما أشاد به القرآن أخلاقه الكريمة، وقد أكد ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ (القمم ٤). كما كان خلق الرفق واللين من بين الصفات التي خصها القرآن بالحديث عنها، إذ قال: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران ١٥٩). فبالرفق تملك قلوب الأتباع، ويُنال صادق مودتهم.

ومدح القرآن أصحاب محمد، وكان من أهم ما وصفهم به التراحم بينهم، والشدّة على أعدائهم، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح ٢٩).

ومدح من آمن واتبع الرسول، فوصفهم حيناً بأنهم على الهدى، فقال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ (البقرة ٢ - ٥). وبأنهم أولو الألباب إذ قال: ﴿فَسِئْرَ عَبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨)﴾ (الزمر ١٧، ١٨). وبأنهم كالسميع البصير الذي يهديه سمعه وبصره، على عكس أولئك الذين لا يتبعون أحسن القول: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود ٢٤). وجعل القرآن للمؤمن نوراً يمشى به فى الناس، فإنه يهتدى بهذا النور إلى طريق الخير وإلى صراط مستقيم، ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام ١٢٢). وفى عقد هذه الموازنات تمجيد للإيمان وتعظيم من شأن المؤمنين.

الهجاء

فى القرآن هجاء لمن تعرض للدعوة، ووقف فى سبيل نجاحها، ولمن أنكرها من غير حجة ولا برهان، ولمن نافق فأظهر بلسانه الإيمان، ولم يؤمن قلبه ولا ضميره، وجدير بهؤلاء أن ينالهم الذم والتقريع. والهجاء فى القرآن يمتاز بهذه النزاهة التى ينأى بها عن الفحش ويبعد عن الدنس، كما يمتاز بأنه يتجه إلى الفعل يندد به، ويعيبه، ولا يعنيه الأشخاص ولا يذكرها، لأنه يرمى إلى ترك الفعل والابتعاد عنه، ومن الحكمة ألا يذكر فاعله، لأن ذلك أدعى إلى أن يجد الباب مفتوحاً أمامه، يدخله من غير أن يكون لماضيه ما يحول بينه وبين قبول الدين الجديد، أو يكون سمة خالدة تؤذيه دائماً، إذا هو قبل هذا الدين الجديد، فالقرآن يهجو الفعل، ويترك لفاعله فرصة اجتنابه، وهذه بعض نماذج تبين النهج القرآنى فى الهجاء، قال سبحانه فى المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فهُمْ لَا يَقْفَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون (٤) وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون (٥) سواء عليهم أاستغفرت لهم أم لم

تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذْلَ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) ﴿المنافقون ١-٨﴾، فأنت تراه يهاجم عقيدة المنافقين وأعمالهم وأقوالهم ويفندها، ويصورهم ويصور عقليتهم، ويرد على مزاعمهم في قوة تحطم نفسيتهم، وتبعث في قلوبهم الوهن. وللمنافقين من الأثر السيء في صفوف المؤمنين ما ليس لخلص الكافرين، فلا عجب إذا نالوا هذا الهجاء العنيف.

صورت الآيات المنافقين جبناء، يتخذون نفاقهم وسيلة لسلامتهم، وسبباً يصلون به إلى هدفهم من الصد عن سبيل الله، فهم يجيئون إلى الرسول ويقسمون له إنهم يشهدون برسالته، ويؤمنون بها، ولكن الله يفضح نيتهم، ويعلن أمرهم ويؤكد كذبهم، ويذم هذه الخطة النكراء، التي نتجت من أنهم أغلقوا قلوبهم، وأهملوا عقولهم، فلم يدعو لأنفسهم مجالاً للتفكير السليم، ويمضى القرآن في تحقيرهم، فيسخر من هذه الأجسام التي تغر بمرأها، ولكنها تحمل قلوباً خاوية ضعيفة، ملاًها الجبن، واستولى عليها الخوف، فهي تهلع لكل صيحة، تظن العدو قادماً يغير عليهم، ويصور حركة استهزائهم إذا دعوا إلى التوبة، واستكبارهم عن الخضوع والطاعة، فهم يلوون رءوسهم إعراضاً وكبراً، وهنا يهددهم القرآن بأن الله لن يغفر لهم لأنهم قوم فاسقون، يعملون على هدم الدعوة، والتضييق عليها من الناحية المالية، فيدعون الناس إلى قبض أيديهم عن معاونتها بمالهم، وهنا يسخر القرآن من أوهامهم، فيذكرهم بأن لله خزائن السموات والأرض، وينسبون لأنفسهم العزة، وأنهم قادرون على إخراج المؤمنين من المدينة، وهنا يؤكد القرآن أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

تصوير القرآن للمنافقين فيه حركة وحياة، ينقل أعمالهم، ويسجل كلامهم، ويصف ما يختلج في أعماق نفوسهم، فكأنك تراهم قادمين إلى الرسول يقسمون له أغلظ الأيمان، فإذا مضوا أخذوا يصدون عن سبيل الله، وتلمح لى رءوسهم عندما يدعون إلى التوبة والإنابة، وتسمعهم يدعون الناس إلى قبض أيديهم عن معونة المؤمنين، ويقولون والغيط يملأ أفئدتهم: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذْلَ﴾.

وتأمل القرآن يندد بالفعل ويعيبه قائلاً: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ

الْحَرِثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُجِبُ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) ﴿البقرة ٢٠٤ - ٢٠٦﴾. والقرآن هنا مصور كذلك، يرسم العمل، ويحكى القول، ويسجل الجواب، كما تراه يصور المهجويين في قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (ال عمران ٧٨)، ألا ترى أن لى لسان هذا الفريق بالكتاب، يصور ما يريد أن يقوم به هذا الفريق من إيهاام الناس كذبا أن ما يقولونه من عند الله، وما هو من عند الله.

ومن أوجع الهجاء في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦)﴾ (الأنفال ٥٥ - ٥٦)، ففي إطلاق اسم الدواب ما يؤذن بخروجهم عن دائرة العقلاء، كما قال في موضع آخر: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَمْتَحِنُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (محمد ١٢)، وفي موضع ثانٍ ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَعَقُّ بِمَاءٍ لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ غَنِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ١٧١).

وتأمل الاستفهام التهكمي في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة ١٧٠). والتشبيه الموجه في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة ٥).

وإذا كان القرآن الكريم يقصد من الهجاء ذم الفعل للتنفير منه، فإننا نراه يتبع الهجاء بما يستخلص منه من عظة حيناً، ومن أمرٍ يجب اتباعه حيناً آخر، ومن موازنة بين هذا الذي استحق الهجاء بسوء ما فعل، وذلك الذي انتهج النهج السليم ففاز وظفر، وفي ذلك تحقيق لهدف القرآن الذي يهدى بالتى هي أحسن.

العتاب

من أوضح ما جاء من العتاب في القرآن قوله تعالى يعاتب رسوله، وقد جاءه أحد المسلمين يسأله في أمور الدين، وكان الرسول ساعته في حديث مع طائفة من المشركين، مؤملاً أن يفضى به الحديث إلى إيمانهم، فلم يعن بأمر هذا المسلم السائل، بل أعرض عنه عابسا، فنزل قوله سبحانه: ﴿عَسَى وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُذْرِيكَ لَعَلَّه يَزْكِي (٣) أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَةً الذُّكْرَى (٤) أَمَا مَنْ اسْتَعَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي (٧) وَأَمَا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)﴾ (عبس ١ - ١٠).

بدأ هذا العتاب متحدثاً عن الغائب، وكأنه بذلك يريد أن يرسم الصورة لرسوله على لوحة يراها أمام عينيه على وجه غير وجهه، لتكون الصورة واضحة القسما ت بينة المعالم، فالمرء لا يرى وجه نفسه، ثم اتجه العتاب إلى الخطاب فى رفق قريب من العنف، مبينا ما لعله يرجى من الخير من هذا الأعمى السائل، ثم عقد موازنة بين من عنى به النبى ومن أعرض عنه، فهذا مستغن لا يعنيه أن يصغى إلى الدعوة، أو يطيعها، والآخر مقبل، تملأ قلبه الخشية، ويدفعه الإيمان، وقد سجل القرآن معاملة الرسول لهما، ولكن هذا العتاب يحمل فى ثناياه عذر الرسول، فهو ما تصدى لمن استغنى إلا أملا فى هدايته وإرشاده.

وقد يقسو القرآن فى العتاب، بعد أن يكون قد استخدم الرفق واللين، وذلك فى الأمور التى يترتب على التهاون فيها ما يودى بالدعوة، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨) ﴿لَا تَتَفَرَّقُوا بِعُذُبِكُمْ عُذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩) (التوبة ٣٨، ٣٩). ولعله بعد رفقهم بهم، وبيانه لهم أن متاع الحياة الدنيا قليل، إذا قيس بمتاع الآخرة - رأى ألا يقف عند هذا الحد من الموازنة، بل مضى محذراً منذراً.

ومن العتاب القاسى - لأنه يمس أساساً من أسس نشر الدعوة لتأخذ طريقها إلى النصر والنجاح - قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْغِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٧) ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال ٦٧ - ٦٨). أما إذا لم يتصل العتاب بمثل ذلك من مهمات الأمور فإن العتاب يرق ويلين كما ترى ذلك فى قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة ٤٣). وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التحریم ١). فمعرفة الصادق والكاذب إذا كانت قد ضاعت فى فرصة، فمن الممكن أن يتوصل إليها فى فرصة أخرى، وتحريم النبى لما أحل الله له مسألة شخصية ليس لها من الأثر ما للجهاد من آثار.

مصرفى القرآن

أشار القرآن إلى مصر مرات عدة، ففيها جرى معظم حوادث قصة يوسف، وإلى فرعونها أرسل موسى، وقد كررت قصته كثيراً، ولم يؤرخ القرآن لمصر، ولكنه أشار إلى النواحي التى ترتبط بهدفة من الهداية والإرشاد.

وقد أثبت القرآن ما كان لمصر من عظمة ومجد وغنى، فقد قال على لسان موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (يونس ٨٨). كما أشار إلى عظمة ما كان لها من ملك ضخم فوق سطح الأرض، ترمقه الأمم بعين الإكبار والإجلال، حين قال على لسان هذا المصرى الذى آمن بموسى: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ (غافر ٢٩).

أما فرعون فإنه معتز بملك مصر، وبأنهارها التى تجرى تحت قصوره، ﴿وَقَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف ٥١). وإذا كانت مصر بهذه العظمة والجلال فلا جرم كان فرعون يشعر فى نفسه بعلو لا يسامى، وجلال لا يقارب، ولذا أكثر القرآن من وصفه بالعلو فى الأرض، وانتهى الأمر بالفراعنة فى مصر إلى أن ادعوا الألوهية، ولهذا قال فرعون عندما دعاه موسى إلى عبادة الله: ﴿لئن اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء ٢٩). ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَيَّ الطِّينَ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنه مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص ٣٨). وبهذا بلغ فرعون مدى الطغيان الذى لا طغيان بعده، ولما أرسل إليه موسى ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِنَّا لَأَیْرُجِعُونَهُ﴾ (القصص ٣٩). وأثبت القرآن على فرعون وملئه أنهم قوم عالون فاسقون ظالمون، ولعل سبب وصفهم بذلك أنهم لم يؤمنوا بالله، ولم يتركوا اتخاذ فرعون إلهًا، ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ (هود ٩٧). ورفض فرعون وملؤه اتباع موسى لأمر:

أولها: أن موسى وهرون بشران، لا يمتازان عنهم بشيء ما، فضلا عن أن قومهما يعبدون فرعون، ويتخذونه إلهًا، ﴿فَقَالُوا أَنْزِلْ عَلَيْنَا آيَاتِنَا وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا الْغَيْثَ بِإِذْنِنَا وَسَوَاءٌ نُنزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ قَبْلِكَ وَبَعَثْنَا لَبَّىءَ الْأَعْرَابِ إِذْ تَبْتَغُونَ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ كَيْدًا وَهُمْ يُبْغُونَ لَكُمْ آيَاتِنَا أَفَتَكْفُرُونَ﴾ (المؤمنون ٤٧). بل رأى فرعون أنه ﴿خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ بَيْنِي﴾ (الزخرف ٥٢). فقد كان بلسان موسى عقدة تحول بينه وبين الإفصاح فى يسر، ورأى فرعون أنه مما كان يعزز دعوى موسى فى الرسالة أن لو كان ملكًا متوجًا، أو عزز بملائكة تويده، ﴿فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزخرف ٥٣).

ثانيها: أنهم رأوا فى اتباع موسى وهرون نزولاً من مكانة الرئاسة التى كانوا يستمتعون فيها بحقوق ومزايا سوف يفقدونها إذا اتبعوهم، إذ يصبحون من السوقة والأتباع، ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِتَابُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ٧٨).

ثالثها: أنهم رأوا صلة وثقى بين الأرض التى نبتوا فيها وترعرعوا عليها، وبين

التقاليد والعقائد التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، ورأوا في الخروج على تلك التقاليد والعقائد اغتراباً عن وطن توارثوه، ووجدوا أنهم إذا آمنوا بموسى فكانهم أخرجوا من أوطانهم، وقد كرّر القرآن فكرتهم هذه في مواضع عدّة منه، فقال على لسان فرعون يخاطب موسى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ (طه ٥٧). وقال على لسانه، يخاطب الملائكة حوله يريد أن يثيرهم ضد موسى: ﴿قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ إِن هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥)﴾ (الشعراء ٣٤، ٣٥). وأصر المصريون تعنتاً على ألا يؤمنوا بموسى وإلهه، برغم ما نزل بمصر من محن أنذرهم بهاموسى، وكانوا يتطهرون به ويقومونه، ويحدثنا القرآن عما نزل بمصر يومئذ من البلاء في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُشْجِرَنَّا بِهَا فَمَا نَخْشَى لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشِفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُورَةِ إِذَا هُمْ يَنْتَكُونَ (١٣٥)﴾ (الأعراف ١٣٠ - ١٣٥).

والظاهر أن موسى لم يدع الشعب المصرى إلى اتباعه، ولكنه مضى رأساً إلى فرعون يدعوهُ إلى دينه، مؤملاً بعد هدايته أن يقتدى به قومه فيؤمنوا، ولم يوجه موسى دعوته إلى غير فرعون، وإن كان السحرة قد آمنوا به بعد أن اعتقدوا أن قوة خارقة هي التي أمدته.

القصة فى القرآن

من الفنون الأدبية الرفيعة التي وردت في القرآن القصة، جاءت فيه لتساهم فيما يرمى إليه القرآن بعامية من الوعظ والنصح والإرشاد، وليكون فيها معين لا ينضب من الأسى للرسول الكريم، فيصير كما صبر أولو العزم من الرسل، وقد أوضح القرآن هذين الهدفين من إيراد القصة فيه حين قال: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف ١٧٦). ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف ١١١). وقال: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فَوَدَّكَ﴾ (مؤد ١٢٠). وعلى ضوء هذين الهدفين نزن ما ورد في القرآن من القصص فليس هو بكتاب أنشئ للقصة قصداً، ولكنه ينظر إلى القصة من هذه الزاوية التي تحقق

أهدافه العامة، فلا يصح حينئذ أن يؤخذ^(١) عليه أنه لا يتناول القصة من جميع أطرافها، ولا أنه لا يتسلسل في إيراد حوادثها مرتبة منظمة، وأنه يصعب فهم القصة من القرآن، على من لم يطلع عليها في مصدر آخر، ذلك أن القرآن يأخذ من القصة ما يحقق أهدافه من التهذيب والوعظ، فحينما يقص القصة كلها، محبوكة الأطراف، موصولة الأجزاء، مرتبطا بعضها ببعض، في تسلسل واتساق يسلمك السابق منها إلى لاحقها، حتى تصل إلى خاتمتها، ونذر ذلك في القرآن، كما نراه في سورة يوسف، وفي معظم الأحيان يأخذ من القصة بعضها، لأن في هذا البعض ما يحقق الهدف، وقد يلمح القرآن ويشير إلى القصة تلميحا يستغنى به عن الإطالة، اعتمادا على أن القصة معروفة مشهورة. رأيت الخطيب حين يستشهد بقصة من القصص، أتراه يعمد إلى القصة كلها فيسردها؟ أم إنه يعمد أحيانا إلى جزء من القصة يورده في خطبته، وأحيانا يكتفى بالإيماء إلى القصة والإشارة إليها، من غير أن يكون في مثل هذا العرض نقص في الخطبة، أو اعتراض على الخطيب. وقد يتكرر جزء القصة في القرآن إذا استدعى المقام تكرير هذا الجزء.

ولنأخذ قصة إبراهيم نتبين النهج القرآني في عرضها، والسرفى اتباع هذا النهج. وقد تحدث القرآن كثيرا عن إبراهيم، فعندما عرض له أول مرة في سورة البقرة كان في معرض الرد على اليهود والنصارى، وهنا ذكر من قصة إبراهيم ما يؤيد دعوة محمد، وبيان أن محمداً قد تبع ملة إبراهيم، وأن إبراهيم وصى بنيه من بعده وصايا هي تلك التي جاء محمد بإذاعتها، وهالك بعض ما جاء في هذا المقام تتبين به شدة المناسبة للموضع الذي جاء فيه، قال سبحانه: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ فَهُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة ١٢٠). ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَبَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ١٢٤). ﴿وَإِذِ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩) وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة ١٢٧ - ١٣١). ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةٌ

(١) راجع رأي نولدكه ص ٤٨ من كتاب تطور الأساليب النثرية.

إِبْرَاهِيمَ حَيِّفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) ﴿البقرة ١٣٥، ١٣٦﴾.

وعرض القرآن مرة ثانية لإبراهيم في سورة البقرة، وهو في معرض الحديث عن انفراد الله بالألوهية، وأنه لا شريك له في السموات ولا في الأرض، فعرض من قصته في هذا المقام ما يناسبه إذ عرض هذا الحديث الذي دار بين إبراهيم، وبين الملك الذي أتاه الله الملك، فادعى الألوهية، فأفحمه إبراهيم إfachامًا لم يستطع الملك أن يتخلص منه، وتتبين جمال الاستشهاد بهذا الجزء من قصة إبراهيم إذا أنت قرأت آية الوحداية التي منها: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة ٢٥٥). ثم قرأت قوله متعجبًا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ٢٥٨). وكان الحديث عن إبراهيم وسؤال ربه ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (البقرة ٢٦٠). مرتبطًا تمام الارتباط بالحديث عن الله الذي يحيى ويميت.

وجاء بجانب من قصة إبراهيم في سورة الأنعام، وكان يتحدث عن قلة غناء عبادة غير الله، وضلال من يتخذ من دون الله إلهًا لا ينفع ولا يضر، وحيرته وفقدان صوابه، إذ يقول: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ (الأنعام ٧١). فلا جرم ناسب المقام أن يورد هنا من قصة إبراهيم هذا الحديث الذي دار بينه وبين أبيه آزر، ينكر فيه إبراهيم على أبيه أن يتخذ من دون الله إلهًا، ثم يمضى القرآن مبينًا كيف اهتدى إبراهيم إلى الله الحق، بعد أن رأى سواه، ليس خليفًا بالألوهية، ولا يصلح للعبادة، فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَيِّفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ (الأنعام ٧٤-٧٩).

أرأيت شدة الصلة بين هذا الجزء من قصة إبراهيم، وبين المقام الذي ورد فيه.

وجاء الحديث عن استغفار إبراهيم لأبيه في سورة التوبة، بعد نهى الرسول

الكريم عن استغفاره للمشركين، فكان الربط قويا متينا، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْحَجِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَنِ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ قَلَمًا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرًّا مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾ (التوبة ١١٣، ١١٤).

أما ما ورد من قصة إبراهيم في سورة هود، فهو الجزء الذي تحدث فيه عن نجاته وعذاب قومه، وذلك في معرض الحديث عن نجاة من نجا من الأنبياء، وهلاك من هلك من أقوامهم الذين لم يؤمنوا بهم، فأورد من ذلك ما حدث لنوح وقومه، وهود وقومه عاد، وصالح وقومه ثمود، يعرض من قصصهم لهذه الناحية التي عرض لها من قصة إبراهيم، التي ختمها هنا بقوله: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ لَكَ وَاتَّبِعْ آيَاتِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (هود ٧٦).

وكان الحديث عن إبراهيم في سورة إبراهيم، وارداً بعد الحديث عن نعم الله التي لا تحصى، وهنا ذكروهم بتلك النعمة الكبرى وهي نعمة أمنهم في حرمهم، تلك النعمة التي استجاب الله فيها دعوة إبراهيم، ويضم القرآن إلى هذه النعمة دعاء إبراهيم أن يجنبه ربه عبادة الأصنام، ولتنصت إلى حديث أمن البيت الحرام، تلك النعمة التي لا تستطيع قريش إنكارها، إذ يقول: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّنِي كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾ (إبراهيم ٣٤-٣٧). وكأنه وهو يذكر بهذه النعمة، يبين لهم طريق شكرها بتوحيده وعبادته.

وردد جزء من قصة إبراهيم في سورة مريم، ولما كان المقام مقام تنزيه الله عن الشريك، ورد من القصة تلك المناقشة التي دارت بين إبراهيم وأبيه، يبين فيها إبراهيم خطئ الرأي في الإشراف بالله، ﴿وَإِذْ كُرِيَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأبيه يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْبَةِ يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)﴾ (مريم ٤١-٤٦).

ولما كان الحديث في سورة الأنبياء عن وحدانية الله كذلك وأن ما سواه لا يليق

به أن يكون إلهاً يعبد، ورد في هذه السورة من قصة إبراهيم ما يوضح هذه الحقيقة ويؤكدها في الذهن، فقص القرآن حادث تحطيمه للأصنام، حادثاً عملياً يبين قلة غنائها، وأنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها فكيف تصلح أن تكون معبودة من دون الله، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ جَذَآءَ الْكَبِيرِ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدْعُنَا لَهُ إِبْرَاهِيمَ (٦٠) قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤)﴾ (الأنبياء ٥٨ - ٦٤). وفي سورة الشعراء حديث عن الرسل، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده، فبهذه الدعوى أرسل موسى إلى فرعون، وأرسل هود وأرسل صالح، فلما جاءت قصة إبراهيم تُنوّلت من تلك الناحية، فعرض إبراهيم ما دفعه إلى ترك عبادة ما كان قومه يعبدون، وإلى الاتجاه إلى الله وحده بالعبادة، قال سبحانه: ﴿وَآتُوا عَلَيْنَهُم نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يُهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾ (الشعراء ٦٩ - ٨٢). أي براعة في هذا العرض، وأية قوة خارقة، فالمقام في السور الثلاث تحدث عن وحدانية الله، وتعدد المعروض من قصة إبراهيم، لتأييد هذه الوجدانية، فعرض من هذه القصة مرة خوف إبراهيم من سوء مصير من يشرك بالله، وحذر والده من سوء هذا المصير، وفي موضع آخر عرض منها حادثاً عملياً يبين قلة غناء هؤلاء المعبودين من دون الله، وعرض في موضع ثالث الأسباب التي دفعت إبراهيم إلى عبادة الله وحده. كما عرض في سورة العنكبوت ما تحدث به إلى قومه مما يدفعهم إلى تلك العبادة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت ١٧).

وتبدو البراعة القوية كذلك في عرض القرآن حادث تحطيم الأصنام عرضاً آخر غير العرض الأول، يصور تصويراً ملموساً عجز هؤلاء الآلهة وقلة حيلتها، حين ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْظِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣)﴾ (الصافات ٩١ - ٩٣).

وهكذا تبين ما ذكرناه من استشهاد القرآن بما يعنيه من أجزاء القصة، وبلوغ القرآن أهدافه من ذكر هذه الأجزاء، وفي الاستطاعة تتبع ذلك فيما جاء من قصص في القرآن.

الجدل

لا يجرى الجدل في القرآن على هذا النظام المنطقي الجاف، تذكر فيه المقدمات على نظام خاص، تتبعها النتائج، فإن القرآن لم ينزل لهداية طائفة خاصة لها ثقافتها الخاصة، بل نزل لهداية الناس جميعاً، وما به من أدلة يلقي في النفس الاقتناع، ويملاً القلب باليقين، سواء في ذلك العامة والخاصة.

وقد ذكر العلماء من ألوان الجدل القرآني القول بالموجب^(١)، قال ابن أبي الأصبغ: وحقيقته رد كلام الخصم من فحوى كلامه، وقال غيره هو قسمان: أحدهما: أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم، فتثبتها لغير ذلك الشيء، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون ٨). فالأعز وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم، والأذل عن فريق المؤمنين، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم، وهو الله ورسوله والمؤمنون، فكانه قيل: صحيح ذلك: ليخرجن الأعز منها الأذل، لكن هم الأذل المخرج، والله ورسوله الأعز المخرج. والثاني حمل لفظ وقع من كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلٍّ أذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (التوبة ٦١). يريدون^(٢) أنه صلى الله عليه وسلم سماع لكل شيء، مصدق لكل قول، ولكن الآية لم تترك الأذن مطلقة، بل نسبتها إلى الخير، ولهذا كان تمام الآية ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ (التوبة ٦١). أي أنه يصدق بالله، ويسلم للمؤمنين، لا لكم، لعدم تصديقه إياكم، ثم هو مع ذلك رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم، حيث قبلهم، ولم يكشف حقيقتهم. وعدوا من أنواع الجدل القرآني الانتقال^(٣)، وذلك أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان أخذاً فيه، لعدم فهم الخصم وجه الدلالة من الاستدلال الأول، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ

(١) الإتيان ج ٢ ص ١٣٧. (٢) تاريخ الأدب العربي للأستاذ السباعي بيومي بك ص ١٢٩.

(٣) الإتيان ج ٢ ص ١٣٧.

إِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُخِي وَأُمِّي قَالِ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿البقرة ٢٥٨﴾. فإن الملك الذي جادله إبراهيم فهم من الإحياء والإماتة قدرته على إبقاء من يستحق القتل، وحكمه على الحيّ بالموت، فلم يرد إبراهيم مناقشته، لكي يبين له مراده من الإحياء والإماتة، بل انتقل إلى استدلال لا يجد الملك له وجهًا يتخلص به منه، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ وهنا بهت الملك، ولم يمكنه أن يقول: أنا الآتى بها من المشرق، لأن من هو أسن منه يكذبه.

ومنها مجازاة الخصم^(١)، بتسليم بعض مقدماته، للإشارة إلى أن هذه المقدمات لا تنتج ما يريد أن يستنتجها، وذلك كقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠)﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿إبراهيم ١٠، ١١﴾: فليس المراد أنهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم، بل كأنهم قالوا: إن ما ادعيتم من كوننا بشرًا حق لا سبيل إلى إنكاره، ولكن هذا لا ينافي أن يمن الله علينا بالرسالة، وقد أثبت القرآن في موضع آخر، كما ذكرنا، أن الرسول لا يكون إلا بشرًا، ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ (٨)﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (٩) ﴿(الأنعام ٩، ٨). وفي هذا النوع من الجدل استدراج للخصم، واستجلاب لإصغائه، وربما كان من الممكن بهذه الوسيلة ثنيه عن الإنكار.

ومنها الإسجال^(٢)، بأن يثبت على لسان الخصم حقيقة كان ينكرها كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿الأعراف ٤٤﴾. وفي مثل هذا اللون من التسجيل إثارة لوجدان المتشككين والمنكرين وإثارة الخوف في أنفسهم، حين يسمعون اعتراف من على شاكلتهم، ويدفعهم الخوف إلى التأمل، عساهم يهتدون.

ومنها التسليم^(٣)، وهو أن يسلم بوقوع المحال تسليمًا جدليًا، لبيان ما يترتب على ذلك من أمور محالة، وقد يبدأ الكلام حينئذ بحرف امتناع، ليدل على أنه ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، كما في قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ﴿الأنبياء ٢٢﴾. وحينئذ ينفي صراحة، ثم يسلم وقوعه تسليمًا جدليًا، لا يلبث أن

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢، ٣) الإتيان ج ٢ ص ١٢٧.

يحكم الواقع بانتفائه، كما فى قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون ٩١). فالمعنى ليس مع الله من إله، ولو سلم أن معه إلهاً لزم من ذلك ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق، وعللاً بعضهم على بعض، فلا يتم فى العالم أمر، ولا ينفذ حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض وجود إلهين محال، لما يترتب عليه من المحال. وفى هذا اللون من الجدل تقليب للأمر على جميع وجوهه، ليكون الحكم المراد سليماً لا شك فيه.

ومنها التقسيم^(١) والسبر، بأن يقسم ما هو محل الجدل إلى منتهى أقسامه، ويسبر كل قسم بأن ينفى عنه ما يريد الخصم إثباته له، كقوله سبحانه يرد على المشركين تحريمهم ذكور الأنعام تارة وإنائها أخرى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٤٢) ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الاثنين أما اشتملت عليه أزحام الأنثيين نبوني يعلم إن كنتم صادقين (١٤٣) ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الاثنين أما اشتملت عليه أزحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن أقرى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين (١٤٤)﴾ (الأنعام ١٤٢-١٤٤). رد الله عليهم تحريمهم بطريق السبر والتقسيم، فبين أنه قد خلق من كل زوج مما ذكر، ذكراً وأنثى، فما علة تحريم ما حرمت؟ لا يخلو أن يكون ذلك من جهة الذكورة أو الأنوثة أو إليهما معاً، أو لا يدري له من علة بأن يكون تعبدياً أخذ عن الله تعالى، والأخذ عنه سبحانه إما بوحى وإرسال رسول، أو سماع كلامه وتلقى ذلك عنه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّأَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾، تلك هى وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها، ويلزم على الأول أن يكون جميع الذكور حراماً، وعلى الثانى أن يكون جميع الإناث حراماً، وعلى الثالث تحريم الصنفين معاً، وهم يحرمون البعض فى حالة، والبعض فى حالة أخرى، ولم يأتهم رسول محمد يحرم عليهم ما حرموه، ولم يدعوا الأخذ عن الله بلا واسطة، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى وهو أن ما قالوه ضلال وكذب على الله. ومثل هذا التقسيم والسبر لا يدع مجالاً للشك، وتستريح النفس إلى ما تصل إليه من نتائج عن طريقه.

هذا، ومن أكبر الموضوعات التى حدث فيها الجدل موضوع توحيد الله، واليوم الآخر، ورسالة محمد، وقد بينا فى إفاضة ألوان هذا النقاش، وكيف كانت ردود القرآن باعثة على التفكير، مثيرة للوجدان معاً.

(١) المرجع السابق ص ١٣٦ ج ٢.

الابتهاال

من الأغراض التي جاءت في القرآن تعليم المؤمن كيف يتجه إلى الله، وتخلص نفسه من شوائب هذه الحياة، فيتجه إليه حيناً يحمدّه ويستعينه، كما في فاتحة الكتاب، وقد فرضت هذه الفاتحة سبع عشرة مرة في اليوم، وفي الاستعانة بالله بين الحين والحين في الليل والنهار تقوية للروح المعنوية في المرء، وتربية لضميره.

وهذا ابتهاال آخر، يلجأ فيه الإنسان بضعفه إلى الله في قوته، يطلب منه أن يسبح عليه غفرانه وأن ينصره، فيقول: ﴿رَبَّنَا لَا تَوَاخِدْنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَيَّ الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ١٨٦).

ونؤمر بأن نذكر عظمة الله وجلاله وقوته في أسلوب يجمع إلى قوة المعنى فخامة الأسلوب، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذَلِّقُ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧) (ال عمران ٢٦، ٢٧).

وفي هذا الابتهاال تصعد الكلمات مسجلة نعمة الإيمان، ضارعة إلى الله أن يبعد الخزي، مؤمنة بحكمة خلق السموات والأرض، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَن آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) (ال عمران ١٩١ - ١٩٤). وفي تكرير كلمة الرب ما يشعر بهذه الصلة الروحية السامية، التي بها يطمع المؤمن في أن يستجاب له.

وفي سورة الفلق، يلجأ الإنسان إلى الله من شر ما يستكن في الظلام من شرور، ومن شر ما يستكن في النفوس المظلمة من هذه الشرور، وفي سورة الناس يلجأ إلى الله أن يحميه من إغواء الشيطان ومن على شاكلته من الناس.

وقد يكون فيما يعلمنا الله من دعاء بياناً للخطة المثلى الواجبة الاتباع، كما تجد ذلك في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة ٢٠١). فقد بينا فيما مضى أن تلك الصلة بالدنيا والآخرة هي الصلة

المثلى للإنسان المثالى، ولم يقتصر الابتهاال على طلب التوفيق فى أمور الدين، بل شمل طلب السعادة فى شئون الدنيا، فقد أثنى الله على الذين يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان ٧٤).

بعض صور الحياة الجاهلية

سجل القرآن بعض ألوان هذه الحياة، منددا بها حينًا، وممتنًا عليهم حينًا آخر، أن نقلهم من تلك الحياة، إلى حياة أخرى رفيعة، وإنما عارض القرآن الحياة التى نزل ليهذبها، أو يغير من عاداتها وعقائدها، ولذا كانت الحياة الجاهلية التى يعرض بعض صورها هى تلك التى عاصرها القرآن، أما الجاهلية القديمة، فمما لم يعن القرآن بها، إلا إذا كانت آثارها لا تزال باقية.

فمن الناحية الدينية، صور القرآن العرب طوائف، فطائفة - ولعلها الغالبة الكبرى - قوم يشركون بالله، ويتخذون أصنامًا يعبدونها، ويتقربون إليها، والقرآن يصورهم برغم اعترافهم بأن الله هو الذى خلقهم وخلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، وله ملك السموات والأرض، وهو الرازق المدبر - برغم ذلك يتخذون من الأوثان آلهة، وقد سجل القرآن تلك العقيدة فى قوله: ﴿وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت ٦٣). ﴿وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (العنكبوت ٦١). ﴿وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف ٨٧). ﴿قُلِ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ (المؤمنون ٨٤، ٨٥). ﴿قُلِ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ (يونس ٣١). وقد كان من الطبيعى أن يتجهوا إلى الله وحده بعبادتهم، ماداموا يعتقدونه متصفاً بتلك الصفات، ولكنهم أشركوا به غيره فى العبادة، واتخذوا من الأصنام المنحوتة آلهة يعبدون، وجعلوا لهذه الآلهة نصيبًا من أرزاقهم يقدمونه قرابين إليها، وحينًا يجعلون لله نصيبًا من هذه القرابين، ولأوثانهم نصيبًا، ثم ينسون نصيب الله ويقدمونه لهذه الأوثان. وذكر القرآن أسماء بعض هذه الأصنام إذ قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠)﴾ (النجم ١٩، ٢٠). وقد ندد القرآن بهذا الإشراك فى العبادة، وتسوية هذه الأصنام بالله، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (البقرة ١٦٥). ذلك أنهم اتخذوا هذه الأصنام

شفعاء لهم عند الله، فقالوا: **﴿إِنَّا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾** (الزمر ٣). ولذلك كان أكبر ما عجبوا له عندما دعاهم الرسول إلى الإسلام، هذا التوحيد لله في العبادة، ونبذ ما عداه مما اتخذوه آلهة، فقالوا: **﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ غَجَابٌ﴾** (ص ٥). وقد حطم القرآن عقيدة الشرك، ومضى إلى الأصنام فلم يدع بابًا يبين خطأ الرأى في عبادتها، مما ذكرنا بعضه في الفصول الماضية.

وكانت هذه الطائفة تجعل **﴿الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا﴾** (الزخرف ١٩). وسموهم بنات الله، وعجب القرآن لتلك القسمة الضيزى، **﴿أَمْضِطْفِىِى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤)﴾** (المصافات ١٥٣، ١٥٤). قد تعجب القرآن منهم قائلًا: **﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَشْهَدُوا وَخَلَقَهُمْ سَكَّابًا شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾** (الزخرف ١٩). وقد نفى القرآن عن الله فكرة الوالدية إذ قال: **﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾** (الإخلاص ٣).

كما كان فى بلاد العرب أهل كتاب من النصارى واليهود، وقد ناقش القرآن ما بدلوه من عقائدهم وشرائعهم وكتبهم، ومن أهم ما أخذه عليهم فكرة اتخاذ الله ولدًا، **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾** (التوبة ٣٠-٣٢). وقد أطال القرآن فى الرد عليهم، وادعائهم أنهم أبناء الله وأحبائه، وأنه **﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾** (البقرة ١١١). ويطول بى مجال القول إذا أنا فصلت هذه المناقشات وتحدثت عن عناصرها.

وكان مشركو العرب ينكرون البعث، ولا يؤمنون باليوم الآخر، **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾** (الجنانية ٢٤). وكان إثبات هذه العقيدة والرد على منكريها من أهم أغراض القرآن، كما سبق أن وضحنا.

ومن عقائد العرب فى الجاهلية تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى، وقد اختلف فى معنى كل واحد من هذه الأربعة.

أما البحيرة^(١) فقال الزجاج: إن أهل الجاهلية كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها نكر بحروا أذننها وشقوها، وامتنعوا من نحرها وركوبها، ولا تطرد من ماء، ولا تمنع عن مرعى وهى البحيرة، وقيل إنها إذا نتجت خمسة أبطن نظر

(١) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٣٦.

فى الخامس، فإن كان ذكرًا ذبحوه وأكلوه، وإن كان أنثى شقوا أذنها، وتركوها
ترعى، ولا يستعملها أحد فى حلب وركوب ونحو ذلك، وقيل غير ذلك، ويظهر أن
مذاهب العرب كانت مختلفة فيها، فاختلف لذلك أئمة اللغة فى تفسيرها، وكل
قول يرجع إلى مذهب.

وأما السائبة فقيل: هى الناقة تبطن عشرة أبطن إناث، فتهمل ولا تتركب، ولا يجز
وبرها، ولا يشرب لبنها إلا ضيف، وقيل: هى التى تسبب للأصنام، فتعطى، ولا يطعم
من لبنها إلا أبناء السبيل ونحوهم، وقيل هى البعير يدرك نتاج نتاجه، فيترك ولا
يركب، وقيل غير ذلك.

وأما الوصيلة، فقال الفراء هى: الشاة تنتج سبعة أبطن عناقين^(١)، وإذا
ولدت فى آخرها عناقًا وجديًا، قيل وصلت أخاها، فلا يشرب لبن الأم إلا الرجال
دون النساء، وتجرى مجرى السائبة، وقيل: هى الشاة تنتج سبعة أبطن، فإن كان
السابع أنثى لم ينتفع النساء منها بشيء، إلا أن تموت، فيأكلها الرجال والنساء،
وقال ابن قتيبة: إن كان السابع ذكرًا ذبح، وأكلوا منه دون النساء، وقالوا: خالصة
لذكورنا، محرمة على أزواجنا، وإن كانت أنثى تركت فى الغنم، وإن كان ذكرًا
وأنثى، قالوا: وصلت أخاها، فترك معه، ولا ينتفع بها إلا الرجال دون النساء،
وقيل غير ذلك.

وأما الحامى فقيل: هو الفحل إذا لقح ولد ولده، فيقولون: قد حمى ظهره،
فيهمل، ولا يطرد عن ماء ولا مرعى، وقيل: هو الفحل، يولد من ظهره عشرة
أبطن، فيقولون: حمى ظهره، فلا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى، وقيل
غير ذلك، ولعل اختلاف التفسير راجع إلى اختلاف مذاهب العرب، كما سبق أن
ذكرنا.

وقد أبطل الإسلام ذلك، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ
وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة ١٠٣). كما أبطل
عقيدتهم فى تحريم إناث الأنعام حينًا وذكرها حينًا، وقد سبق أن ذكرنا ذلك
فى باب الجدل.

ومن الناحية الاجتماعية صور القرآن العرب جماعات متعادية، تعزز كل
قبيلة بعصبيتها، وتزهو بنسبها، وتفتخر بنفسها، وقد هدم القرآن الوحدة
القبلية، وأراد أن يضع مكانها وحدة إسلامية شاملة، لا يعتز المرء فيها بجنسه،

(١) العناق الأنثى من أولاد المعز.

ولكن بعمله، فقرر أن العالم مكون من شعوب وقبائل للتعارف، لا للتناحر والتنافر، ﴿وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات ١٣). فلا يكون ذلك مصدر حرب وقتال، ولا سبباً للتكاثر والافتخار، وقرر أخوة المؤمنين، لا فرق بين عربى وعجمى، وأن مصدر التفاضل عند الله إنما هو التقوى فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات ١٠). ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات ١٢). وقد امتن الله على العرب بإنقاذهم من تلك الحياة التى يسودها البغض، ويملوها العداة فقال: ﴿وَإِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران ١٠٣). وقد حثهم القرآن على الاحتفاظ بهذه الأخوة، وأن يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا.

ونزل القرآن وكان بعض العرب يئد البنت، ويكره أن تولد له بنت، وقد نعى القرآن على هذا البعض تلك النظرة الخاطئة، مندداً بها، فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلْأَسَاءُ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)﴾ (النحل ٥٨، ٥٩). كما عطف القلوب على هذه الموءودة تسأل يوم القيامة عما جنته من ذنوب أدت إلى وأدها، وهو بذلك يثير تفكير الوائدين ليروا حقيقة الدافع إلى وأد بناتهم، ويثير وجدانهم، حين يتمثلون قسوتهم فى وأد طفلة بريئة لم تجن ذنباً، فقال وهو يصف اليوم الآخر: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ (التكوير ٨، ٩).

كما كان بعض العرب يقتل أولاده خشية الإنفاق وخوف الفقر، وهم الفقراء من بعض قبائل العرب، وقد نزل فى هؤلاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قُتِلْتُمْ كَانَ خَطِيئَةً كَبِيرًا﴾ (الإسراء ٣١).

ولم يرض القرآن عن كثير من صلاتهم بالمرأة فمن ذلك أن الرجل من العرب كان إذا مات عن المرأة أو طلقها، قام أكبر بنيه فإن كان له حاجة فيها طرح ثوبه عليها، وإن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد، وقد أبطل الله ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (النساء ٢٢).

ومن ذلك أنهم كانوا يطلقون النساء، فإذا قرب انقضاء عدتهن راجعوهن، لا عن رغبة فى هذه المراجعة ولا عن محبة، ولكن ضارراً، لقصد تطويل العدة، فنهى القرآن عن ذلك فقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِيَتَّخِذُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة ٢٣١).

ومن ذلك أنهم كانوا يمنعون النساء أن يتزوجن مَنْ أَرَدْنَ مِنَ الْأَزْوَاجِ بَعْدَ انقضاء عدتهن، حمية جاهلية، فأنكر القرآن ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُغْنِ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَغْضَبُوهُنَّ أَنْ يَتَّخِذْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢٣٢). ومن ذلك أنهم كانوا إذا مات الرجل منهم، كان أولياؤه أحق بامرأته، فإذا أراد بعضهم تزوجها، وإن رأوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، وإن أرادوا سمحوا لها بالزواج على أن يأخذوا ميراثها، أو تدفع إليهم صداقها، فنهى الله عن ذلك فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَغْضَبُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ (النساء ١٩). وفى هذه المعاملة إجحاف بحق المرأة وحجر على حريتها يأباه الإسلام.

وسجل القرآن على المرأة الجاهلية تبرجها ومبالغتها فى التزين، ونهى الإسلام المرأة المسلمة عن التشبه بها فى قوله: ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرَجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (الأحزاب ٣٣). ومما سجله القرآن من عوائدهم شربهم الخمر، ولعبهم الميسر، واستقسامهم بالأزلام، ومعنى الاستقسام بالأزلام أن الرجل كان إذا أراد سفراً أو تجارة أو زواجا، أو غير ذلك مما يعنيه من الأمور - جاء إلى هبل، وهو أعظم صنم لقريش بمكة، ولدى سادن الكعبة أزلام، وهى قدام مستوية فى المقدار، وطلب منه أن يجيل هذه القدام، فإذا خرج القدام الأمر مضى لطيته، وإن خرج الناهى أعرض وانتهى، وقد حرم القرآن ذلك كله فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة ٩٠).

ومن عاداتهم التى سجلها القرآن ونهى عنها النسيء، فقد كانوا يعتقدون أن من الدين تعظيم الأشهر الحرم وهى أربعة: المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة، فكانوا يمتنعون فيها عن القتال، ولكن قبائل كانت تستبجح القتال فى الشهر الحرام، على أن يحرموا مكانه شهراً آخر من أشهر الحل، وهذا هو النسيء، فكانوا يعتبرون فى التحريم مجرد العدد، لا هذه الأشهر بأعيانها، فحرم القرآن هذا النسيء فى قوله: ﴿إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلِّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْاطِلُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءٌ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾ (التوبة ٣٦، ٣٧).

أما حياتهم الاقتصادية فقد صورهم القرآن قوماً يحبون التجارة، لدرجة أنها تملك عليهم قلوبهم فينصرفون إليها، حتى عن الصلاة والعبادة، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (الجمعة ١١)، ونزلت سورة يمن فيها على قريش بنعمة الأمن التي بها يجوبون البلاد العربية في الشتاء والصيف من غير أن يزعجهم إغارة مغير أو قطع طريق.

هذا، وقد كان في بلاد العرب من يستحل الربا، ولا يرى فارقاً بين البيع والربا، ومن هؤلاء من كان يأخذ الربا أضعافاً مضاعفة، وقد نهى القرآن عن الربا فقال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة ٢٧٥). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران ١٣٠).

وصور القرآن حياتهم الثقافية قوماً أميين، ليست لديهم معارف منظمة مكتوبة، ولذلك امتن عليهم بأن هذا الدين الجديد فاتحة عهد عرفان وهداية، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة ٢). ولكنهم كانوا يعرفون القلم، وبه كان يكتب بعضهم، ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)﴾ (العلق ٣-٤). وبرغم هذه الأمية يقرر القرآن شدة لددهم، وقوتهم في المراء والجدل، إن قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتُرْنَاهُ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (مريم ٩٧). ومن معارف العرب التي أشار القرآن إليها علمهم بالنجوم ومواقعها، ولذلك امتن عليهم بخلق هذه النجوم، لأنها مصباح في الظلام، يهديهم في البر والبحر، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الأنعام ٩٧).

الفصل الثاني

موازنات

أقصد بعقد هذه الموازنات أن نتبين الدقة القرآنية في تصوير المعنى تصويراً ينقل إلى النفس الفكرة نقلاً أميناً، ولكنى لا أريد أن أعقد كل ما يمكن من الموازنات، فذلك ما لم يتيسر لى القيام به إلى اليوم، فضلاً عن أنه فوق طاقتى، وكل ما أريده الآن هو عرض ما أمكننى من هذه الموازنات، راجياً أن أوفق إلى الإكثار منها، بقدر ما أستطيعه فى قابل الطبعات إن شاء الله.

١ - قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدْرَنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْفُرْجُونَ الْقَدِيمِ﴾ (يس ٣٩).

وقال ابن المعتز:

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا
وقال أيضاً:

انظر إليه كزورق من فضة
وقال أيضاً:

انظر إلى حسن هلال بدا
كمنجل قد صيغ من فضة
وقال السرى الرقاء:

وكان الهلال نون لجين
وقال أيضاً:

ولاح لنا الهلال كشطر طوق
على لبّات زرقاء اللباس

تحدث هذه النصوص كلها عن الهلال، ولكى ندرک الفرق فى القيمة بين هذه النصوص بعضها وبعض، نتبين معنى كل نص منها، لنرى أيها أدق وأوفى:
أما الآية الكريمة فإنها تتحدث عن تلك التنقلات التى تحدث للقمر بقدره الله، فبينما هو وليد، إذا به ينمو رويداً رويداً، حتى يصبح بدرًا مكتملاً، ثم يعود أدراجه،

وينقص قليلاً قليلاً، حتى يعود كعود الكِبَاسَة القديم، دقيقاً معوجاً لا يكاد يرى، ولا يؤبه له، بعد أن كان ملء البصر، وملء الفؤاد، وأنت بذلك ترى أن التشبيه الذى جاء فى الآية كان له نصيب فى أداء المعنى، ولم يجىء بعد أن استوفى المعنى تماماً، وكان دقيقاً أتم دقة، فى أداء المعنى وتصويره كاملاً.

أما بيت ابن المعتز الأول، فإن التشبيه الذى أورده لا دخل له أصلاً فى الفكرة التى يريد نقلها إلى قارئه، فإن كون الهلال مثل قلامة الظفر لا دخل له فى أنه كاد يفضحهم، بل على العكس يقلل من شأن الفكرة ويضعفها، فإن هذا الهلال الضئيل الذى يشبه قلامة الظفر، خليق به ألا يكون له أثر ما فى تبديد ظلمة الليل المتكاثفة، وخليق به ألا يفضحهم ولا يبين عن مكانهم، وبذلك ترى أن الصلة ليست وثيقة بين شطرى البيت، ولا بين التشبيه والفكرة التى جاء من أجلها.

وفى بيته الثانى سبق أن بينا وجوه النقص فيه^(١)، وتحدثنا عن أن نفاسة المشبه به لا ترفع من شأن التشبيه، ولا تستر ما فيه من ضعف، وذكرنا أن انتزاع الصورة من الخيال لا يزيد المشبه وضوحاً، ولا يمنحه قوة.

أما بيته الثالث فضعيف متهاك، لم يصور الهلال كما تراه العين، ولا كما تحس به النفس، ففضلاً عن غفلة ابن المعتز عما يبعثه الهلال الجديد من آمال جديدة فى النفس، ووقوفه عند حد التصوير البصرى لم يوفق فى هذا التصوير، فإن الهلال فى نظر العين هادئ ساكن، والمنجل فى يد الحاصد متحرك فى سرعة، فكيف نتخيل الهلال منجلاً يحصد وهو لم يتحرك، ثم ما الصلة بين زهر الدجى وبين النرجس، وكيف يحصد الهلال هذا الزهر، والزهر باق فى مكانه لا ينمحر ولا يزول، والعهد بما يحصد أن يتخلى عن مكانه. ومن ذلك ترى نقص التشبيه وقصوره.

واقصر السرى الرفاء على التصوير البصرى أيضاً ثم فاقته الدقة عندما جعل هذه النون من اللجين غريقة فى صحيفة زرقاء، فصور لنفسك أى قدر هذه التى تشبه بها السماء، وتأمل هناك سبب يدعو إلى جعل هذه النون غريقة فى تلك القدر الضخمة؟! فالغريق يعلو، ويهبط، ويبدو، ويختفى، مما لا تراه العين فى الهلال الهادئ المطمئن.

وانظر، أتجد فى بيته الثانى تشبيهاً زادك شعوراً بالهلال عندما جعله نصف طوق فضلاً عن عدم دقته؟! وتأمل أى صلة تربط بين السماء ولبة فتاة تلبس ثياباً زرقاء!؟

(١) راجع ص ١٨٩.

وبذلك العرض الموجز تتبين الفرق بين تشبيه القرآن الدقيق المصور وبين تلك التشبيهات الضعيفة العرجاء.

٢ - وأطال القدماء في الموازنة بين قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة ١٧٩). وقولهم: «القتل أنفى للقتل». قالوا: وفضله عليه من وجوه:

- أولها: أن الآية الكريمة أقل حروفاً من كلامهم.
- وثانيها: النص على المطلوب وهو ثبوت الحياة، بخلاف قولهم لأنه إنما يدل على المطلوب باللزوم، من جهة أن نفى القتل يستلزم ثبوت الحياة.
- وثالثها: أن تنكير حياة يفيد تعظيماً لمنعهم عما كانوا عليه من قتل جماعة بواحد.
- ورابعها: اطراده، بخلاف قولهم، فإن القتل ينفي القتل إذا كان على وجه القصاص المشروع، وقد يكون أدعى للقتل، كما إذا وقع ظلماً، كقتلهم غير القاتل، وظاهر العبارة يحتمل المعنيين بخلاف القصاص.
- وخامسها: أن فيه تكريراً غيره أبلغ منه، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر عن أقصى طبقات البلاغة.
- وسادسها: استغناؤه عما ذكره أكثر من حذفه، وهو (من) بعد أفعل التفضيل الواقع خبراً.
- وسابعها: أن القصاص سبب للموت الذي هو ضد الحياة، فما في الآية ملحق بالطباق.
- وثامنها: سلامة الآية الكريمة من لفظ القتل المشعر بالوحشة، وتوسعها ظهور العدل في كلمة القصاص.

٣ - وتحدث الشعراء عن الصبح، فقال السرى الرفاء:

رأية صبح مبيضة العذب	انظر إلى الليل، كيف تصدعه
فشق جلبابه من الطرب	كراهب جن للهوى طرباً

وقال الشريف الرضى:

فوق الطويلع ^(١) راكب مثلثم	وكانما أولى الصباح وقد بدا
كالطعنة النجلاء يتبعها دم	وأذاع ^(٢) بالظلماء فتق ^(٣) واضح

وقال أيضاً:

وصبحها بالظلام معتصم	وليلة خضتها على عجل
----------------------	---------------------

(١) صبح (٢) صبح

(٢) ذهب

(٣) مضبة بمكة

تطلع الفجر من جوانبها وانفلتت من عقالها الظلم
وقال أيضاً:

والصبح قد أخذت أنامل كفه فى كل جيب للظلام مززر
فكأنما فى الغرب راكب أدهم يحثته فى الشرق راكب أشقر

وليس كل ذلك الشعر بباعث إلى نفسك الشعور بما فى الصبح من يقظة وحياة، كما يبعثه إلى نفسك تلك الكلمة القرآنية المختارة: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (التكوير ١٨). فإنها تحمل إليك معنى الحياة التى دبت فى الكون بعد طول هجوعه، واليقظة التى شملته بعد رقاد وهمود، ويصور لك الوجود، وقد بدأ يفتح عينيه وينهض من سبات، أما هذه الأبيات من الشعر فإنها وقفت تتلمس لهذه الظاهرة الكونية شبيهاً بصرياً، وقد أخفقت جميعها فى هذا التصوير البصرى، فشعر السرى الرفاء تلمس للصبح مثيلاً، فوجد فى الراية ذات العذبات البيض شبيهاً له، ولا شىء يجمع بين المشبه والمشبه به سوى هذا اللون الأبيض، أما الإحساس النفسى فلا دخل له فى الربط بين هذين الطرفين، ثم جعل السرى الليل راهباً، ولا ندرى كيف يدفع الهوى راهباً إلى الجنون وهو راهب، وليت شعرى ما الذى يبدو من الراهب إذا شق ثوبه؟! وإذا كان الراهب أسود اللون فهل يبدو تحت جلبابه سوى السواد، وشق الثوب من مجنون إنما يكون فى سرعة لا تمثل ضوء الصباح الزاحف فى بطن.

أما شعر الشريف الرضى الأول فقد أهدت ذهنى فى أن أربط صلة بين الصبح والراكب المتلثم، فلم أجد رابطاً ذا قيمة يصل بينهما، ولماذا اختار الشاعر الراكب دون الماشى؟ وما لون هذا الراكب؟ وعلى أى شىء يركب؟ وهل الصبح كمتلثم يظل متلثماً، ثم يبدي صفحة وجهه دفعة واحدة؟ وما الصورة التى ترتسم فى ذهنك لهذا الصبح المتلثم الراكب؟ وهل هيئة الصبح تشبه هيئة راكب متلثم؟ وفيم؟

كل هذه أسئلة تخرج منها بوهن الصلة بين الصبح وهذه الصورة التى يرسمها الشاعر، وفى البيت الثانى يصور لك هذا الصبح، وما فيه من جمال وروعة، تبعث فى النفس حب الجمال لهذه الطبيعة الباسمة المشرقة - صورة دامية بشعة، تثير فى النفس الخوف والألم والنفور، صورة طعنة نجلاء يقطر منها الدم، وسبب ذلك إغفال الجانب النفسى الشعورى من الشاعر عند التشبيه، والوقوف عند حد اللون الذى يربط لون الصبح بتلك الآلة الحادة الطاعنة، وذلك الضوء الأحمر الحى تزجيه الشمس بين يديها، ولون قطرات الدماء، ألا ما أعظم الفرق بين الشعورين! وما أقوى أن يتنافرا، حتى لا يجمع بينهما رباط!

وأخطأ الشريف الرضى التوفيق أيضاً عندما وصف الصبح يسفر بعد ظلام الليل، وإن كانت هذه الصورة فى بعض نواحيها أضوأ من صاحبها، عندما قال: «تطلع الصبح من جوانبها»، ففى هذا التصوير نوع من الحياة، ولكنه بعيد كل البعد عن أن يصور حياة تكون كما صورتها الآية الكريمة، أما باقى الصورة التى ترسمها الأبيات فقد أخطأت فى رسم هذه الظاهرة الطبيعية، فإن الشعر يصورك أن الصبح لم يلبث أن أطل من الأفق، حتى مضى الليل مسرعاً يهرول فى جريه، كأنما قد أسفر الصبح ومضى الليل بين غمضة عين وانتباهتها، وذلك تصوير غير دقيق، لأن الليل ينحسر قليلاً قليلاً عن الصبح، حتى يتم إسفاره، كما أن النهار ينحسر قليلاً قليلاً، تاركا الكون لظلام الليل، وعبر القرآن عن ذلك فى قوله سبحانه: ﴿وَأَيُّ لَيْلٍ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (يس ٣٧). فاستخدم كلمة السلخ لتوحى بما ذكرناه.

وعاد فى شعره الثالث إلى الراكب، لا يلمح من جمال الصبح وبهجته سوى لونه، ونقدنا لهذا الشعر هو ما سبق أن أوضحناه.

٤ - ووصف الرسول كتاب الله، كما وصف الله كتابه فى القرآن، فقال النبى: «إن أحسن الحديث كتاب الله، قد أفلح من زينته الله فى قلبه، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أصدق الحديث وأبلغه»^(١) وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر ٢٣). وأنت ترى الفرق واضحاً بين قوة الكلامين، والمنهجين، والاتجاهين.

٥ - وصاغ أبو بكر جملة على مثال الجملة القرآنية، فقال من خطبة له: «واعلموا أن أكيس الكيس التقى»^(٢) على مثال قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة ١٩٧). ولا ريب أن النص القرآنى، يصور تلك الرحلة التى ينتقل فيها الإنسان من الحياة الدنيا إلى الآخرة، وهى رحلة تنتهى بحياة خالدة يحتاج المرء فيها إلى زاد يعيى عليه، فتصوير التقوى بأنها خير زاد يوحى بذلك كله، كما يوحى بالحاجة إليها، كما يحتاج المسافر إلى ما يتزود به فى غربته، ولم تزد جملة أبى بكر على أن وصفت التقوى بأنها أحكم ما يتصف به العقلاء، فلم توح الجملة إلى النفس بما أوحى به جملة القرآن.

(١) ورد النص فى كتاب إعجاز القرآن ص ١١١.

(٢) ورد فى المصدر السابق ص ١١٥.

٦ - ومن كتاب أرسله أبو عبيدة ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب: «إنما نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه وتجب فيه القلوب^(١)»، وقد وصف القرآن هذا اليوم، فقال: ﴿رَجَالٌ لَا تُلِهِمُ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور ٢٧)، وكلمة «التقلب» فى الآية أشد دلالة على ما يصيب القلوب من الفزع والاضطراب فى ذلك اليوم، من الوجيب، فضلاً عما فى النص القرآنى من خلوصه من تكرير «فيه» الواردة فى الرسالة.

٧ - وعندما يتأثر الشاعر القرآن، يبدو الفرق واضحاً بين الأصل والتقليد، وأصغ إلى حسان يقول:

وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا عمى، وهداة يهتدون بمهتد
أخذه من قوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ (الرعد ١٦). فأنت ترى حسان يوازن بين ضلال وهداة، وليس الفرق بينهما من الوضوح والقوة كالفرق بين الأعمى والبصير، والظلمات والنور، فالفرق هنا واضح ملموس، يشعر به الناس جميعاً، حتى إذا اطمأنت النفس إلى هذا الفرق، وآمنت بأن هناك بوناً شاسعاً بينهما، انتقلت من ذلك إلى تبين مدى ما بين الضال والمهتدى من فرق بعيد.

٨ - وقال حسان أيضاً فى رثاء رسول الله:

عزيز عليه أن يحدوا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
أخذه من قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَشِيَتْكُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة ١٢٨). وقوة الآية القرآنية تبدو فى إظهار نتيجة الحيد عن الهدى، وهى الهلاك والعذاب، وفى ذلك من التخويف لهم ما فيه، فهو يبرز هذه النتيجة كأنها حقيقة واقعة، تؤلم الرسول، وتثقل عليه، وتبدو هذه القوة أيضاً فى تعميم الحرص، فهو حريص على هدايتهم، حريص على خيرهم، حريص على أن يظفروا فى الآخرة بالثواب والنعيم المقيم، وكل ذلك وأكثر منه يفهم من قوله: «حريص عليكم»، أما حسان فقد خصص ولم يطلق.

٩ - وقال حسان فى غزوة بدر:

سرنا وساروا إلى بدر لحينهم لو يعلمون يقين العلم ما ساروا
دلاهمو بغرور، ثم أسلمهم إن الخبيث لمن ولاء غرار
وقال: إني لكم جار، فأوردهم شر الموارد، فيه الخزى والعار

(١) ورد فى المصدر السابق ص ١١٦.

ثم التقينا، فولوا عن سراتهم من منجدين، ومنهم فرقة غاروا يستوحى ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال ٤٨). وتأمل التصوير القوي البارع فى القرآن لتزيين الشيطان أعمال الكافرين لهم، فإن القرآن قد نقل ذلك الحديث الذى أوحى به الشيطان إلى أوليائه وكيف ملاً قلبهم بالغرور، وهنا يجمل حسان، بينما يفصل القرآن، وفى هذا التفصيل سر الحياة، تلك الحياة التى ترينا الشيطان ناكصا على عقبيه، عندما تراءت الفتتان، يبرأ من هؤلاء الذين غرهم بخداعه، وأسلمهم إلى الموت بكذبه وإيهامه، وهذه الحياة هى التى تنقص شعر حسان.

١٠ - وتأمل الفرق فى الأسلوب، عندما حور النابغة الجعدى أسلوب القرآن قليلا، فقال:

الحمد لله، لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما
المولج الليل فى النهار، وفى الليلى ل نهارا، يفرج الظلما
فقد حور قوله سبحانه: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ (الحج ٦١). فحذف المولج، وتقديم فى الليل، وتنكير نهارا، والمجىء بجملة «يفرج الظلما»، كل ذلك أضعف أسلوب الشاعر، ويباعد بينه وبين الأسلوب القوي للقرآن.

١١ - وخذ قول الشاعر:

فإنك لا تدري بأية بلــــدة تمت، ولا ما يحدث الله فى غد
المستمد من قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان ٣٤). تر التعميم فى الآية الكريمة أكسبها فخامة وقوة، والتعبير بتكسب فيه تصريح بعجز النفس عن أن تعرف ما تعمله هى نفسها فى الغد، وذلك ما لا تجده عند الشاعر الذى عمم فيما يحدثه الله فى غد، ولم يكن لهذا التعميم ما للتخصيص من قوة التعجيز.

١٢ - وهذا الشعر الذى ينسب إلى حمزة فى غزوة بدر، يتحدث عن الكفار: أولئك قوم قتلوا فى ضلالهم
لواء ضلال قاد إبليس أهمله
فقال لهم إذ عاين الأمر واضحا:
فإنى أرى ما لا ترون، وإننى
فقدمهم للحين، حتى تورطوا

وخلوا لواء غير محتضر النصر
فخاس بهم، إن الخبيث إلى غدر
برئت إليكم، ما بي اليوم من صبر
أخاف عقاب الله، والله ذو قسر
وكان بما لم يخبر القوم ذا خبر

وهو يستوحى كحسان قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ...﴾ (الأنفال ٤٨) فأى فرق شاسع بين الأسلوبين وبين التصويرين، فالأسلوب فى الشعر متهاوٍ ضعيف، بينما هو فى الآية قوى رائع، يصور الشيطان وقد ملأ أفئدتهم إعجاباً بأعمالهم، فاغتروا بها، وتكاد تستمع إلى وسوسته، وهو يؤكد لهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس مادام جازاً لهم، وتخليه مولياً الأدبار بعد أن تراءت الفتان، وبدت أمام عينيه الهزيمة، فيسلم قومه إلى القتل، ويفر غادراً بهم، ويرن فى أذنه براءته منهم، معللاً ذلك بأنه يرى ما لا يرون، وبأنه يخاف الله، وفى ذلك التصوير من التهكم بهم ما فيه.

أما الشعر فبين الضعف، يصف اللواء بأنه غير محتضر النصر. وقوله: إذ عاين الأمر واضحاً، ليس بأسلوب شعرى. والفرق قوى بين: والله شديد العقاب، وقوله: والله ذو قسر، وأنت ترى أنه برغم أن المعنى قد أوضحه القرآن، لم يستطع الشاعر أن ينهض إلى مستوى رفيع.

* * *

وللباقلانى منهج فى الموازنة، يبين به فضل كتاب الله، هو «أن تنظر أولاً فى نظم القرآن، ثم فى شىء من كلام النبى صلى الله عليه وسلم، فتعرف الفصل بين النظمين، والفرق بين الكلامين، فإن تبين لك الفصل، ووقعت على جلية الأمر، وحقيقة الفرق، فقد أدركت الغرض، وصادفت المقصد، وإن لم تفهم الفرق، ولم تقع على الفصل، فلا بد لك من التقليد، وعلمت أنك من جملة العامة، وأن سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان^(١)»، ثم أورد الباقلانى بعض خطب الرسول وكتبه، وعلق عليها بقوله: «ولا أطول عليك، وأقتصر على ما ألقىته إليك، فإن كان لك فى الصنعة خطر... فما أحسب أن يشتهب عليك الفرق بين براعة القرآن، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول ﷺ فى خطبه ورسائله، وما عسك تسمعه من كلامه، ويتساقط إليك من ألفاظه، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بوناً بعيداً، وأمداً مديداً، وميداناً واسعاً، ومكاناً شاسعاً^(٢)...».

«فإذا أردت زيادة فى التبيين... فتأمل (هداك الله) ما ننسخه لك من خطب الصحابة والبلغاء، لتعلم أن نسجها ونسج ما نقلنا من خطب النبى صلى الله عليه وسلم واحد وسببها سبب غير مختلف، وإنما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين، وبين شعر الشاعرين... فإذا عرفت أن جميع كلام الأدمى منهاج، ولجملته طريق، وتبينت ما يمكن فيه من التفاوت - نظرت إلى نظم

(٢) المصدر السابق ص ١١٤.

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٠٩.

القرآن نظرة أخرى، وتأملته مرة ثانية، فترى بعد موقعه وعالى محله وموضعه^(١)...» ثم يورد بعض خطب البلغاء وكتبهم، ويقول: «تأمل ذلك وسائر ما هو مسطر من الأخبار المأثورة عن السلف وأهل البيان واللسن، والفصاحة واللفظ... فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين... فإن خيل إليك، أو شبه عليك، وظننت أنه يحتاج أن يوازن بين نظم الشعر والقرآن، لأن الشعر أفصح من الخطب، وأبرع من الرسائل وأدق مسلكا من جميع أصناف المحاورات... فتأمل ما نرتبه ينكشف لك الحق: إذا أردنا تحقيق ما ضمناه لك فمن سبيلنا أن نعد إلى قصيدة متفق على كبر محلها وصحة نظمها، وجودة بلاغتها ومعانيها، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتقدم فى الصناعة، والمعروفين بالحدق فى البراعة، فنقفك على مواضع خللها، وعلى تفاوت نظمها، وعلى اختلاف فصولها، وعلى كثرة فصولها، وعلى شدة تعسفها، وبعض تكلفها، وما تجمع من كلام رفيع يقرب بينه، وبين كلام وضيع، وبين لفظ سوقى يقرب بلفظ ملوكى^(٢)...» ثم عرض تطبيقا على منهجه معلقة امرئ القيس، وأخذ يبين ما فيها من مجال النقص، ووجوه العيب، ثم قال: «وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتاً بيناً فى الجودة والرداءة، والسلاسة والانعقاد، والسلامة والانحلال، والتمكن والتسهل، والاسترسال والتوحش والاستكراه، وله شركاء فى نظائرها، ومنازعون فى محاسنها، ومعارضون فى بدائعها، ولا سواء كلام ينحت من الصخر تارة، ويذوب تارة، ويتلون تلون الحرباء، ويختلف اختلاف الأهواء، ويكثر فى تصرفه اضطرابه، وتتقاذف به أسبابه، وبين قول يجرى فى سبكه على نظام، وفى رصفه على منهج، وفى وضعه على حد، وفى صفائه على باب، وفى بهجته ورويقه على طريق، مختلفه مؤتلف، ومؤتلفه متحد، ومتباعده متقارب وشارده مطيع، ومطيعه شارده، وهو على متصرفاته واحد، لا يستصعب فى حال، ولا يتعقد فى شأن^(٣)».

ذلك هو منهج الباقلانى فى الموازنات.

وإن مجال الموازنات لمتسع بين القرآن والشعر عندما يكون الموضوع واحداً، فقد تحدث القرآن والشعر عن كثير من الغزوات ولم يستطع الشعر برغم تقليده فى كثير من الأحيان للقرآن أن يصل إلى السمو القرآنى، وأن يتناول شتى الأغراض التى تنتظم شؤون الجماعة الإسلامية، فى حين أن الشعر الذى تحدث عن هذه الغزوات ضعيف فى جملته لا يخرج عن أغراض الشعر المعروفة يومئذ من مدح أو هجاء أو فخر أو رثاء.

(١) المصدر نفسه ص ١١٥. (٢) المصدر السابق ص ١٢٦ وما يليها. (٣) المصدر نفسه ص ١٤٧.

خاتمة

من ذلك يبدو أن القرآن مكون من ألفاظ مختارة دقيقة موحية، قد اتسقت في جملها، واستقرت في مكانها، وكونت مع زميلاتها آيات تؤثر في نفس سامعها بقوة نسجها، وجمال موسيقاها، قد قدم فيها ما قدم، وأخر ما أخر، وذكر ما ذكر، وحذف ما حذف، واستعملت صيغة دون أخرى، لاعتبارات نفسية دقيقة، وكونت تلك الآيات سوراً، ترمى إلى توجيه النفس الوجهة الصحيحة المستقيمة، ولم تكسب الآيات في السورة تكديساً لاربط فيه بين الآية وأختها، ولكن كان النهج القرآني الذي يصل بين الآيات خبير نهج يؤثر في النفس الإنسانية، ويدفعها إلى العمل الصالح المثمر، في أسلوب يدعو إلى التفكير الهادي، أو يؤثر تأثيراً سريعاً عنيفاً. أما عناصر الموضوعات القرآنية فمما يركز على الغرائز الثابتة في النفس، وهي من أجل ذلك تؤثر عميق التأثير، وتخلد ما بقي الزمن.

هذا، وقد كان لبلاغة القرآن أثر كبير فيما ألف من كتب البلاغة، فمنه اقتبست تلك الكتب كثيراً من أمثلتها، وألف بعض العلماء كتباً خاصة تعالج ناحية معينة من نواحي البلاغة القرآنية، كما ترى ذلك في بعض ما أثبتناه من مراجع البحث، ولكن وقف معظمه عند حد الدراسة اللفظية، وعند حدود الجملة.

ولست أزعم أنني وفيت الموضوع حقه، لأن ذلك يتطلب من الجهد والوقت ما لا أملكه إلى اليوم، وحسبى الآن أنني وضعت منهجاً، ورسمت خطة لدراسة البلاغة القرآنية، كما ينبغي أن تكون، مؤملاً أن أفتح بذلك أبواب البحث لمن يتخصص في هذه الدراسة، فيتناول دراسة المفرد والجملة والسورة والمعنى، على أسس من الاستقراء الشامل، معيداً خصائصها إلى قواعد مطردة، وأصول ثابتة.

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

مراجع البحث

- ١ - الإتيقان فى علوم القرآن، (المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣١٨هـ).
- تأليف جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ.
- ٢ - أسرار البلاغة، (الطبعة الثالثة سنة ١٣٥٨هـ، ١٩٣٩م).
- تأليف عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ.
- ٣ - الأسلوب، (المطبعة الفاروقية بالإسكندرية سنة ١٩٣٩م).
- تأليف الأستاذ أحمد الشايب.
- ٤ - الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز، (طبع القسطنطينية سنة ١٣١٣هـ).
- تأليف عز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ.
- ٥ - الأصل والبيان لمعرب القرآن، (مطبعة مصر الحرة).
- تأليف الشيخ حمزة فتح الله.
- ٦ - أصول النقد الأدبى، (المطبعة الفاروقية بالإسكندرية).
- تأليف الأستاذ أحمد الشايب.
- ٧ - إعجاز القرآن (القاهرة سنة ١٣٤٩هـ).
- تأليف محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣هـ.
- ٨ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، (مطبعة المقتطف والمقطم سنة ١٣٤٦هـ، ١٩٢٨م).
- تأليف مصطفى صادق الرافعى.
- ٩ - الإعجاز والإيجاز، (المطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٧م).
- تأليف أبى منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٣٠هـ.
- ١٠ - الأقصى القريب فى علم البيان، (الطبعة الأولى سنة ١٣٢٧هـ).
- تأليف أبى عبد الله محمد بن محمد بن عمر التنوخى، أحد أعيان المائة السابعة.
- ١١ - بدائع القرآن، (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٥٠ بلاغة).
- تأليف عبد العظيم بن أبى الأصعب المتوفى سنة ٦٥٤هـ.
- ١٢ - البديع، (مخطوط بدار الكتب رقم ٥ بلاغة).
- تأليف أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤هـ.
- ١٣ - البلاغة وعلم النفس (محاضرة).
- للأستاذ أمين الخولى.
- ١٤ - بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، (المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٣هـ).
- للسيد محمود شكرى الألوسى البغدادى.
- ١٥ - البيان والتبيين، (المطبعة التجارية الكبرى سنة ١٣٤٥هـ، ١٩٢٦م).

- تأليف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ.
- ١٦ - تاريخ آداب العرب، (الطبعة الرابعة، مطبعة الاستقامة).
تأليف مصطفى صادق الرافعى.
- ١٧ - تاريخ الأدب العربى، فى صدر الإسلام والعصر الأموى.
(مطبعة العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٤هـ، ١٩٣٥م).
تأليف الأستاذ السباعى بيومى بك.
- ١٨ - تحرير التحبير، (مخطوط بدار الكتب رقم ٤٦٥ بلاغة).
تأليف عبد العظيم بن أبى الأصبع المتوفى سنة ٦٥٤هـ.
- ١٩ - تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى، (مطبعة سركيس ببيروت سنة ١٩٣٥م).
تأليف أنيس المقدسى.
- ٢٠ - تفسير جزء: عم يتساءلون؟ (الطبعة الثالثة سنة ١٣٤١هـ).
تأليف الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣هـ، ١٩٠٥م.
- ٢١ - التفسير: معالم حياته، منهجه اليوم، (القاهرة سنة ١٩٤٤م).
تأليف الأستاذ أمين الخولى.
- ٢٢ - التهذيب فى أصول التعريب، (الطبعة الأولى سنة ١٣٤٢هـ، ١٩٢٣م).
تأليف الدكتور أحمد عيسى بك.
- ٢٣ - حصاد الهشيم، (الطبعة الثانية سنة ١٩٣٢م).
تأليف إبراهيم عبد القادر المازنى المتوفى سنة ١٩٤٩م.
- ٢٤ - خزانة الأدب وغاية الأرب، (مطبعة بولاق سنة ١٢٩١هـ).
تأليف أبى بكر على المعروف بابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧هـ.
- ٢٥ - الخواطر الحسان فى المعانى والبيان، (مصر سنة ١٨٩٦م).
تأليف جبر ضويط.
- ٢٦ - دراسات فى الأدب الإسلامى، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧م).
تأليف الأستاذ محمد خلف الله.
- ٢٧ - دراسات فى علم النفس الأدبى، (المطبعة النموذجية سنة ١٩٤٩م).
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر.
- ٢٨ - دفاع عن البلاغة، (مطبعة الرسالة سنة ١٩٤٥م).
تأليف الأستاذ أحمد حسن الزيات.
- ٢٩ - دلائل الإعجاز، (مطبعة المنار سنة ١٣٣١هـ).
تأليف عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ.
- ٣٠ - رد معانى الآيات المتشابهات إلى معانى الآيات المحكمات.
(مخطوط بدار الكتب رقم ١٠١٩ تفسير).
تأليف ابن العربى المتوفى سنة ٦٣٨هـ.

- ٣١ - روح الاجتماع، (المطبعة الرحمانية).
- تأليف الدكتور جوستاف لوبون وترجمة أحمد فتحى زغلول باشا.
- ٣٢ - روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، (إدارة الطباعة المنيرية بمصر).
- تأليف السيد محمود الأوسى البغدادي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ.
- ٣٣ - سر الفصاحة، (المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٥٠هـ، ١٩٢٣م).
- تأليف ابن سنان الخفاجى الحلبي المتوفى سنة ٤٦٦هـ.
- ٣٤ - شرح الإيضاح للخطيب القزوينى، (المطبعة المحمودية التجارية بمصر سنة ١٣٥٣هـ، ١٩٣٥م).
- تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدي.
- ٣٥ - الصناعتين، (مطبعة محمد على صبيح بمصر).
- تأليف أبى هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥هـ.
- ٣٦ - الطران، (مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣٣٢هـ، ١٩١٤م).
- تأليف يحيى بن حمزة العلوى.
- ٣٧ - العمدة فى صناعة الشعر ونقده (الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥هـ، ١٩٠٧م).
- تأليف الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٦٣هـ.
- ٣٨ - غريب القرآن، (مطبعة حجازى بالقاهرة).
- تأليف أبى بكر محمد بن عزيز السجستاني المتوفى سنة ٣٣٠هـ.
- ٣٩ - فقه اللغة وسر العربية، (الطبعة الأولى سنة ١٣٤١هـ، ١٩٢١م).
- تأليف أبى منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٠هـ.
- ٤٠ - فن القول، (مطبعة مصطفى البابى الحلبي سنة ١٣٦٦هـ، ١٩٤٧م).
- تأليف الأستاذ أمين الخولى.
- ٤١ - فنون الأدب، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥م).
- تأليف هـ. ب. تشارلتن، وتعريب الأستاذ زكى نجيب محمود.
- ٤٢ - فى علم النفس، (مطبعة المعارف).
- تأليف الأستاذين: على الجارم ومصطفى أمين.
- ٤٣ - القرآن الكريم، (المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٥٤هـ).
- ٤٤ - قصص القرآن، (الطبعة الأولى سنة ١٣٥٩هـ، ١٩٣٧م).
- تأليف محمد أحمد جاد المولى بك وزملائه.
- ٤٥ - قواعد النقد الأدبى (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦م).
- تأليف أسل أبركربى، وتعريب الدكتور محمد عوض محمد بك.
- ٤٦ - الكامل، (المطبعة الأزهرية بمصر).
- تأليف أبى العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة ٢٨٥هـ.
- ٤٧ - كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، (مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٧هـ).
- تأليف ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ.

- ٤٨ - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، (المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٣هـ).
- تأليف محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨هـ.
- ٤٩ - الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن. (المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٣هـ).
- تأليف الشيخ محمد بخيت.
- ٥٠ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، (المطبعة البهية سنة ١٣١٢هـ).
- تأليف نصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ.
- ٥١ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٤٤هـ).
- تأليف أبي البركات عبد الله النسفى.
- ٥٢ - مراجعات فى الآداب والفنون، (المطبعة العصرية).
- تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد.
- ٥٣ - المغرب فى الكلام الأعجمى، (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٦١هـ).
- تأليف أبى منصور الجواليقى المتوفى سنة ٥٤٠هـ.
- ٥٤ - مغنى اللبيب، (المطبعة الشرقية سنة ١٢٩٩هـ).
- تأليف ابن هشام الأنصارى المتوفى سنة ٧٦١هـ.
- ٥٥ - مقدمة لدراسة بلاغة العرب، (القاهرة سنة ١٩٢١م).
- تأليف الدكتور أحمد ضيف.
- ٥٦ - من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٦هـ، ١٩٤٧م).
- تأليف الأستاذ محمد خلف الله.
- ٥٧ - المواهب الفتحة فى علوم اللغة العربية، (المطبعة الأولى سنة ١٣١٢هـ).
- تأليف الشيخ حمزة فتح الله.
- ٥٨ - النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية، (مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٤٩م).
- تأليف محمد محمود جمعة.
- ٥٩ - النظم الفنى فى القرآن، (المطبعة النموذجية).
- تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدي.
- ٦٠ - نقد النثر، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٧هـ، ١٩٣٨م).
- تأليف قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠هـ.
- ٦١ - نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، (مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧هـ).
- تأليف محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦هـ.
- ٦٢ - الهول المطرب فى القول بالموجب، (مخطوط بدار الكتب).
- ٦٣ - الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، (الطبعة الأولى سنة ١٢٨٩هـ).
- تأليف الشيخ حسين المرصفي المتوفى سنة ١٣٠٧هـ، ١٨٨٩م.